المكان والجينات في سلوك المجتمع

الانثروبولوجيا وتاهيل المكان

من وسائل صناعة الوعي الناضج

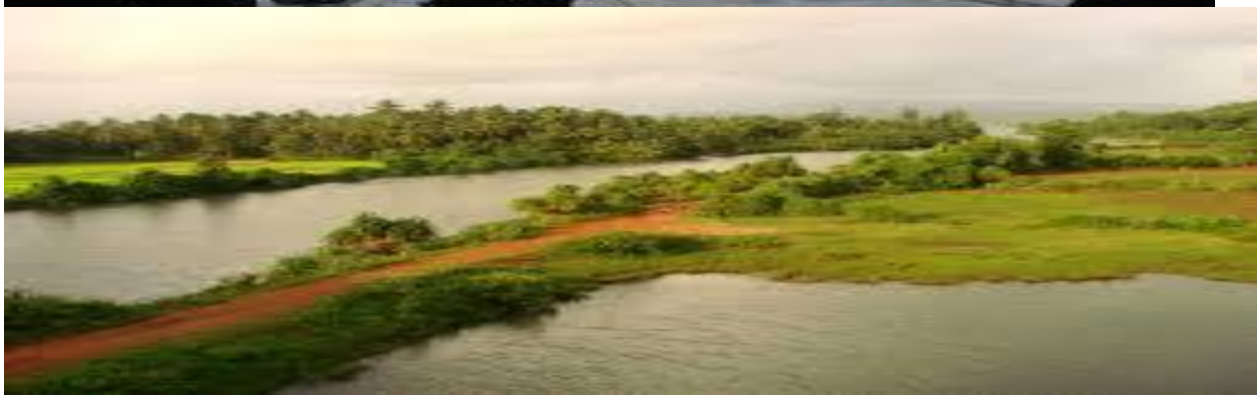

الدكتور المهندس

مهدي سعيد حيدر العزاوي

الاهداء

الى ابي وامي

الى عائلتي الكبيرة

ولزوجتي وابنائي واحفادي

لاصدقائي واحبتي

الى كل من أضاءّ بعلمِهِ عقلّ غيره

مهدي سعيد حيدرالعزاوي

August 2015

المحتويات

المقدمة ص5

مالجديد في كتابنا ص6

اسئلة بحاجة لاكثر من تفسير..... ص5

اجوبة يتضمنها كتابنا..... ص8

تمهيد 1: المجتمع بين الاسطورة والتاريخ..... ص10

تمهيد 2 : ابن خلدون بين البداوة والحضر..... ص17

الفصل الاول : تطبيقات علم الاجتماع..... ص27

الفصل الثاني :السكان وعلم الاجتماع..... ص 37

الفصل الثالث: الحيز المكاني ..... ص 44

الفصل الرابع: اين نحن كمجتمع ص51

الفصل الخامس : سبل النسيج المتجانس..... ص56

الفصل السادس : عناصر التاثير والفعل ص61

الفصل السابع :مجالات الانثروبولوجيا..... ص70

الفصل الثامن :الدين والانثروبوجيا..... ص76

الفصل التاسع : العقل المنفعل.....ص85

الفصل العاشر:سلوك وظواهراجتماعية..... ص94

الفصل الحادي عشر: عناصر الشخصية والذات..... ص100

الفصل الثاني عشر: المكان والمناخ..... ص107

الفصل الثالث عشر: الهوية وثنائية دجلة والفرات..... ص111
الفصل الرابع عشر :لغز التمرد العراقي في ظل الدولة..... ص116
الفصل الخامس عشر: الجينات والسلوك المجتمعي..... ص125
الفصل السادس عشر:الجغرافيا الثقافية وسلوك المجتمع..... ص135
الخلاصة : .....ص 145
المحتويات..... ص147
المصادر..... ص150

المقدمة

كثيرون الذين تناولوا علم الاجتماع العام الذي يهدف الى تحديد صفات الظاهرة الاجتماعية , بمنظور اكاديمي جديد نوعما , بين علوم الاجتماعيات الاخرى , بما فيها الاقتصاد والعلوم السياسية ,علم الانسان –الانثروبولوجيا – وعلم النفس .

وكان الشائع في تلك الازمنة , هو توحيد الدراسات البشرية اينما تواجدت ظواهر وصفات الشخصية الاجتماعية , وكانت خليطا بين المعرفة الانسانية , والقراءات الفلسفية . وتدافعت دراسات علوم الاجتماع في معظم اروقة المؤسسات التعليمية , المتخصصة . وكان المرجع لكل هذه الدراسات في مجتمعاتنا , هو ابن خلدون , عالم الاجتماع الاول. ثم توافدت البعثات . بين المتخصصون من مناطق الشرق الاوسط . قابلها مستشرقون , دخلو في بنية الفرد , الانسان وبيئته . وتداول الجميع مصطلح الشخصية , الريفية والبدوية والمدينية . وراح البعض متوسعا في صفات الشخصية الرافدينية ومقارنتها بصفات االشخصية النيليلة. وظلت هذه التعاريف والشخصيات منذ عقود طويلة من الزمن متداولة. بين من يبحث ويدرس في علوم المجتمع المتعددة .

المفاهيم الاساسية لعلم الاجتماع , قد رسمت خارطة عامة لمنهجية الطريق . تشمل ضمن معطياتها , الطبيعة الجغرافية , المكان والعلاقات التاريخية كمقومات بشرية , بموارد الاكتفاء الذاتي. وللتعطيل المتعمد للعقل المبدع في البحث العلمي , لاي دراسة تهم المجتمع كونها تسلط الحقائق , بشكل دقيق , على ما يعانيه الفرد والمجتمع , من تردي الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية . بسبب سوء الادارات السياسية في البلدان . لما لها من قدرات سلطوية على توجيه الاعلام احاديا , لحجب الحقائق والمعاناة التي تعاني منها المجتمعات . ومايهم السلطات الحاكمة , هو تجهيل مايدور خارج الاطار المحلي من رفاهية ومكاسب حققتها المجتمعات الاخرى . كحقوق طبيعية لابد من التمتع بها انسانيا .

ورغم ماتم من تدوين ودراسات في علم الاجتماع , وما يتعلق بالسلوك او الصفات الشخصية , الا انها مازالت بحاجة الى بحوث معمقة عن تاثيرات البيئة والموروث . اي النشاءة وما يتم اكتسابه عنوه من الثقافية المكانية, من المجتمع بعاداته وتقاليدة , والتي هي جزء من ثقافة المكان, وما يتم نقله وراثيا من خلال الاجداد والاباء التي تؤثر هي الاخرى على السلوك والتصرف . ورغم التفليش والتجريف في المجتمع العراقي على وجه الخصوص . مازال ارشيف البحوث المنهجية فقيرا , يخلو من مضامين التشخيص للعلل والمعاناة التي تزامنت مع سلوك وعادات وتقاليد المجتمع . بل اصبحت منظومة القيم القديمة هي شئ من الماضي الحاضر . نفتخر به ولم نعيد انتاجه من جديد في عالم اليوم المتشابك في تعقيداته الحياتية و والمعاشية. اضافة لتصدع النسيج المجتمعي داخل المجتمع العائلي , ليزحف الى المجتمع الواحد و بقيود عديدة وحواجز كونكريتية امام الاخر . نتصلد به ولم نعيد عقلنته من جديد في عالم اليوم المتشابك في تعقيداته الحياتية و والمعاشية.

مالجديد في كتابنا ؟

الجديد في كتابنا هو مالم يقال او يبحث فيه. سنتناول اللامتناول واللا مبحوث فيه واهمها:

1. الذات , انت وانا ونحن ! بخصوصيتها المكانية – الجغرافية- التي هي اعم واشمل مفهوما مما قيل وكتب عن الشخصية العامة , كالحضر والبداوة.وغيرها من مكونات المجتمع.

2. البيئة الثقافية مكانا ومجتمعا لا تؤسس لكينونة الذات مالم تقترن بمؤثراتها السلوكية والسايكولوجية وعلم النفس , واقتصاد الطبقات الاجتماعية. واقتراحات جدية في تطبيقات علوم الاجتماع.

3. الجينيوم البشري والاكتشافات الحديثة في ترميز وتصنيف الموروث الجيني . هي المساحات المفقودة في علم الانثروبولوجيا المعرفي الحديث .

4 .تناول الفروقات في الشخصية الجبلية ومقارنتها مع بقية الشخصيات الاخرى التي تختلف في جغرافياتها المكانية والثقافية.

5 . الحروب والحصارات التي افرزت, مفاهيم قيمية جديدة , انوية , مصلحة ومكانية. لم يتطرق لها اي من المتخصصين , بجرأة علمية ناقدة . رغم تشظي النسيج المجتمعي . وظهور ثقافة المظلوم الحاكم. وظلت الدراسات والمقالات تجتر من كتب ومصادر سبقت المتغيرات الكبرى في المجتمعات .

6.تناولنا علم الاتنوغرافيا , الذي يصف احوال الجماعات وانماط حياتهم الجغرافية وسلوكهم البيئي.

اسئلة بحاجة لاكثرمن تفسير!

هل حقيقة ان السوسيولوجيا العربية قد تكاملت كعلم الى الحد الذي بات من الممكن ان نطلق عليها (سوسيولوجيا) ، ام انها فعلاً في ازمة ولابد من اعادة النظر في شأنها.

ان السوسيولوجيا العربية تعيش في ضبابيةٍ قد جعلتها مجهولة المعالم ومغيبه الحدود ، وذلك كنتيجة حتمية لعدم اعتراف المتعاملين والمنشغلين في البحث العلمي العربي السوسيولوجي بما يقدموه او ينتجوه ، وعدم اعترافهم ذلك ناجم عن الشعور بالنقص تجاه السوسيولوجيا الغربية التي شغلت اركان الاكاديميات العربية في مواد علم الاجتماع . فلماذا انصرف طالب علم الاجتماع العربي بتلقي السوسيولوجيا الغربية بكل مفاهيمها واركانها وتنظيراتها ؟ هل هناك قصورٍ في نتاجات المثقف العربي الفكرية الى الحد الذي دفعه الى تبني الطر وحات الوافدة من الخارج ، ام ان الانفتاح بشكلٍ كبير على التنظير الغربي هو لمجرد المقارنة مع المجتمعات العربية، ام شعور الناتج العربي بالنقص تجاه الناتج الغربي بحيث لايمكن مجاراته.

ان جامعاتنا العربية اليوم وفي اقسام علم الاجتماع تمتلأ بموادٍ تعتمد في طبيعتها وملامحها على المجتمعات الغربية ، في حين لم نلحظ الا اشارات بسيطة لما يدور في اركان المجتمعات العربية.

ان علم الاجتماع العربي في ازمة تنظيرية خانقة . فلماذا لا ينظر وينشأ عالم الاجتماع العربي نظريات تملأ الافق مثلما يروج لذلك عالم الاجتماع الغربي ؟ فالمتتبع لادبيات علم الاجتماع يجد ان الناتج التنظيري الغربي اكثر غزارة من الناتج العربي ، او اكثر شمولاً وسعةً وانتشاراً . فما سبب ذلك ؟ هل هو الامكانيات بكل اشكالها ، ام جرأة المثقف الغربي على ايصال تنظيراته للعالم اجمع ، ام اتباع الموضوعية والحيادية دون الركون الى المغالاة والانحياز . .

من الممكن القول ان توفر الامكانيات لم يقف عائقاً مباشراً في كل الاحوال في انبثاق التنظيرات السوسيولوجية ، فكثير من المجتمعات قد عانت ازمات كبيرة ومع ذلك استطاع علماء الاجتماع فيها من الاتيان بنظريات لا زالت متداولة الى اليوم . فلماذا يبرر عالم الاجتماع العربي اليوم ضعف التنظير العربي بقلة الامكانيات وكثرة الازمات .

يكاد المثقف العربي يختلف عن الغربي في هذا المجال في مسالة ذات جذورٍ معقدة ، فالمثقف الغربي ينظر الى المسألة بموضوعية ولحساب مصلحة المجموع ، دون الاخذ في الحسبان مصلحةٍ فردية واحدة ، وفي الجهة المقابلة نجد ان عدم تقدم السوسيولوجيا العربية وبقاؤها في موضع المستقبل فقط ، هو ناشئ من الداخل العربي . فاليوم نقرأ لكثير من علماء الاجتماع العرب افكار تنظيرية لها ثقل كبير في المجتمع العربي ، ولكن المشكلة لا يتم تبني هذه الافكار من قبل الآخرين العاملين في هذا الحقل ، لغاياتٍ ليس لها علاقةٍ بالموضوعية وحيادية العلم ، فتغييب الآخر ناشئ في المحيط العربي اولاً ، فلا يعترف العديد من المبدعين

في هذا العلم بنتاجات غيرهم من العرب ، وبالمقابل لا يعير هؤلاء ايضاً اية اهمية لنتاجات غيرهم ، في حين ان استقبالهم لطروحات الغرب يكون منقطع النظير وعلى اشده.

فلماذا هذا التهاون في توضيح ملامح السوسيولوجيا العربية من خلال عدم تثبيت الافكار التنظيرية الخاصة بالمجتمعات العربية وجعلها مادةً علمية تنافس ما طرحه الغرب ؟

ان العقل العربي لا يستهان به وقد شهدت له ميادين علمية كثيرة في النبوغ والرجاحة ، فمن غير الممكن ان نعتمد في جامعاتنا وبشكلٍ كلي على ما طرحه علماء الغرب في علمٍ الاجتماع دون الاستعانة بكل فكر سوسيولوجي عربي ، حتى ان اغلب نظريات الغرب بعيدةً كل البعد عن مجتمعاتنا ، والتي قد لا تنفعها بشيءٍ الا لمجرد المقارنة ، فمسألة صراع الذوات في السوسيولوجيا العربية هي التي وقفت حائلاً في عدم وضوح علم الاجتماع العربي وتكامله . فالتكامل يتم بترابط الافكار معاً دون الانفراط ، حيث ان كل فكرةٍ سوسيولوجية عربية ممكن ان تكملها فكرة عربية اخرى ، وبذلك نستطيع بناء مرتكزاتٍ اساسية نحو علم اجتماع عربي حيث ان الصراع يجب ان يكون في طرح الافكار لا في تهميش الطاقات ونبذها.

ان مشكلة السوسيولوجيا العربية هي ان المشتغلين في وضع ادبياتها يكادوا يعملوا كلاً على حدة دون اتكاء كلاً منهم على الآخر لبناء اسس هذا العلم بشكلٍ صحيح ، والسبب في ذلك جوهري وواضح وهو الانا المتجبرة نوعاً ما والتي تحاول الغاء كل الاراء الاخرى والاحتفاظ برأيها فقط.

ان اكثر ما نعرفهم من علماء الاجتماع اليوم في العالم اجمع هم علماء السوسيولوجيا الغربية بالنسبة لنا كعرب ، في حين ان رؤيتنا لعلماء الاجتماع العرب مشوشة ولا نكاد حتى ان نعرف ان ذلك الشخص متخصص في علم الاجتماع ام في حقل علمي آخر . فالمشكلة تنبع من واقعنا ، فلا ينبغي نحن ان نرتفع بشأن السوسيولوجيا العربية الا من خلال اعتماد تنظيرات علماؤها بشكلٍ كبير ومحاولة تطبيقها قدر الامكان والتنافس بها مع نظريات الغرب التي تكاد ان تملأ كل مناهج علم الاجتماع اليوم.

فأن كنا نروم النهوض بعلم الاجتماع العربي وتحديد حدوده الضائعة ، فلا بد لنا العمل وبشكلٍ جدي على تنسيق افكارنا بحيث تكمل كل فكرة الفكرة الاخرى ، مع دعم وتحفيز تنظيرات علماء الاجتماع العرب ، وتبني كل افكارهم التي من الممكن ان تعود بالنفع على مجتمعاتنا التي هي بحاجة لذلك ، مع اقرار الموضوعية الحقة التي تبعد الانحياز والتعصب الاعمى ، والارتفاع بشأن العلم وتطوره بعد فترة السبات التي يمر بها. واخيرا وليس اخرا .

التركيز على العنف وعلاقته بالمقدس , واهمية دراسة التاثيرات النفسية والسايكولوجية , ومدى تقبل احتكار التأويل النصي في مجتمع دون آخر. ان سوسيولوجيا المجتمعات التي تعتبر الدم جزء من قدسيتها كالذبيحة مثالا , لربما تترك حفرا في الذاكرة الطويلة التي لها جيناتها البايولوجية .فتسترجعها عند استنهاض العواطف والمعتقد من حيث الفهم السطحي للتفسير. فيصبح الذبح مشروعا يقترن باسم اعلى مقدس هو: الله اكبر , وشرعنة التفخيخ , والحرق لاغلى ماخلق الله : الانسان . لربما نحتاج الى اجوبة خارج اطار النص كي نعقلن

انسنتنا المتهمة بكل االاجرام المجتمعي على مستوى الكون. آخذين بنظر الاعتبار اننا نشكل مايقارب الخمس بالمائة من سكان المعمورة . الا ان الارهاب العالمي خمسة وتسعون بالمائة منه ,نحن فاعلوه ومخططوه ومبدعوه ومفكروه ومشرعنوه.

اجوبة يتضمنها كتابنا

يعتبر علم الاجتماع , البيولوجي والسيكولوجي امرين بديهيين ,ويصعب وضع الحدود بين الاثنوغرافيا وعلم الاجتماع .كما ان الفارق الطبقي ذات اهمية لاتقل عن الفارق الثقافي . ان علم الانسان يستخدم بالضرورة نظريات انثروبولوجية , ويمكن ان تكون هذه النظريات عمليا لاسقاطها وتغيراتها مع العالم الاجتماعي.وهذا مايمكن ان يصنف ضمن مفاهيم جديدة في الانثروبولوجيا البايولوجية.

علم الاجتماع , علم العلوم التفسيرية والتأويلية، علم المجتمع المتنوع والمتغير جغرافيا وبيئيا وبايولوجيا. علم لاتحددة اديان وفلسفة وعلوم ثابتة ومؤدلجة انه علم المفاهيم المتجددة للسلوك الانساني بكل كينونته البشرية واحاسيسة. هو الاقتصاد والتربية الاجتماعية هوالموروث والثقافات الجغرافية وجفرافيات السكان المتحركتان خارج اطارهما المكاني.

علم اجتماع هو بحث في سلوكيات وصفات البدوي والمديني والريفي ومايملك من ارث وسياسة واعراف وشرائع . تم استنتاج سلوك وعلاقات التجمعات فيما بينها كتصنيف شعبي ونخبوي امي وجاهل ومتعلم . من عشيرة ودين من افندية بدشاديش وشراويل متعددة الثقافات، من توليفات علم الاجتماع , علم الانسان , وعلم المجتمع. وعلوم لاتخضع لادلجة وسكون العلم المتحرك التجريبي السايولوجي والفلسفي . اخذين بنظر الاعتبار ماهو مكتسب بيئي وما هو فطري وموروث بايولوجي . لتشخيص الخصوصيات. اخذين بالاعتبار اسباب الهُويات المأزومة والمستنزفة والنرجسية وغيرها.

علم الاجتماع هو السياسة التي تحدد العلاقة بين المجتمع والسلطة وبين الفرد والدولة . انه علم لا تحدده صفحات كتيب هنا وهناك , بل حركة مجتمع خاض حروب وتسلطت عليه سلطات جائرة خلقت تهشيم في نسيجه المجتمعي فاصبحت المتضادات , جزء من السلوك الحذر, والمتردد والخائف والتي تشكل جزءا من العواطف الهائجة والمنفعلة, في تعاملاتها المجتمعية فيما بينها.

بحثنا في كتابنا عن المجتمع العراقي نمودجا , هو ما سنضعه كاول بحث جرئ لتحليل وتشخيص لنماذج اجتماعية من مجتمعاتنا . ولن نتردد في تدوين مانؤمن به , من منطلق علمي وواقعي محايد. ليس له مصلحة او هدف شخصي. سوى تدوين مايمليه الضمير الانساني عن حلقات مفقودة لم يتجرأ احد في طرحها بمنهجية معرفية عن ادق تفاصيل مجتمعنا العراقي.

الجغرافيا كمكان وتاثيرها في الشخصية وهي احد انواع الجغرافيا البشرية التي تنطلق منها ماسميناه بالثقافة المكانية.ومدى تاثير ذلك على الشخصية الجبلية والبدوية والريفية والمدينية والسياسية.

تمهيد -1-

المجتمع بين الاسطورة والتاريخ

الاسطورة وانعكاساتها:

الانسان في الاسطورة يتشبث ويخضع للالهة التي على الرغم من سطوتها فانها رحيمة وعادلة. وهو لايتصور الها قويا من دون سطوة. فالاله قد يكلفنه باشياء واعمال تفوق امكانياته كانسان , الا انها تصبح في الاسطورة قريبة المنال لابسبب خارقيته بل بسبب الرحمة والعطف الالهيين.

كذلك, يلوذ بالهته ويرى بان الحاكم الحقيقي هو الاله وليس الدولة والدولة الحقيقية ذات السيادة المستقلة عن كل تدخل خارجي هي الدولة التي يتالف منها الكون ويحكمها مجمع الالهة. لذا فان اراضي وخيرات وادي الرافدين هي ملك الالهة وعليه , فان البشر هم عبيد او خدم لدى الالهة . فسطوة الالهة هي خير من تسلط الدولة والعبودية للالهة خير من الخضوع المذل للحاكم. اذ ما ان تبدأ الدولة بشكل سطوة وغالبا ماتعلن عن نوايا حسنة واهداف ذات شعارات معروفة كالعدل والحرية وسرعان ماتتحول الى طغيان وتسلط واستبداد.وهذا بدوره يمثل تحولا من سطوة الطبيعة الى سلطة القانون التي سيكون مقرها في المدينة. فمشكلة المجتمع العراقي هي هذه المخاضات والولاءات المستمرة لايجاد المجتمع المدني الذي يظل في تصارع مع قيمة الطبيعة ذات الجذور الريفية والبدوية.

الاسطورة نتاج لخيال شعبي جمعي , تالفت عليه عواطف الجماعة في بحثها المتواصل عن الاصول. وهي تنأى عن التجريد وتركيب المفاهيم وتاخذ العقل البشري مباشرة الى هذه الاصول دون المرور بالسلسلة الفلسفية للعلل.ولهذا جعلها تغوص في التاويل والتناقل الشفاهي حتى وصلت الينا محفورة على الرقم الطينية او القصب . لكي تضع الانسان المعاصر في تزامن اسطوري لا تاريخي مع اسلافه.

وبينما يمثل ماضي البشرية ثقافة ترتبط بالاسطورة, فان ماضي الفرد هو تاريخه الشخصي الذي سيدخل في خلايا اللاوعي, اي في تاريخه المغيب والذي لن يكتشف بسهولة , بسبب آلية القمع الذاتي اي الكبت . اذن ستخرج الاسطورة عن قيد التاريخ وتتحول بعد موت الحضارة المنتجة الى لا وعي اسطوري , يطرح نفسه في عقل الفرد عند فهمه للمحيط الذي يعيش فيه.وهذا اللاوعي الاسطوري سيحمل معه التفكير ثنائيات التفكير الاسطوري في العصور الاولى كصورة البطل والتهويل الى احداث تاريخية نسجت هي الاخرى خيوط حول العقل , ولم تستقر بشكل تاريخ فعلي , وانما بشكل آخر اطلقنا عليه الوعي التاريخي الجمعي, الذي لايتحدد بالمؤرخ وانما بعقول الافراد في المجتمع.

الاسطورة الرافدينية :

الاسطورة الرافدينية القديمة , تناولت موضوعات كثيرة وكبيرة في آن واحد واصبحت لاحقا محط اهتمام الفلسفة .واهمها كان في خلق الكون عموما والكائنات الاخرى والانسان خصوصا. فالكون يتالف من السماء والارض مع اعطاء الاولوية للسماء لانها مقر الالهة العظام.واقتضت عملية تشكيل الكون فصل السماء عن الارض بموجب فعل الهي ومنها الى خلق الاجرام السماوية , واخيرا كان خلق الانسان.الذي ساهم في عملية خلقه الفعل والكلمة الالهيان, اضافة الى المادة الى المادة المصطفاة التي تجسدت في الطين المقدس والدم الالهي. وبالمقارنة مع الافكار الفلسفية اليونانية التي تناولت الموضوع نفسه,يمكن ان نجد حلقات وسيطة مشتركة بين الوعي الاسطوري الرافديني والنتاج اللاحق الذي قدمه الفلاسفة اليونان.وخاصة فيما يتعلق بفكرة ارجاع الكون الى مادة اولية , سبقت كل شئ . والفكرة الارسطية بضرورة التلازم بين المادة والصورة وفكرة المحرك الاول[1].

ومايهمنا هو ان نطرح سؤالا : فيما اذا كانت الاسطورة نتاجا للخيال وتحاكيه, فهل يعني ذلك انها تتقاطع مع العقل البشري في خطابها ام ان هنالك شراكة بين الخيال والعقل ؟وما تاثير ذلك على العقل الجمعي العراقي المتوارث لاسطورته وتاريخه؟؟ .

الخوف والخضوع:

اذا كانت الالهة بهذا المستوى من معرفة التفاصيل وهي التي تخطط لكل شئ حدث في التاريخ حسبما يعتقد الرافديني. فلا ريب بان الانسان العراقي القديم كان يحمل من الخوف والرهبة للالهة مايجعله ليحتسب لخطواته اولا ويشعر بالذنب وحتمية التراجع – التوبة –عند اتيانه لما تعتبره الالهة ذنبا يستحق العقاب عليه ثانيا.لذلك نجد ان الرافديني كثيرا مايتوسل بالالهة كي تصفح عنه , واحيانا يكون التوسل بدون ذنب بل فقط لاحلال الرضى والتبرك.

وهو ماناراه الان بين ماكان توسلا سومريا الى توسلات تحملها ملامح الشخصية العراقية , التقية منها, وغير التقية. معتمدا ذلك على البيئة التي يعيشها العراقي بين مكان واخر. سلوك مختلف مكانيا.

الانقياد واجهزة السلطة:

ادى الهلع النفسي والخوف الدائم من الالهة كمقدس , الى تاسيس الفكر العراقي القديم الى فكر اسطوري تهويلي بعقل اسطوري.فالعراقي القديم يفكر دائما بالالهة القريب منه والشخصي اليه. لذلك تدرجت الولاءاتبقربها منه او بعدها عنه. ويفعل ذلك عن طريق الشفيع.تعود العراقي منذ القدم على ان الطاعة, من مفاهيم الاحترام للاكبر ابتداء بالام التي يعتبرها بمنزلة الاله ثم الاب والاخ الاكبر وهكذاالى خارج العائلة من رجل الدين الى رئيس العشيرة.

لكن الدائرة الاهم هي دائرة السلطة والقانون والاماكن المقدسة. حيث تتحول الطاعة الى خضوع وانقياد رسمي مقترن بالطقوس والشعائر وتادية النذور. وهما من شكل البناء الفوقي القاهر لاخضاع الانسان

العراقي القديم وما امتد منه في طريق الانقياد والخضوع والذي يصل احيانا الى خنوع مذل ان كان التوسل جزءا جوهريا لتلبية الحاجات ولانقاذ الحياة . وهي مايشكل بنية وعقل العراقي المترسبة في اللاوعي الاسطوري للانسان العراقي المعاصر.

الطقوس والشخصية العراقية:

الشخصية العراقية تعيش في فضاء الازدواجية بين المقدس والمدنس " او القديس وابليس كما هو مؤول في كلكامش" وبين الحب والحرب وبين الايديولوجيا واليوتوبيا. حتى وصلنا الى عصر الامام علي وذريته . نرى الشخصية العراقية في عواطف وانفعالات متناقضة وقيم متصارعة . فقد احبوا عليا وذريته , لكنهم انقلبوا عليهم واعلنوا الحرب ضدهم.وقد ساعدت الطقوس الاسطورية – الدينية , على اذكاء هذا التناقض بين القيم الدينية المقدسة وبينالدنيوية المدنسة. فهو يكثر من الصلاة والتعبد لالهته عندما يشغل مكانا في الوعي, لكنه لايتورع عن الحاق الاذى بغيره متى ماسنحت له الفرصة تاركا للاوعي مجالا رحبا للعبث والفوضى. وقد تجمعت هذه التناقضات في الالهة الانثى عشتار الهة الحب والحرب , كما تجمعت في كلكامش الذي يتصارع في داخله المقدس والمدنس. لان ثلثاه الهة,وثلثا بشر كما موضح في اسطورته.

كانت الصلاة تتمثل برفع اليدين نحو الاله مع القراءة العلنية , وتشمل عدة ترانيم وادعية بمشاركة الجميع, ثم يحدث توقف بين الحين والاخر.واثناء هذا التوقف ينادي الجميع بنوع من التفجع او النواح الحزائني العام.كمواكب داخل المعبد بل حتى في ارجاء الدينة ايضا. ومن بين المشاركين العديد من الكهان وتماثيل الالهة.

الطقوس وعلم الاجتماع :

هنالك لحظتان في هذه الطقوس :الفصل والالحاق[2] , الفصل عن جماعة الاسرة مثلا والحاق بالقبيلة او لفصل عن طور الطفولة والالحاق بالرجولة. وبذلك يتحول الانسان من فرد الى عضوا في جماعته ولكن بشخصية جديدة. حيث يتحمل مسؤوليات وواجبات جديدة تلقى على عاتقه. وان مايجري من طقوس ماهي الا تعبيرا اكثر منه تغيرا . فمثلا , عندما تحين اوقات الطقوس الدورية منها , تزداد حماسة الفرد للمشاركة الطوعية للتعبير عن تدينه وحبه للالهة. ولكن ما ان تنتهي الطقوس حتى تواجهه الحياة الاجتماعية التي بها حماسة مغايرة بعدة عن النقاء والطهرانية. بل يضطر احيانا الى التدليس والغش للوصول الى مبتغاه.وغالبا ما ينتحب العراقي عند الهه ويتضرع اليه بالدعاء والتوسل لاجل ان يغفر له خطيئته او لكي يقضي حاجته.لكن ذلك لايمنع من ابادة جماعية او احراق مدينة بكاملها , فهو عنئذ لايشعر بتأنيب الضمير , بل يفتخر بما فعله.

هذا التناقض القيمي الذي تكشف عنه الطقوس من خلال التأويل , انما يتم تبريره دينيا وثقافيا. فالثقافة الاجتماعية في العراق القديم هي ثقافة دينية تبيح للفرد ام يشارك في تدمير المدن وسفك الدماء. فاذا استعرنا تعبير علي الوردي : التنويم الاجتماعي فان الثقافة الدينية تمارس تنويما اجتماعيا على

شخصية الفرد فيرى ان عمله وسلوكه – حق - لاغبار عليه لانه يتم باسم الاله المقدس دون ان يشعر بودود تناقض قيمي في تفكيره وسلوكه.ولتنويم الاجتماعي هو عين ماتمارسه الايديولوجية. فهي تزيف عقول الافراد في المجتمع كونها تعتمد الشعارات والقيم المؤثرة والبعيد عن الواقع الاجتماعي .

التاريخ وتأويله :

من خلال التاويل بوسعنا اسقاط الاسطورة او النمط الاسطوري على التاريخ . فيتحول البطل التاريخي الى رمز يعيش في تاريخ مقدس وتجري عليه طقوس تحتفي بذكر بطولاته.فالرمز والمقدس والطقس هي الثالوث الذي يخلد الاسطورة , وعندما تُسقّط على التاريخ و سيتحول هذا الثالوث الى ذكرى من الخلود والقداسة.

التاريخ هو صراع الحق ضد الحق قبل ان يكون صراع الحق ضد الباطل .فالاخير هو الظاهر من قراءة التاريخ والراسخ في الوعي التاريخي . لكن الاول هو قراءة تأويلية معرفية لعقول الاطراف المتصارعة.ويمكن القول اناول من أوّلَ التاريخ هو ابن خلدون , عندما نظر الى الصراع على السلطة وتكوين الدولة بانه صراع البداوة والحضارة. وهوالصراع الذي نقله علي الوردي من حيز الاجتماع السياسي الى حيز الاجتماع الثقافي , وبالتحديد في المدينة العراقية , حيث تسكن القيم البدوية والحضرية في عقل الفرد العراقي وهي المؤثرة في سلوكه .الحضارة تنتصر على البداوة في ملحمة كلكامش , بينما يحص العكس عند ابن خلدون حين تنتصر البداوة على الحضارة و عندما تغزوها في عقر دارها اي في المدينة. الفكرة اذن هي في الصراع الذي اوّله ابن خلدون ماديا وبمنظور الغزو, بينما حولّه علي الوردي قيميا ثقافيا.

فالاسطورة هي صراع الالهة , والتاريخ هو صراع البشر . وبينما نبحث في الاسطورة عن جوهرها لمعرفة اصول الاشياء . فان التاريخ يبحث عن الحق لمعرفة اصول السلطة . لان التاريخ هو تاريخ سياسي يسرد اسرار نخبة قليلة العدد من الابطال ضمن مجتمع يتجاوز العد.

ان الشئ الذي يميز العراق عن غيره من البلدان هو التاريخ. فما يتميز الان هو اصداء للازمنة الاولى في الافكار والاتجاهات والمخاوف والرغبات وحتى عندما يجهل العراقيون تاريخهم. الا انهم مسيرون به.ويجب ان ندنو من هذه الاصداء اذا مارغبنا بفهم العراقيين المعاصرين.

يمكن وضع خارطة موقع انشطة المجتمع مابين الاسطورة والتاريخ وما ينتج عن العقل الجمعي . كما في ادناه :

خارطة المجتمع بين الاسطورة والتاريخ

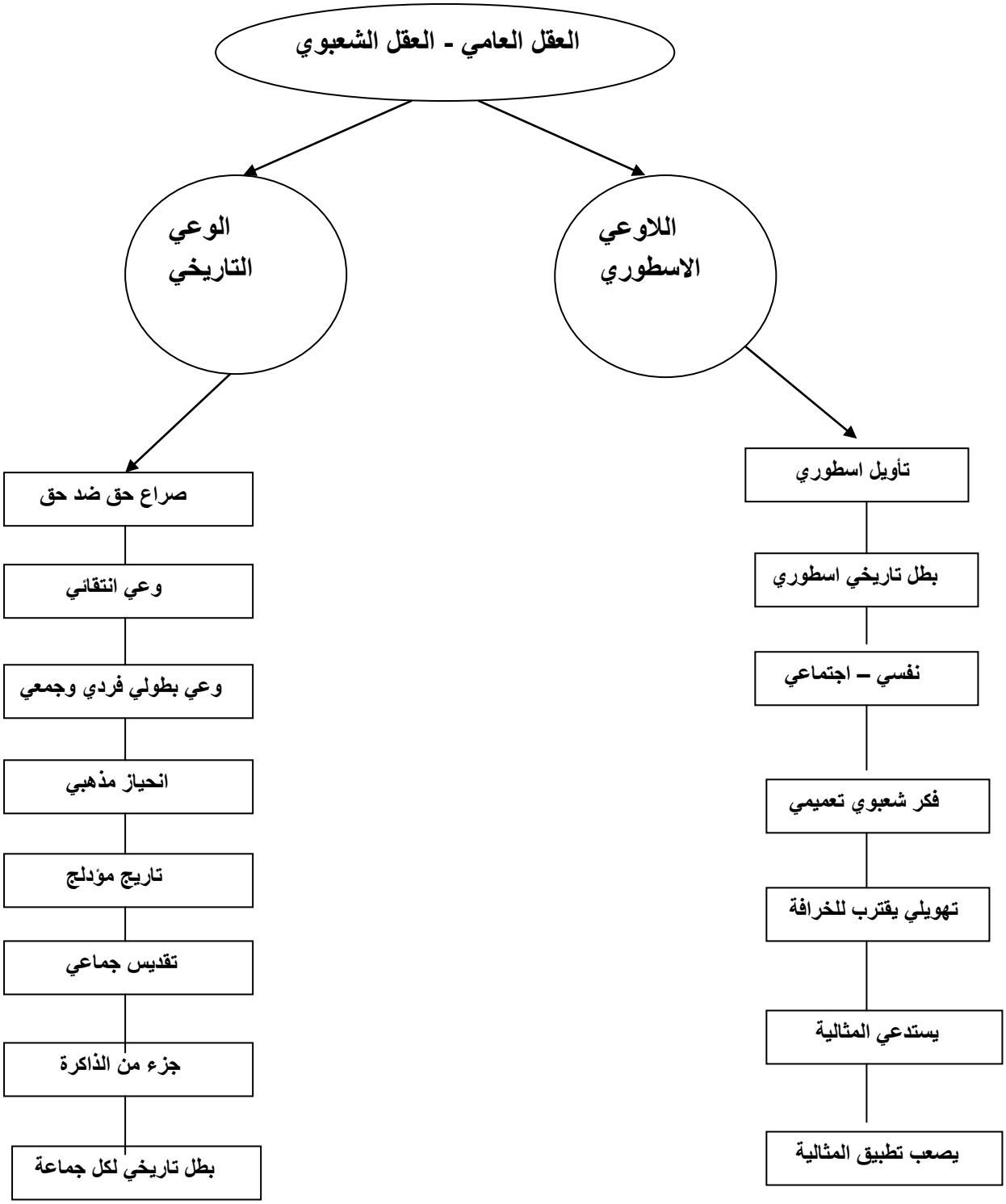

العقل الجمعي والذاكرة الخاصة والمشتركة

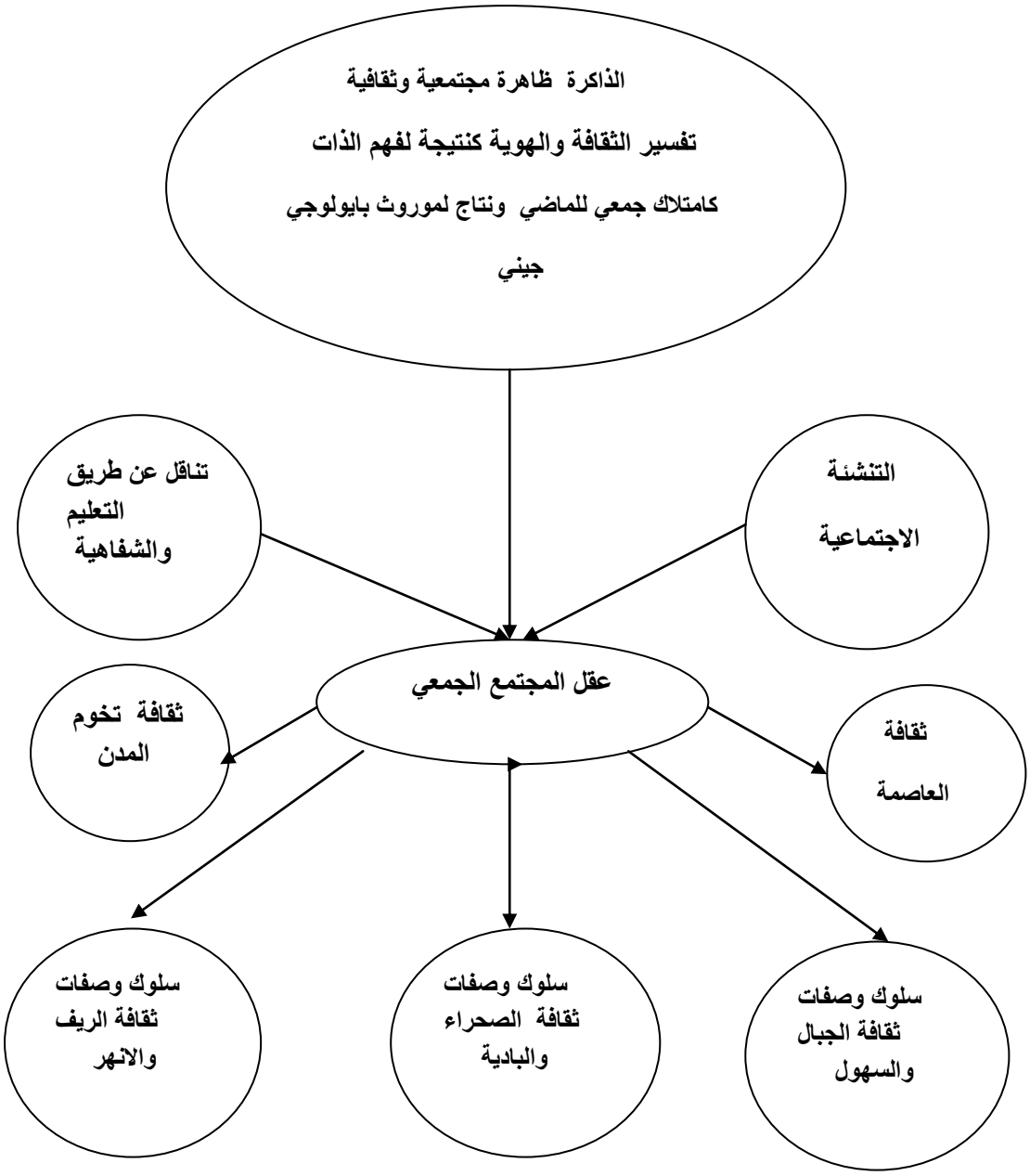

تمهيد -2-

ابن خلدون بين البداوة والحضر

اينما حلت السوسيولوجيا , علوم الاجتماع , الانثروبولوجيا , وملحاقتها مجتمعة ومتفرقة لابد للباحث المنصف في مكامن المجتمع العراقي ان يضع بحوث الدكتور علي الوردي , والدكتور فالح عبد الجبار الرفاعي. نقدا وبحثا وتحليلا. في تناول اهم الدراسات السلوكية لسكان الامكنة والنتائج المستنبطة في تلكم الرؤى التي ادونها . ليطلع عليها القارئ , لما لها من علاقة وثيقة في بحث كتابنا هذا . كي اضيف مالم يضاف سابقا حول اهمية الجينيوم البشري –الجينات البشرية وعلاقتها بالسلوك البشري .

سوسيولوجيا البداوة والمجتمع العراقي بين علي الوردي وابن خلدون(3)

اولا:

تخرج البداوة عالمياً من التاريخ كله، فهي في رحلة أفول أكيدة. مع ذلك فإن تاريخ البداوة في العراق يطرق الأبواب بشدّة مذكراً إيانا بما ألفناه في بطون الكتب من تلازم غابر بين التلاحم القرابي والتسيّد، أو بوجيزة العبارة، القانون الخلدوني القائل: إنّ الرياسة في أهل العصبية.

لقد حاول سوسيولوجي عراقي -منذ نصف قرنٍ تقريباً، وعلى مدى عقدين ونيف- أن يعيد للقاعدة الخلدونية بعض حضورها، نعني به الدكتور علي الوردي، في كتابه الأساس: (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث). في هذه الاطلالة مسعى لرؤية المقاربات والمباعدات في سوسيولوجيا الماضي وسوسيولوجيا الحاضر، ونقاط تقاطعهما.

ثانيا:

يقول الوردي: أنه يتبنى في مقاربته المجتمع العراقي نقطة انطلاق خلدونية: صراع البداوة والحضارة.

إن هذا الصراع يمتد عنده، في الماضي، إلى اقصاه. أي أنه وجد منذ أن ظهر الاثنان في الخليقة. فالصحراء -حسب قوله- تنتج البداوة، والبقاع الخصيبة تنتج الحضارة، وهما في صراع متصل منذ أن ظهرا إلى الوجود حتى هذه اللحظة. لكن دورة الصراع الخلدوني المستديمة تنفتح عند علي الوردي، على هيمنة أحادية: سيادة روح البداوة وانتقالها حتى إلى المدينة. بتعبير آخر إن الوردي يوقف ابن خلدون على رأسه، لأسباب جد وجيهة سنراها لاحقا. إن الدورة الخلدونية -كما نتذكر- دورة مغلقة، بل محددة الآماد سلفاً.

ثالثا:

تبدأ الدورة باستيلاء الجماعة البدوية المتلاحمة بأشكال الولاء القرابي (العصبية) على الملك (المدينة، أو الحاضرة). لا تملك المدينة رداً لهذا الاختراق من قطبها المضاد بالعنف. فالسلاح، والشجاعة، والتماسك، عناصر لا تنتمي اليها بحكم استقرارها واسلوب معاشها بالذات. لكن المدينة تنتصر على البدوي بأن تزيل عنه صبغته البدوية وتجعله واحداً منها. وبذا تزيل عنه مكامن قوته. إنها تستخدم سلاحها الخفي: الثروة، نعيم العيش. وبإزالة أنياب العصبية، تنزل المدينة عقابها بالبدوي وتفتح طريق دماره كحاكم. وتبدأ دورة جديدة.

في هذه العلاقة تبدو المدينة أضعف من غريمتها (البادية)، في تنظيم العنف، ولكنها أقوى في تنظيم إنتاج الثروة والرفاه. ويحارب كل طرف بأدواته المتاحة.

رابعا:

إن التضاد بين البداوة والحضارة عند ابن خلدون يشمل القيم، وأشكال التنظيم، والإنتاج، والخصال السيكولوجية، والأخلاقية، إنهما عالمان متعاكسان.

البدو	الحضر
ـ أقرب إلى الخير	ـ أبعد عن الخير
ـ أقرب إلى الشجاعة	ـ أبعد عن الشجاعة
ـ الكل مسلح	ـ الكل أعزل (عسكر الحاكم مسلح)
ـ الكل مسؤول عن المدافعة عن المال	ـ أوكلوا إلى الحاكم المدافعة عن المال والنفس
ـ الشجاعة	ـ يحتمون بالأسوار
ـ طلقاء بلا أسوار	ـ الإخافة
ـ الردع بالإقناع	ـ الردع في المدينة بالعنف
ـ سطوة الرياسة من وقار الكبار	ـ سطوة الحاكم بالإخافة
ـ الشجاعة والبأس سجايا شاملة	ـ الإخافة تكسر بأس أهل الحضر

خامسا

إن تضاد البداوة والحضارة الخلدوني، في حركة دائبة. البداوة تمثل الفاعل/المنفعل. إنها تستولي على الحاضرة، لأن ثراء هذه الاخيرة مغر، كونها لا تستطيع مقاومة هذا الاغراء، وتسقط في فخه. وعصبية البداوة توصل إلى الملك، والملك إلى الترف، والترف إلى ضياع العصبية، وبالتالي ضياع الملك.

تدوم هذه الدورة 3 أجيال، وعمر كل جيل 40 عاماً، فيكون عمر الملك 120 عاماً.

ويلاحظ ابن خلدون أن (الأوطان الكثيرة القبائل قلَّ أن تستحكم فيها دولة. انظر: ما وقع من ذلك بإفريقية والمغرب منذ أول الإسلام ولهذا العهد...) إشارة إلى ما فيها من (كثرة العصائب والقبائل). ويضيف (ولم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة، ولا الشام، إنما كانت حاميتها من فارس والروم والكافة دهماء أهل مدن وأمصار).

سادسا:

لماذا امتازت المنطقة العربية الممتدة من شمال إفريقيا إلى المشرق إلى الجزيرة، بتجدد الصراع الدوري، المندغم بالطهرية الدينية، والمندفع من البادية إلى الحواضر؟

حاولت السوسيولوجيا المعاصرة الإجابة عن هذا السؤال انطلاقاً من ابن خلدون واستكمالاً له: اختلال التوازن بين الدائرة الزراعية agriculturism والدائرة الرعوية pastoralism، لصالح هذه الأخيرة. إن هذا القول المجرد قد يلوح أقرب إلى المنطقة المعتمة. معروف أن نمط العيش الرعوي ينمي -بحكم طبيعته بالذات- الملكات العسكرية الأساسية في ذلك العهد اللاتكنولوجي: سرعة الحركة، وخفة الانتقال، وأيضاً القدرة على الهرب، سواء لتفادي القتال تماماً، أم لتجنب خوضه في نقطة غير مواتية. إن الرعوي لا يحتاج إلى إنتاج وسائط الحرب هذه فهي جزء من حياته. وهو لا يعيش محتمياً بأسوار الدعة والطمأنينة، بل يحمل سلاحه في الحل والترحال.

(ولا وجود لنبلاء مختصين بالفنون العسكرية (كما في أوروبا الإقطاعية)... الكل (البدو الرحل) يحمل السلاح. ولا وجود لقوة ميليشيا أخرى تستطيع انتزاع السلاح منهم... وإن كان لديهم زعماء، فإن هؤلاء الزعماء إما عاجزون عن نزع سلاح القبيلة أو لا يبدون رغبة كهذه).

ويرى جيلنر صاحب المقتبس السابق أن طغيان البداوة في شمال إفريقيا وغيابها في أوروبا على السواحل المقابلة يرجع إلى تباين الوزن النسبي للاقتصاد الرعوي والاقتصاد الزراعي في المجتمعين.

من هنا سيادة (الحل القبلي) في هذا الجانب وسيادة (الخيار الإقطاعي) في الجانب الآخر، كوسيلة لتنظيم القوة الحربية.

إن تنظيم القوة للسيطرة العسكرية على المجتمعات الزراعية المستقرة أيسر؛ فالقطعان متحركة أما الحقول فلا!

إن القبائل البدوية التي تعتمد قواها العسكرية على مساهمة الذكور الراشدين، تتميز عملياً بأعلى نسبة من المساهمة الحربية من بين سائر الجماعات، وهي بهذا المعنى تجمع حربي.

ويرى جيلنر أن الشرط الأول للحياة الحربية هو القدرة على الحركة، أو بتعبير أدق القدرة على الفرار. وهنا تبرز الحركية العالية للقبائل الرعوية. فهي قادرة على الفرار باستخدام ثروتها نفسها (الإبل، الخيل، المتاع الخفيف). وهي تنمي شروط استمرارها بتطوير فن الإغارة على قطعان المواشي، المتنقلة، والتكاثر طبيعياً.

إن مصادرة قوة البدو كجماعة حربية، تنضاف إليها قوة التلاحم الناجمة عن روابط الدم - الحضارة (= العمران الخلدوني) تبدو مستحيلة في العهد الزراعي، من دون سلطة مركزية (الملك). والملك من دون العصبية، الناظمة للقوة القسرية (العنف المنظم القادر على الإمساك بزمام الملك) شبه محال. بهذا

المعنى تبدو البداوة ليس فقط نقطة انطلاق الحضارة (تحول البدو إلى الاستقرار) بل شرط أساسي لاستمرارها، مثلما أن الحضارة شرط مسبق لانهيار اللحمة القرابية، أي تفكك العصبية الخلدونية.

(إن جوهر سوسيولوجيا ابن خلدون، جوهر رؤيته للشرط الاجتماعي للإنسان هو هذا: إن الشروط المسبقة اللازمة لنشوء الحضارة تتعارض بالكامل مع الشروط المسبقة اللازمة للتضامن القبلي).

إن تعايش القبائل والمدن ظل مستمراً في العصر الزراعي في توازن مضطرب، عجزت خلاله المدن عن السيطرة على البوادي. وكان الثبات النسبي لهذه العلاقة مصدر الاعتقاد الخلدوني بأنه ازاء ظاهرة أزلية لا فكاك منها ولا خروج.

الواقع إن الدولة العثمانية كانت أول خرق، في العصر الإسلامي/الزراعي، للقانون الخلدوني، خرق للقانون الأساسي لدورة الملك.

لقد اندفع العثمانيون -قبائل بدوية، رعوية، ملتحمة بأواصر العصبية وفقاً لكل مقتضيات ومتطلبات التحليل الخلدوني- واستولوا على الملك، في الجيل الاول. وقام الجيل الثاني -كما في النموذج الخلدوني- بالانفراد بالملك.

ولكن، خلافاً للحسابات الخلدونية، دامت سلطة آل عثمان قرابة 4 أضعاف الأجيال الثلاثة (120 عاماً) التي وضعها السوسيولوجي العربي الأول تخومًا تحفها الهاوية ولم تسقط على يد البوادي، بل على يد قوة صناعية عاتية (أوروبا). فيا للعقوق العثماني!

ما سرّ هذا العقوق. لن نجد الجواب في المؤسسة العسكرية. فالعثمانيون -مثل غيرهم- جاؤوا قبائل رعوية (محاربة) على غرار ما فعل العرب المسلمون الاوائل، وكما فعل العباسيون من بعدهم، او البويهيون فالسلاجقة.

وما أن استتب الملك وحصل الانفراد به، حتى أصبح لزاماً فصل الارستقراطية العسكرية عن القبيلة، عن نظام القرابة الذي يحفّ بالسلطان، أي إنشاء جهاز عسكري من العبيد، بما في ذلك من غير المسلمين. إن جهاز العنف هذا غريب عن قبيلة الحاكم، وعن المجتمع، وهو يدين بوجوده لشاريه.

سبق لمثل هذا الترتيب أن حصل في العهد العباسي: إنشاء جيش من الترك وفصله عن السكان. بيد أن الدولة العباسية سقطت للديلم بعد فترة، كما يقول ابن خلدون نفسه، ولم يحصل الشيء ذاته للعثمانيين، رغم إن البوادي، والقبائل البدوية استمرت في الوجود على سابق عهدها.

سابعا:

إن علي الوردي يأتي إلى لمس مشكلة البداوة في هذه الحقبة التي خرقت القاعدة الخلدونية.

فالصراع بين البداوة والحضارة بمعناه القيمي والعسكري لم ينقطع بالطبع، إذا أخذنا الأمور بمعنى غارات القبائل المستمرة على الحواضر، بما في ذلك بغداد، والتمردات القبلية المتصلة، عدا عن النفوذ الحربي الفعلي للقبائل، مما جعل التجارة شبه مستحيلة، وهي مقياس هام للتوازن بين المدينة والأرياف.

ولكن هذه الأمثلة لا تعدو عن فورات موضعية، (زوبعة في فنجان) إن صح القول، فما من واحدة منها استطاعت أن تهدد سلطة المركز، ناهيك عن أن تقلبه، كما حصل أيام ابن خلدون. مردّ ذلك أن الدولة

العثمانية دشنت عهد البارود. لقد قلب المدفع العلاقة بين الحاضرة والبادية، وأوقف سير الدائرة الخلدونية، مثلما إن هذا المدفع غيّر العلاقة بين المدينة وقلاع النبلاء في أوروبا.

مفهوم الوردي لتضاد الحضارة/البداوة لا يشبه -على هذا- التقابل القطبي الخلدوني، بل هو عكسه تماماً. إن البداوة هنا عند الوردي هي نظم قيم وأشكال تنظيم، تطغى على المجتمع، وتنتقل إلى المدن، لا لتنحلّ فيها، بل لتدوم في صورة: ثأر، وغزو، ودخالة، وغسل عار والانغلاق في عصبية محلية (المدينة، الطائفة، المحلة).

إن الوردي يعيد إنتاج صراع البداوة/الحضارة الخلدوني بصورة تناشز اجتماعي بين حضارة حديثة، وحضارة تقليدية؛ لكن هذا التناشز لم يعد -حسب رأيه هو- نتاج انقسام المجتمع إلى بدو وحضر، بل ثمرة احتكاك المجتمع كله بالحضارة الغربية.

كان المجتمع الخلدوني يقف في المركز، ليس وراءه سوى التوحش السابق للعمران، وليس أمامه سوى صورته الذاتية.

أما المجتمع الجديد الذي يعيد الوردي إنتاجه خلدونياً، فيقف حائراً بين حضارته الذاتية، التقليدية، التي تتمزق وحضارة الآخر، الحديثة، التي تخترق الأسوار.

معالجة هذا المركب الفريد تمت بقران منهجي جمع فيه الوردي مفاهيم علم الاجتماع الخلدوني، بمفاهيم علم الاجتماع الحديث الغربي، وبالتحديد علم النفس الاجتماعي ونظرية التحديث.

ثامنا:

يلج الوردي عبر منهجية نسبية/وضعية إلى استقراء المكونات السوسيولوجية للمجتمع العراقي من حفر تاريخي يشمل العهد العثماني في العراق كله.

تحيلنا نقطة الاختيار هذه إلى جانب منهجي بالغ الأهمية: إن العمليات التاريخية التي تشكل الذات الاجتماعية ونظامها القيمي، وتصورها لذاتها، ونظمها الثقافية، وتنظيماتها الاجتماعية (محلات، أصناف، طرق صوفية، قبائل، ملائية، أفندية... إلخ)، لا تمتد إلى ما لا نهاية في الزمان. وأن الذاكرة الجمعية، في هذا العهد، لا تمتد إلى أبعد من عدة قرون.

يحدد الوردي سمتين أساسيتين في العراق: سيطرة المدّ البدوي، والصراع العثماني/الصفوي، وما جره، حسب تعبيره من (نزاع طائفي شديد بين الشيعة وأهل السنة).

يؤكد الوردي -دون وسائل قياس واضحة- إن المد البدوي في العهد العثماني -وهو الأخير- كان (أشد وطأة من جميع العهود السابقة) ويعزو ذلك إلى تعاقب الفتوحات (إقرأ: الحروب). وتوقف العمران، (واضطر أهل المدن، من جراء ذلك إلى الالتجاء إلى العصبية القبلية والقيم البدوية من أجل المحافظة على أرواحهم وأموالهم) مثلما اضطرت (العشائر الصغيرة إلى التكتل، أو الانضمام إلى اتحادات قبلية كبيرة).

بتعبير آخر إن نمو البداوة/أو هيمنة القيم البدوية تتناسب طردياً مع ضعف الدولة المركزية، وضعف الحواضر.

إذا كانت القبيلة بحكم تركيبها بالذات تنتج نظامها الدفاعي الذاتي، فإن الحواضر تحتمي بالأسوار عن الخارج، وتحتمي عناصرها من بعضها البعض وراء ابواب (المحلات) (جمع: محلة) الموصدة، التي يقف على رأسها: الشقي (الفتوة المصري، او القبضاي اللبناني). إنه قوة الحماية الذاتية للمحلة، وقوة العدوان الخارجي على المحلات الاخرى.

إن أشكال الالتحام (العصبية) التي يعرضها الوردي هنا واقعية وحقيقية بلا مراء. ولكنها -بقدر ما يتعلق الأمر بالمقارنة الخلدونية- تقف على طرفي نقيض مع التصور الخلدوني لعوامل الالتحام.

تاسعا:

إن ابن خلدون مشغول، بل مهموم بمسألة الالتحام البدوي، فهو يكاد يأسى لواقع ذوبان هذا الالتحام في الحواضر. إن الحواضر عنده كما رأينا فاتكات بلحمة العصبية البدوية. ولم ير ابن خلدون أية صلة أخرى غير صلة الرحم تشكل مادة للترابط البشري. وهو في هذا -كما لاحظ جيلنر- نقيض دوركهايم الذي انشغل هو الآخر -خلال فترة من حياته- بدراسة علاقات الالتحام بين البشر، فصنف تلك القائمة على القرابة بأنها (اتحاد ميكانيكي) ضعيف، أما القائمة على تقسيم العمل الحديث، والاعتماد المتبادل، فأطلق عليها تعبير (الاتحاد العضوي). إن الالتحام الميكانيكي يعتمد على التماثل الوظيفي وتقسيم العمل البسيط. فالكل متشابه. أما الالتحام العضوي فيعتمد على التغاير الوظيفي وتقسيم العمل المعقد وما ينجم عنه من تبعية متبادلة.

وبصرف النظر عن طبيعة كل صنف، فإن عوامل الالتحام المدينية، الحديثة، عند دوركهايم أقوى من عوامل الالتحام التقليدية، القديمة.

ويبدو أن علي الوردي -في حدود معالجته للعراق في العهد العثماني- لا يضع أي مفاضلة بين أشكال الالتحام البدوي والحضري، ولا يرى في الحواضر أداة هدم للعصبية البدوية، بل يرى إمكان نقل هذه الأخيرة إلى الحواضر وجعلها عوامل تماسك للجماعات الحضرية.

كيف يمايز الوردي أشكال التلاحم؟

هناك نوعان

(1) بدوي، قائم على العصبية القبلية (الالتحام القرابي)،

(2) حضري، ويتجلى في ثلاثة مستويات متدرجة (أ) المحلة، (ب) العصبية البلدية (للبلدة او المدينة)، (ج) المستوى الطائفي.

يدرس الوردي هذه الأشكال من التلاحم بلغة التعداد الحسابي، ولا يعنى بتحليل محتواها كثيراً.

إن العصبية القبلية تبدو عنده، بمثابة واقع طبيعي معطى، وقائم. أما العصبية الحضرية بأشكالها الثلاثة فتعزى إلى الخطر الخارجي: نشوء عدوان على البلدة، أو على أبناء الطائفة... إلخ. وبهذا فإن عوامل التلاحم عنده خارجية، وليست بنيوية. نرى أن هذا التفسير ضيق جداً. فالجماعات الحضرية كانت بمثابة تنظيمات ذات وظائف اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية، علاوة على وظيفتها (العسكرية)، أعني الحماية الذاتية بوجه العدوان الخارجي. ولا يعقل أن يكون نظام العلاقات الذي نسميه (عصبية) أو (التحاماً) ناجماً عن وظيفة واحدة تتعلق بالخطر الخارجي رغم أهمية ذلك.

علّة هذا التحليل الناقص ترجع إلى اهتمام الوردي بوضع أشكال هذا التلاحم الضيق، المتشظي segmentary، في موضع الرد على الخرافات الأيديولوجية، سواء القومية التي ترى أن (الانتماء إلى الأمة) (العروبة، العراق) أزلي، من الأبد وإلى الأبد، أم التصورات التاريخية الضيقة التي تلغي أشكال الوعي الجماعي المغاير للوعي الطبقي أو حتى السابق عليه.

وبالطبع فإن توكيد وجود الوعي الجماعي شيء، وإنكار وجود التراتب الاجتماعي الهرمي شيء آخر. ونجد في قلب (الوعي الجماعي) (القبلي، أو المحلي، أو الطائفي) سلّماً متدرجاً من القيم يعكس هذا التراتب ويحميه.

إن وجود العصبية القبلية، والعلاقات الأبوية، المساواتية في قلب القبيلة لا يلغي أن القبائل تتبابين في المهن: التجارة، تربية الإبل، الأغنام، الزراعة، فالحرف اليدوية. إن التجارة تقف في مرتبة التقديس، ومربو الإبل يضعون أنفسهم فوق (الشاهية) (أصحاب الشياه) وأن هؤلاء الأخيرين يزدرون الزراع، وزراع الرز يحتقرون زراع الخضرة، وهذا الصنف الأخير يتطير هلعاً من الانحدار إلى ممارسة حرفة يدوية. فهي الأحقر.

هذا السلم المتدرج من القيم/المهن، الذي يبدو خارجياً، أي ناظماً للعلاقات بين القبائل، هو تراتب العالم القديم. ونجد تراتباً آخر في المدن: الإشراف، السادة، نقباء التجار، رؤساء الأصناف، ثم العوام.

ويبدو أنه كلما كانت الوظيفة الاجتماعية للجماعة أو للفرد غير منتجة، ارتفع شأنها، وتسامت. وكلما اقتربت من تماس الجسد باشياء الحياة، انحطت وازدريت.

إن الوظيفة/المهنة ثابتة، مغلقة، وانغلاقها سرّ ديمومتها. إنها تنتقل من الآباء إلى الأبناء في ثبات الأصناف الحِرفية، وتطّور الأصناف (النقابات) المغلقة براعتها المهنية، أكانت روحية (علوم دين، تجارة) أم دنيوية فظة، (حرف يدوية)، ثقافتها الذاتية. وتوسم المهنة بميسم ثقافة خاصة (دين، مذهب) مثلما يصبح المَعلَم الثقافي دالة للمهنة (تلازم صياغة الذهب والصابئية، أو الصيرفة واليهود.... إلخ).

لقد قدم لنا الوردي وصفاً بديعاً لبعض هذه المتعضيات الاجتماعية لكنه أهمل ـللأسفـ الطرق الصوفية، بوظائفها المتعددة وتراتبها الخاص (من القطب إلى المريد), كما أهمل سُبل انحلال هذه المتعضيات، أي زوال تقسيم العمل القديم (المغلق في اصناف) ونشوء تقسيم العمل المفتوح)الرأسمالي)، الأول يلتصق بجماعات تولّد عصبيتها الذاتية، والثاني يلتصق بأفراد ينظمون أنفسهم في جماعات جديدة (أحزاب، نقابات مهنية أو عمالية... إلخ).

عاشرا:

من العصبية القديمة إلى العصبية الجديدة

يتتبع الوردي، في سبق سوسيولوجي، انحلال الهويات الصغيرة، وتشكل الهوية العراقية خلال عام 1920م، عام الثورة التي اختلط فيها الوعي الجديد بالوعي القديم، النهب بالتمرد، والهياج بالثورة.

يرى الوردي أن الإنجليز فشلوا في أمرين: أولاً التدخل في نظام التمثيل القبلي الطبيعي، وتحويله بقوة التعيينات الإدارية والنفوذ، والثاني فشلهم في اجتذاب انتلجنسيا المجتمع في تلك الحقبة: الملائية والأفندية، الأولون بحكم المكانة السامية للمعرفة الدينية، والثانون بحكم ثقافتهم السياسية الحديثة.

يؤكد الوردي أن هذين الصنفين من العارفين، أكثر قدرة على (إثارة الجماهير من الشعراء والكتّاب)، فالأفندية (يطالعون الصحف ولهم اطلاع سابق على شؤون السياسة العالمية وعلى بعض المعلومات الجغرافية والتاريخية. لا شك أن معلوماتهم كانت سطحية محدودة، ولكنها كان تعد في ذلك الزمان علماً عظيماً).

(لهذا كان الناس يفتحون أفواههم إعجاباً عندما يتحدث الأفندي).

إننا بإزاء النبتة الأولى لمثقف الكلمة الحديثة المطبوعة، ولنمو سلطة المعرفة الدنيوية، بموازاة سلطة المعرفة المتسامية (الدينية). واندماج الاثنتين سيخترق أسوار العزلة السرمدية للطوائف والقبائل. وسيجد في خدمته خطوط التلغراف، وسكك الحديد، والكلمة المطبوعة. إن الوردي يتحدث عن التفاعل الاجتماعي الجديد بين قبائل ومدن وقرى العراق أيام ثورة العشرين مركزاً على فحواه: تكوين الهوية الجديدة (العراقية)، دون أدواته: وسائل الاتصال الحديثة.

هذه الحقبة من تاريخ العراق تشهد التمايز بين المقدس واللامقدس في علاقة جديدة. لقد كان المقدس يقيم نظام الأشياء في هرم يقف هو في الذروة منه، مخترقاً عالم الإنسان من أقصاه إلى أقصاه.

ويكتسب المقدس سموه وقيمته من قدرته على اكتناه الأشياء والسيطرة عليها بقوة الكلمة المقدسة وطقوسها. إن احتكار المقدس سيبدأ بالانحسار عن رقعة الفعل الجماعي أو بعضه، بظهور المعرفة الدنيوية، اللامقدس الجديد وحامله: طبقة الأفندية. أما فعالية هذه المعرفة فتوازي فعالية المقدس، أولاً، ثم تقلب الهرم القديم عاليه سافله، أو هكذا يلوح.

احد عشر:

نسبية المعرفة أو دريئة مانهايم

واجه الوردي ـذو المنهج الوضعي، وهو يضع سفره في السوسيولوجيا التاريخية للمجتمع العراقي- حيرة كبرى يشي بها في ثنايا كتابه، سواء في المقدمات الإيضاحية، أم في الملاحق التنويهية.

ونجده هياباً أولاً إزاء التحيزات الاجتماعية، المستبقات المتعضية التي تختم على الماضي بخاتم الحاضر، كما نراه متردداً إزاء النظر من موشور الأيديولوجيات. في هذا الحال، أو هذا المغطس. لم يجد الوردي من دريئة منهجية سوى نسبية مانهايم التي يعلن انتماءه إليها بلا مواربة.

ما هي الصلة بين المراقِب والحدث المراقَب؟ ما الذي يضمن دقة المراقبة؟ إن هذا السؤال يلح على الوردي، كما على أي باحث في التاريخ الاجتماعي، وهو يقلب أوراق الماضي بأهوائه المضطرمة، وتحيزاته.

إن النظرة الاجتماعية جزئية بطبيعتها. فالواقع، كما يقول الوردي، مركب من جماعات. من هنا (تعدد) النظرات الجزئية. بتعبير آخر تغدو الموضوعية غير ممكنة بالنسبة إلى أي جزء، ولا يعود بالوسع تصور الموضوعية إلا كمركّب خارجي يقوم به الباحث المنفصل عن الجماعات الجزئية. ولكن، يتساءل الوردي، ما الذي يضمن أن الباحث نفسه لا يقع ـهو أيضاـ أسير نظرة جزئية؟ يجيب عن ذلك بإحالة القارئ إلى طبيعة المجتمع نفسه. فهناك مجتمع مغلق (الزراعي التقليدي)، وهناك مجتمع مفتوح (الصناعي الحديث).

وحسب تعبيره، تخلق البيئة المغلقة ما يشبه التنويم المغناطيسي بحيث يرى المرء أشياء لا وجود لها. إن الوعي الجماعي -في البيئة المغلقة- ميثولوجي. والتعددية في الرؤية داخل المجتمع المغلق ناجمة عن عزلته، وهي بالتالي نسبية ذاتية. في المجتمع المفتوح، هناك إمكانية لرصد الموضوع والاقتراب منه. وبما أن الواقع -حسب مانهايم الذي يستعيره الوردي- أشبه بهرم متعدد الجوانب، فإن مختلف الجماعات المتصارعة في المجتمع ترى أوجُهاً مختلفة من الهرم؛ وبما أن الفرد منتم إلى جماعة من هذه الجماعات فإن هذا التصور لن يتيح للحقيقة أن تقدم نفسها، فهي متشظية ومتعارضة.

إن تجاوز التشظي والتعارض، هو تجاوز للنسبية الذاتية الناجمة عن الانقسام الاجتماعي، أي انقسام انماط التفكير بالانقسام الاجتماعي إلى فئات دنيا وفئات عليا.

إن نسبية مانهايم تخلي المكان في ثناياها إلى إلغاء نفسها، بإعطاء بعض المراقبين في المجتمع القدرة على التحرر من روابط الانتماء الاجتماعي مثل كبار المفكرين. لكن هذا التحرر يتم بفضل الوضع الاجتماعي عينه. ويبدو أن نسبية مانهايم شاملة، شأن إمكانية تجاوزها. أما النسبية التي يبلور الوردي ملامحها فتبدو عصية على التجاوز في المجتمع المغلق، وممكنة التجاوز في المجتمع المفتوح بفضل انفتاحه بالذات.

يستعين الوردي بمانهايم على صروف تحيزات الجماعات الصغيرة في المجتمع العراقي، فتغنيه منهجياً: الإطلال على الواقعة الواحدة من عدة زوايا.

بيد أن لنسبية مانهايم المعلنة وظيفة أخرى عند الوردي: أن تفسح له مجالاً في ساحة فكرية مكينة توزعت فيها مراكز القوة في الستينات على نحو خاص: الدولة البعثية تهيمن على المؤسسات، والفكر الماركسي (بصورة الماركسية السوفييتية السابقة) يمارس نفوذه على المجال الفكري. في هذا التقابل لا تخرج منه المؤسسات خاسرة في العادة، ووسط هذا التقابل الذي لا فسحة فيه، أراد الوردي أن يرعى نبتة خاصة به، نبتة تقوم على المغايرة، وعلى حقه في هذه المغايرة. بتعبير آخر، أراد أن تكون هناك أكثر من وجهة نظر. تلك هي وجهة نظره؛ هذا الرائي الكبير.

في خاتمة عمله نسي الوردي أستاذه الأول: ابن خلدون. وترك البداوة مضمرة. لقد حذرنا منذ الصفحات الأولى من مغبة المضمر: البداوة لا شعور جمعي يستبطنه المجتمع، رغم نشوء العصبية الجديدة، بل في فيئها. ونسينا نحن ابن خلدون، ودرسه المفزع. في حقبة الغدو من البداوة إلى الحضارة، التي ما تزال جارية، يمتاز الانتقال بالصعاب ويحتاج إلى (ملك مكين). إن عوامل الالتحام الحديثة ما تزال، بعدُ، واهنة فتزحف البداوة الخبيئة، المضمرة، زحفاً وئيداً من زوايا (اللاشعور) الجماعي الوردي (اقرأ من القرى البدوية المنهارة) إلى رحاب التسيد المكين (اقرأ: الجيش – بغداد) فتواجه الشعور وتفقؤه في عينه.

الفصل الاول

تطبيقات علوم الاجتماع

علم الاجتماع يبدو انه عدائي وتفسره السلطات الحاكمة كانه علم تجسس على المجتمع ومعرفة الصلات بينه وبين حاجاته المعرفية ضمن اطار الحقوق والواجبات . علم الاجتماع هو احد العلوم الصعبة وغير المحتملة . صعوباته الكبرى في رهانات موضوعاته ضمن صراعات مخفية , تخضع للرقابة.فالقارق الثقافي لايقل اهمية عن الفوارق الطبيقة , في منهجيات علم الاجتماع. وافضل صفات يمكن ان نصف بها علم الاجتماع[4] : هو علم المخفيات التي يتسلح بها , كرأس مال , للمفاهيم والمنهج والتقنيات التي راكمها الذين سبقوه من العلوم .

علم اجتماع التنمية

يمكن تعريف التنمية على أنها :عملية تغيير واع يحدث في المجتمع من خلال التوحد والمشاركة بين جهود المواطنين والحكومة بهدف الاستفادة من كافة الموارد المتاحة في المجتمع وتحقيق الرفاهية الاجتماعية والاقتصادية ويتم ذلك وفق خطة مرسومة.

علم اجتماع الإدارة

استقطبت مشكلة إدارة المؤسسات الاجتماعية الناتجة عن التطورات العلمية والتكنولوجية العديد من المتخصصين في مجال العلوم الإنسانية والطبيعية معاً . وتضافرت جهود العلماء لدراسة هذه المشكلات ومحاولة إيجاد حلول علمية لها. وكذلك تطوير عمليات إدارة المؤسسات الاجتماعية.

علم الاجتماع التربوي

يهتم هذا الميدان من علم الاجتماع ببحث الوسائل التربوية التي تؤدي إلى نمو أفضل للشخصية، لأن الأساس في هذا الميدان هو أن التربية عملية تنشئة اجتماعية. لذا فإن علم الاجتماع التربوي يبحث في وسائل تطبيع الأفراد بحضارة مجتمعهم. والتربية أساساً ظاهرة اجتماعية، يجب أن تدرس في ضوء تأثيرها في الظواهرالاجتماعية الأخرى من سياسية واقتصادية وبيئية وتشريعية، وتأثيرها في المتغيرات الاجتماعية الأخرى من خلال عمليات التفاعل الاجتماعي . من هنا أكد

الاجتماعيون ضرورة تحليل الدور الذي يقوم به النظام التربوي في علاقته بأجزاء البناء الاجتماعي الديموغرافية أو الاقتصادية أو السياسية ، وعلاقته بمثالية المجتمع أو نظراته العامة والإيديولوجيات التي تفعل فيه.

ويحتل علم الاجتماع التربوي مكانة خاصة في البلدان التي تعيش مرحلة نقلة حضارية ، إذ تجري مجموعة من التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، تلك التغيرات التي تستوجب إعادة النظر في مسائل التربية والتعليم ومايتعلق بها من ظواهر اجتماعية تواكب تلك التغيرات وتعمق جذورها .

الاجتماع التربوي يبحث في وسائل تطبيع الأفراد بحضارة مجتمعهم. والتربية أساساً ظاهرة اجتماعية، يجب أن تدرس في ضوء تأثيرها في الظواهر الاجتماعية الأخرى من سياسية واقتصادية وبيئية وتشريعية، وتأثيرها في المتغيرات الاجتماعية الأخرى من خلال عمليات التفاعل الاجتماعي. من هنا أكد الاجتماعيون ضرورةتحليل الدور الذي يقوم به النظام التربوي في علاقته بأجزاء البناء الاجتماعي الديموغرافية أو الاقتصادية أو السياسية ، وعلاقته بمثالية المجتمع أو نظراته العامة والإيديولوجيات التي تفعل فيه .

علم الاجتماع البدوي

يدرس هذا الفرع من فروع علم الاجتماع النظم الاجتماعيةالسائدة في المجتمعات البدوية أو المجتمعات التي تعيش على الرعي والانتقال وراءالكلأ. ويعد ابن خلدون أول باحث في علم العمران البدوي والأمم الوحشية» فيصف حياة البدو »الاجتماع البدوي إذ يتحدث في مقدمته عن بما فيها من خشونة العيش،والاقتصار على الضروريات في معيشتهم، وعجزهم عن تحصيل الضروريات... وفي جملة مايقول: «وقد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم، العاجزون عمافوقه وأن أهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا غلا أنه في المقدار الضروري لا فيالترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيهاو وإن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر

وقد بحث الكثير من علماء الاجتماع المعاصرين في حياةكثير من الشعوب والقبائل البدوية[5] .

ولاتزال الجهود مستمرة في دراسة القبائل البدويةومسائل توطينها في حياة اجتماعية مستقرة

علم الاجتماع الحضري

يبحث علم الاجتماع الحضري تأثير حياة المدينة - الحضر - فيأنماط السلوك والعلاقات والنظم الاجتماعية، فيدرسها ضمن إطار نشأتها، وطرق تفاعلهافي الحياة المدنية، إنه يدرس الحياة المدنية من حيث هي ظاهرة اجتماعية ويتناولتكونها ونموها وتركيبها وجملة الوظائف التي تؤديها، ومنطلقه في ذلك هو أن ثمة عواملتشترك وتتآلف ينتج عنها مجتمع مدينة على نحو متميز أو مألوف، فالمدينة لاتنشأعفواً، بل لابد لذلك من عوامل طبيعية وجغرافية وسكانية واجتماعية وسياسيةواقتصادية. ثم إن للعوامل الدينية والثقافية دوراً تقوم به في نشوء المدن ولاسيمافي المجتمعات المتدنية والشرقية.

علم الاجتماع الجنائي

يتناول البحث، في علم الاجتماع الجنائي، أسباب الجريمةوالانحراف والعوامل الاجتماعية الممهدة لكليهما، كما يدرس نسبة تواتر الجريمة وتعددأساليبها وأشكالها، ويربط ذلك باختلاف المجتمعات وتباين النظم وباختلاف أحوال الأفراد المعيشية، وجملة العوامل والظروف الموضوعية والنفسية للموقف أو الحالة، أي الظروف التي تمهد للجريمة على هذا النحو أو ذاك ، كما يرجع إلى نمط التفاعلات في البيئة الاجتماعية. وباستخدام لغة البحث العلمي يمكن القول: إن جملة هذه الظروف هي متغيرات تعمل على تفسير أشكال الجريمة ودوافعها .

علم الاجتماع الديني

يتناول علم الاجتماع الديني بالتقصي والتحليل النظم والتيارات الدينية السائدة في المجتمعات الإنسانية على اختلاف العصور، واختلاف البيئة الاجتماعية لمجتمع ما في نمط معيشته أو في طبيعة العلاقات الاجتماعية فيه على السواء. ولأن علم الاجتماع الديني يرى في المجتمع العوامل التي تحدد شكل الأديان ووظائفها، لذا فإنه يعني تباين أثر العوامل الاجتماعية، وارتباطها مع الدين بصفته ظاهرةً لايخلو منها أي مجتمع.
لشيوع التدين وتسيس الدين في مجتمعاتنا , لابد من دراسة التاثير الديني على المجتمع . كذلك دراسة تاثير المجتمع على الدين. هذا الفراغ في وضع , نظم بحثية ذات مناهج معتمدة , في اروقة الجامعات ذات العلاقة. رغم ان الساسيولوجيا هي حديثة العهد في مناهجنا.

علم الاجتماع الريفي

يهتم علماء الاجتماع الريفي بدراسة العلاقات الاجتماعية القائمة في الجماعة الإنسانية التي تعيش في بيئة ريفية ويدرسها من حيث طبيعتها إذ تواجه الجماعة الريف وجهاً لوجه. إنه يبحث في خصائص المجتمعات الريفية من حيث نمط المعيشة أو نظام الإنتاج السائد بوصفه أكثر بدائية، كما يعنى بتحليل العلاقات الاجتماعية الأولية، والترابط العائلي (في الدم أو الزواج الداخلي) ، ويحدد السمات والمميزات التي تميز المجتمعات الريفية من المجتمعات الحضرية . إن هذه السمات كانت منطلقاً لعلماء الاجتماع في دراستهم حين حددوا موضوع علم الاجتماع الريفي .
وأبرزوا الصفات المحلية لهذا المجتمع من عوامل وتفاعلات اجتماعية ، ويتقبل بعضها التقدم ويرفضه بعضها الآخر ويعوقه. ومع أنه، من الناحية النظرية ، يدرس أسس البنيان الاجتماعي الريفي، إلا أنه، من الناحية التطبيقية، يستخدم المعلومات التي جمعت عن السكان الريفيين لتحديد المشكلات التي تعوق نموهم وتقدمهم، لإيجاد الوسائل الكفيلة بحل مجمل المشكلات التي يعانون منها ولتحسين مستوى الحياة الاجتماعية الريفية، وأخيراً لرسم سياسة اجتماعية تعمل على رفع إسهام الريف بيئة وسكاناً في الفعاليات الاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك.

علم الاجتماعي السياسي

يهتم علم الاجتماع السياسي بأثر المتغيرات الاجتماعية في تكوين بنية السلطة السياسية وتطور أنظمة الحكم في المجتمع، فالنظم الاجتماعية من وجهة نظر علم الاجتماع السياسي ليست إلا عوامل متغيرة (أو متحولات) أو عوامل مسببة،وما أمور السياسة وشؤونها غير عوامل تابعة، تتأثر بالعوامل الاجتماعية وتتغيربتغيرها. وعلى هذا فإن أي فهم دقيق للنظم والمؤسسات السياسية يتطلب تحليلاًلمرتكزاتها الاجتماعية ورصداً لعناصر التغير في المجتمع.

علم اجتماع العائلة

يتناول علم اجتماع العائلة بالدراسة والتحليل والتعليل خصائص الأسرة، والوظائف التي تؤديها والعوامل التي تتأثر بها وتؤثر فيها ، كما يوجهعناية خاصة إلى الدور الذي تقوم به العائلة في تنظيم علاقات الأفراد في المحيط الأسري . ويبحث في النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويهتم علم اجتماع العائلة اهتماماً كبيراً بالعادات .التي تساعد على استمرارتركيب العائلة وتطورها والتقاليد والقوانين المتعلقة ببنيان العائلة وكيانها،وكذلك بنظم الزواج، في كل من المدينة والريف، وعلاقاتها بالمعتقدات الدينية ، وبالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والبيولوجية ، كعامل الدم ونظام القرابة .

علم الاجتماع القانوني

اهتم علماء الاجتماع بدراسة القانون وعملوا على تحديد معانيه وخاصة عند دراستهم لأنساق الضبط الاجتماعي وعلاقته بتنظيم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات والدولة. كما ركز علماء الاجتماع على وضع تعريف للقانون باعتباره قواعد تضعها الدولة وتقوم بتنفيذها عن طريق استخدام الوسائل الجبرية.

علم اجتماع المعرفة

يبحث علم اجتماع المعرفة في صحة التراكيب الفكرية السائدة في المجتمع ، مع اهتمام خاص بتفسيرها وربطها بالمعلومات التي توصل إليها علماء الاجتماع بطريق التجريب، وعلى أساس علاقاتها بالظروف والمتغيرات الاجتماعية

علم الاجتماع العسكري

لم يتم بحث علم اجتماع العسكري بشكل ينسجم مع بقية الفروع الاخرى التي تم تناولها . رغم شحة الدراسات السوسيولوجية في معظم مجالات علوم المجتمع . واعتقد ان معظم من تناول ساسيولوجيا المجتمع ومنها العسكرية . تناولوا الفروع بشكل مجامل تجنبا من المحاسبة .

علم اجتماع الثقافة وعلم اجتماع التعليم

الفصل بين علم اجتماع الثقافة وعلم اجتماع التعليم . ان علم الانسان يستخدم بالضرورة نظريات انثروبولوجية , ويمكن ان تكون هذه النظريات عملية , لاسقاطاتها ةتغيراتها مع العالم الاجتماعي , كأي علم. العلم الذي يجب ان يعلل ماهو قائم ويقر , بان لاشئ موجود دون سبب اجتماعي حصرا. ان تاثير ارتفاع مستوى التعليم هو احد اهم اسباب العلاقة بين الانتساب الاجتماعي والوظيفي. فالحاصل على شهادة – مثلا- يتم تحديد وعيهم الاجتماعي . وتنمو لديهم رغبات لزيارة المتاحف والمسارح والموسيقى او القراءة. وغير ذلك مما يزيد تغير الاذواق وزيادة اقتناء النادر من السلع وترك الشائع منها.فكلما اتسعت اذواق المجتمع كلما تنامى الالق الثقافي في مفاهيم عامة المجتمع.

علم اجتماع للرياضة
اي عالم الممارسات والمسابقات والاستهلاكات الرياضية المتوفرة والمقبولة اجتماعيا . ونحن بحاجة لمعرفة الشروط الاجتماعية للحصول على النتائج الرياضية المتميزة . والتميز له علاقة بالجسد المتصل بالوراثة والقابليات الجسمانية . وهذا مايميز الادائية الجسدية بين افراد المجتمع.

نظريات الجريمة بعلوم البايولوجيا والانثروبولوجيا[6]:

لغرض التاكيد على العلاقة بين الموروث البايولوجي والبيئة والتي سنتناولها لاحقا .لابد من معرفة الدراسات العملية والعلمية التي تم ممارستها ضمن علم الاجتماع الجنائي . والعلاقة المهمة بين البيولوجيا والانثروبولوجيا في علوم الاجرام . ومالها من تاصيل للمعرفة العلمية في ميادين علوم الاجتماع المعرفي ولغرض تعزيز رؤيتنا لما هو قادم من فصول في كتابنا. نستعين بالاتي:

علم الإجرام البيولوجي أوعلم الاجرام الأنثروبولوجي:

يرجع أصحاب النظرية البيولوجية الانحراف إلى البنية البيولوجية, أوالفزيولوجية, أوالخلطية أو العصبية. وفيما يلي عرض لأهم أربع نظريات بيولوجية , وجميعها تعتبر منتج للسلوك الفردي بالمجتمع.ارتئينا توثيقها لاهمية البايولوجيا على السلوك , التصرف , والفعل وتاثيرها في علم الاجتماع.

1- نظرية لومبروزو :

و لد قيصر لومبروزو في مدينة فيرون الإيطالية في 6 نوفمبر 1835 وتوفي في تورينو في9 أكتوبر1909, كان طبيبا شرعيا و ضابطا في الجيش الإيطالي ثم أستاذا للطب العقلي وأنثروبولوجيا الإجرام في تورينو .

كان يجري دراسات تشريحية و أنثروبولوجية على جثث الجنود والمجرمين والمجانين المتوفين, واستنتج أن أدمغة المجرمين تختلف مورفولوجيا عن الأشخاص العاديين .

لقد رأى لومبروزو أن سلوك الإجرامي راجع إلى تشوه عضوي أو عقلي. لقد نشر عام 1876 كتاب سماه " الرجل المجرم " (l'umo delinquente) و فيه لخص نظريته عن تميز المجرم عضويا ونفسيا عن باقي الأفراد .

بيّن لومبروزو أن المجرم يعاني من عدم انتظام جمجمته, وكثافة شعره, وضيق جبهته, وضخامة فكه, وطول أو قصر أذنيه وأصابعه وأطرافه .

قام لومبروزو بتشريح جثة مجرم خطير في إيطاليا يدعى فيليلا (vilella) وتنبه إلى وجود فراغ (ثقب) في آخر جمجمته يشبه فراغ جمجمة الحيوانات الدنيا وهذا يقرب المجرم إلى الإنسان البدائي المتوحش. وتسمى الفرضية التي جاء بها لومبروزو فرضية النكسة الوراثية (ATAVISME) وتعني ظهور سمات السلف عند الإنسان بطريق الخطأ وهذه السمات تظهر بعد طول اختفاء أثناء تطور النوع البشري, وهي تشبه ما كان موجودا عند المتوحشين .

إن نظرية لومبروزو لها شقين : بيولوجي و نفسي. فمن الناحية البيولوجية يصنف المجرمين إلى نوعين:

- مجرمون بالفطرة: و هم المجانين و يعانون من انعدام الحس الأخلاقي.

- مجرمون بالعاطفة : و هم مجرمون بالمناسبة أي أنهم ليسوا مجرمين حقيقيين.

ومن الناحية النفسية رأى لومبروزو أن المجرم له سمات شخصية خاصة: كضعف الإحساس بالألم, وقساوة القلب, وفقدان الشعور بالخجل مما يجعله يعتدي بسهولة على الأشخاص و الممتلكات .

وفي سنة 1899 نشر لومبروزو كتابه "الجريمة: أسبابها وعلاجها" وفيه بدأ يولي الاهتمام بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية المساعدة على الإجرام .

2- نظرية فيري :

"فيري" هو تلميذ "لومبروزو" ويشكل الثلاثة مع "قالوفالو" مثلث المدرسة الوضعية في الإجرام .

إن الانتقادات التي ارتفعت ضد لومبروزو و نظريته دفعت تلميذيه "فيري" و"قالوفالو" إلى أخذ وجهة النظر الاجتماعية للإجرام بعين الاعتبار .

نشر فيري في سنة 1881 كتاب بعنوان " أفاق جديدة في القانون والإجراء الجزائي" ثم في سنة 1892 غير بعنوان هذا الكتاب فأصبح اسمه "علم الاجتماع الجنائي" وهذا يدل على بداية اهتماماته بالعوامل الاجتماعية للإجرام .

تأثر فيري بعالم الإحصاء والرياضيات البلجيكي أدولوف كتيليه (Quetelet Adolphe) وأخذ عنه نظرية العوامل المتعددة للإجرام ومفادها أن الجريمة هي ناتج لتجمع عدد كبير من العوامل (البيولوجية, المناخية, الاجتماعية, السياسية...ألخ).

تعمل هذه العوامل بطريقة شبه رياضية و مجموعها يشكل ما سماه فيري "قانون التشبع الإجرامي" ومعنى هذا القانون أن في محيط اجتماعي معين يرتكب عدد معين من الأفراد في ظرف فيزيقي معين عدد محدد من الجرائم .

و يميز فيري خمسة أنواع من المجرمين :

- المجرم بالفطرة : وهو يشبه النوع الأول الذي تحدث عنه لومبروزو.

- المجرم المستلب : ويقصد به المجنون (الذهاني).

- المجرم بالاعتياد : حيث لعب المحيط دور في التوجيه إلى الانحراف.

- المجرم بالمناسبة.

- المجرم بالعاطفة.

3- نظرية قالوفالو :

"قالوفالو" تلميذ لومبروزو وهو صاحب مفهومين متضادين:"الجنحة الطبيعية" و"الجنحة الوضعية" والمذكوران في كتابه الصادر عام 1885 بالإيطالية باسم "علم الإجرام" والذي أعاد طبعه عام 1888 بالفرنسية .

يصنف قالوفالو "الجنحة الطبيعية" إلى فئتين :

- الجرائم ضد الرحمة والشفقة: الاغتيال

- جرائم ضد الأخلاق والقانون: وأهمها السرقة

و يضيف قالوفالو لاحقا فئتين جديدتين هما :

- أفعال العنف

- الجنح الجنسية

أما " الجنحة الوضعية " فهي الجنحة التي تأخذ مصدرها من قانون خاص موجود في دولة معينة أو فترة معينة.

يرى قالوفالو أن هناك أربعة أنواع من المجرمين :

- مجرمون بلا رحمة ولا شفقة .

- العنيفون وعديموا التحكم في الذات.

- اللصوص عديموا الأخلاق والمبادئ.

- المنحرفون الجنسيون.

ولكل نوع من المجرمين العقاب المناسب له, فالإعدام للذين يقومون بالاغتيال, والتعزير للّصوص الخطيرين والمجرمين العنيفين و perpetnelle a tenps relegation للصوص العاديين والمنحرفين الجنسيين, والعمل الشاق للمتشردين والكسلاء, والغرامة لمن يستطيع الدفع أو اللّصوص غير الخطيرين.

4- نظرية كريتشمر :

ارنست كريتشمر هو طبيب عقل ألماني, ولد في وستنروت قرب هيلبرون عام 1888 وتوفي في توبيقن عام 1964.وضع أسس ما يعرف ب " التنميط البيولوجي " القائم على إيجاد علاقة وارتباط بين الشكل الفزيقي للجسم " النمط البيولوجي" وطبع الإنسان .التنميط البيولوجي هو الدراسة العلمية للعلاقة الممكنة بين بنية الجسم والسلوك النفسي للشخص .

اهتم علماء الإجرام بدراسة بنية الجسم وعلاقتها الممكنة بالسلوك الإجرامي والانحرافي وانطلقوا من مسلمة مفادها أن المعطيات البنيوية-الفزيولوجية لها ارتباط بالخصائص النفسية للفرد كميله إلى الإجرام (1) .

تبنى علماء الإجرام التنميط البيولوجي الذي وضعه كريتشمر والذي يصنف الأشخاص إلى 4 أنماط هي:

- النمط النحيف (Leptosome) : يكون بأطراف طويلة وجسم نحيف وله طبع "فصامي المزاج (Schizothyme)" بارد, منطو, ليس اجتماعي ويظهر أحيانا مفرط الحساسية, وأحيانا عديم الإحساس. ويرى علماء الإجرام أن أفراد هذا النمط مهيئون ليصبحوا "لا اجتماعيين" ثم "ضد اجتماعيين" ونسبة كبيرة منهم تتسبب في جرائم مبكرة, وخطيرة، ومعاودة، ومنهم يبرز اللصوص و النصابون و بدرجة أقل المتشردون .

- النمط البدين والقصير(Le Pyknique): يمتاز بجسم ورأس عريضين وأطراف قصيرة. ويعرف أصحابه بالمزاج الدوري (Cyclothyme)فهم متفتحون, اجتماعيون ومتكيفون بسهولة مع الأشخاص و الأوساط. من ناحية الإجرام فهم قليلا ما يدخلون في صراع مع المحيط ويرتبط إجرامهم، إن وجد, بفترات الاكتئاب ويظهر في فترة متأخرة مع قلة حالات العود ويميلون إلى ارتكاب جنح الغش .

- النمط الرياضي (L'athlétique): يمتاز الأفراد بعضلات قوية ومزاجهم لزج (Visqueux), ثقيل, ولكن في نفس الوقت إنفجاري أي أن هناك استعداد لنوبات حركية وانفعالية. من الناحية الإجرامية هم مهيئون لاقتراف جرائم العنف, ويظهر الإجرام عندهم في مختلف مراحل العمر و يكون إدمان الكحول أحد العوامل المساعدة عليه .

- النمط عسير النمو (dysplasique le): يعاني الأفراد من الاضطرابات في الغدد الصماء وفي النمو ويقترف هؤلاء الجرائم والجنح الجنسية وهم لم يبلغون سن المراهقة, وعندهم استعداد كبير للعود.

هذه الاستشهادات العلمية لابد لها ان تخضع ضمن العلوم التطبيقية في دراسة اسباب ومكامن شيوع الانحراف بالمجتمع . وهو مانعانية اليوم من تهديدات جدية في الوجود المجتمعي السوي. او استبدال مجتمعاتنا ووصفها بالمجتمعات الغير سوية . الانحراف اليوم هو الارهاب الفكري , الرافض للاخر الارهاب المنحرف انسانيا عن كل القيم الاجتماعية المتعارف عليها . انه ارهاب الانحراف في المعتقد الروحي دينا او انظمة ودول . انه آفة صنعتها ايدي وافكار , وخطط ممنهجة , لتدمير الانسان اينما وجد.

تطبيقات علوم الاجتماع لاتكتمل ونحن في غفلة اجتماعية , علمية وتربوية وثقافية وانسانية وسياسية . بل وتنظيمية في تشريعاتنا واعرافنا على مختلف الاصعدة الاجتماعية – الطبقية – ومنظومات الدولة بكل مؤسساتها . وعلى مستوى المنطقة لما يهدد وجودنا كشعوب ودول. مالم يعاد النظر في دراسة علم جديد في علم المجتمع والانسان وكل العلوم التي لها صلة بعلوم الاجتماع الوارد ذكرها في اعلاه بمواضيع :

سوسيولوجية – الاجرام - التفخيخ والذبح:

لم تشهد اروقة البحوث والدراسات , اي تفاصيل بحثية في منهجية الخوض , وبشجاعة عن اسباب الانحرافات الفكرية , والمجتمعية وكيفية اختطاف العقول وتسخيرها تحت هيمنة الترهيب وعدم التراجع لاسباب عديدة. تفسيرات للمجرم الاول والحواضن التي تعتبر اوساط لبيئة الجريمة. وماهي الدوافع المتشعبة والعديدة من وراء الاجرام ؟ وتمطية العقول وتسيرها كبهائم ناطقة بالجهل المركب.

وهل من المعقول ان العالم المتحضر الذي يبحث في استراتيجيات الكون لايستطيع ان يكبح مناشئ الاجرام والارهاب والذي يهدده في قعر داره ؟ هل كل ذلك بسبب المصالح التي تعلوا على دماء الابرياء والضحايا ؟ . صناعة قناعات متصلدة من تأويلات نصية تخدم اهدافها هو احد اهم الفجوات في المعرفة الشكية لبحوث الاسباب وتاثير العصف اللا انساني للمجتمع بشكل عام , وهذا العجز في تنمية الوعي عما يحدث في عالمنا العربي بل وبالعالم هو جزء من ارهاب فكري متعمد يقف عثرة امام اي جهد , لاي دراسة ميدانية يمكنها ان تعري خفايا الفكر والتمويل والاهداف الكارثية لمستقبل المنطقة.

الفصل الثاني

السكان وعلم الاجتماع

ليس ممكنا البحث في علوم الاجتماع مالم نعلم المدخل وجوهر علم السكان . الناس , البشر, التجمعات الاسرية , والطبقات السكانية , مكانها بيئتها واهم عناصرها سيكون منهجنا المترابط بفصوله اللاحقة .

السكان ميدان للدراسة في علم الاجتماع

1. **العلاقة بين علم الاجتماع ودراسة السكان علاقة خاصة مختلفة .**
2. **دراسة السكان ذاتها أقدم من علم الاجتماع .**
3. **تم توطين الدراسات السكانية وبشكل متكرر في أقسام علم الاجتماع .**
4. **تكرس الغالبية العظمي من مراجع ومؤلفات علم الاجتماع لمعالجة موضوعات السكان .**

استثمار السكان(7)

من المهم ان نعلم حجم السكان وبنيته وتوزيعه الجغرافي وكثافته ونسبة نموه . اضافة لمعرفة التحول والتغير الديموجرافي. وعلى الرغم من ان علم اجتماع السكان يعد علما حديث النشأة بمقارنته بالديموجرافيا, والدراسات السكانية الاخرى, اقتصادية وجغرافية. الا انه مازال لم يلق اهتمامات بحثية تعمق العلاقات السكانية بثقافاتها وبيئاتها وبايولوجياتها من المكتسب الموروث ومدى تاثيرها الفعال على السلو السوي والغير السوي . ومعرفة الاسباب من منظور علم النفس الاجتماعي وعلم النفس البايولوجي على وجه التحديد. لكي تتطور وتسمو نتائج البحوث لغرض تقديم دراسات معمقة في مجالات البايولوجيا المجتمعية وتاثرا الجينيوم البشري على النسيج المجتمعي والعلاقات بين الطبقات الاجتماعية بمختلف متضاداتها الطائفية والقبلية والمكانية.

تعتبر جغرافية السكان عن الديموغرافيا بأنها تهتم بالاختلافات المكانية في توزيع الظاهرات السكانية

وتركز على مدى تأثير الخصائص المكانية الأخرى في توزيع هذه الظاهرات السكانية وتفسير أنماط وفوق هذا وذاك لايمكن أن نفترض وجود حدود صارمة بين فروع العلم . توزيعها وسلوكها المكاني ومجالات المعرفة وخاصة بين الديموغرافيا والدراسات السكانية من جهة . وبناء عليه فإن الدراسات السكانية بوصفها فرعاً من فروع العلم والمعرفة هي الدراسات التي يتم فيها إدخال متغيرات غير ديموغرافية في التحليل ، سواء كانت متغيرات تابعة أو مستقلة . ففي بعض الأحيان تتم الإفادة من بعض المتغيرات غير الديموغرافية . وتعد جغرافية السكان اقرب إلى الدراسات السكانية منها إلى الديموغرافيا ولكن جرافية السكان تركز على التباين المكاني والعلاقات المكانية في دراسات الظاهرات السكانية وبذلك تدخل جغرافية السكان ضمن دائرة الدراسات السكانية . من جهة أخرى يهتم علم اجتماع السكان بفهم الظاهرات السكانية في ضوء البناء الاجتماعي للمجتمع وذلك من خلال الربط بين النظرية الاجتماعية والتركيب الهيكلي للمجتمع المتمثل في السكان . أما عن دور المعرفة السكانية بشكل عام وجغرافية السكان بشكل خاص في التخطيط الشامل ونحوه فيمكن إيجازه فيما يلي:

أولاً : بما أن التخطيط يبدأ بالإنسان وينتهي به وأن التخطيط يهدف بشكل أساسي إلى تنمية الإنسان ورفع مستوى معيشته فإنه لابد من معرفة خصائص هذا الإنسان وتوزيعه الجغرافي قبل البدء في وضع الخطط المتعلقة به وبتحسين مستوى معيشته أو حل مشكلاته.

ثانياً : إلى جانب التخطيط تحظى المسائل السكانية بأهمية كبيرة لدى الكثير من العلماء والمسئولين والنـــاس علـــى حـــد ســـواء لارتباطهـــا بالتنميـــة الاقتصـــادية والاجتماعيـــة.

ثالثاً : ما من شك أن عدد السكان وطبيعة تركيبهم وسماتهم الديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية والعرقية من العوامل المهمة التي تشكل القوة السياسية للدولة.

رابعاً : تعتبر المعرفة السكانية خلفية أساسية لكثير من فروع المعرفة كالجغرافيا والتاريخ والاقتصاد

خامساً : تحتل المعرفة السكانية أهمية كبيرة لدى رجال الأعمال والمستثمرين فنجاح كثير من الاستثمارات والأنشطة الاقتصادية يعتمد بدرجة كبيرة على دقة البيانات السكانية ومدى الاهتمام بها.

سادساً : لايمكن تجاهل أهمية البعد الديمقرافي في كثير من مجالات الحياة والمشكلات السياسية والصراعات الدولية على وجه الخصوص . فكثير من الصراعات لها جوانب سكانية مهمة كالقضية العربية الإسرائيلية وغيرها من الصراعات الإقليمية وهذا يجعل المعرفة السكانية ذو ابعادا مهمة.

اهم العوامل المؤثرة بالسكان:

لاشك أن توزيع السكان يتأثر بمجموعة كبيرة من العوامل المختلفة ويمكن إبراز العوامل المفسرة

لتوزيع السكان على سطح الكرة الأرضية بشكل عام فيما يلي :

1. الموقع الجغرافي:

الموقع الجغرافي للمكان أو المنطقة أو الدولة يؤثر على الكثافة السكانية لذا يمكن من خلال فحص خارطة تفصيلية عن توزيع السكان في العالم التوصل إلى ملاحظة أن معظم سكان الارض يعيشون في مناطق لاتبتعد كثيراً فيما بينها بقربها او بعدها عن الانهر او البحار.

2. مظاهر التضاريس :

أن تباين التضاريس على سطح الامكنة من حيث الارتفاع والانخفاض أو من حيث اختلاف أنواعها من مرتفعات وجبال وسهول وأنهار ترتبط أرتباطاً قوياً بالتباين في توزيع السكان .وبناء عليه فإن الجبال تعتبر من مناطق الكثافة المنخفضة جداً وذلك لوعورتها وصعوبة التنقل فيها.

3 المناخ:

يعد المناخ من اكثر العوامل تاثيراً في توزيع السكان سواء بشكل مباشر من خلال عناصر المناخ والتساقط ويمكن تصنيف المناخ إلى قسمين:

أ- المناخ البارد :

لايوجد في المناطق المتجمدة في الأجزاء الشمالية والجنوبية من الكرة الارضية في هذه المناطق فالإنسان يصبح أكثر عرضة لأمراض الجهاز التنفسي كما أن هذه المناطق تتميز بفصل نمو نباتي قصير لايتيح المجال لزراعة محاصيل متعددة

ب- المناخ الحار الجاف :

على الرغم من أن الصحاري تغطي خمس مساحة اليابسة إلا أن سكانها لايمثلون إلا نسبة صغيرة جداً من سكان الكرة الأرضية .عدم توفر المياه أو ندرتها تحول دون ممارسة الزراعة التي يمكن أن يكون نموها سريعاً

ج - المناخ الحار الرطب:

لاتعتبر المناطق الحارة المطيرة المكان الأمثل لسكنى الإنسان مع بعض الإستثناءات مثل مناطق جنوب شرق آسيا وبعض مناطق تركز السكان في أمريكا اللاتينية . ومن الجوانب السلبية لهذا النوع من المناخ سرعة تكاثر الحشرات والنباتات الضارة

د- المناخ المعتدل والمعتدل البارد :

تعد المناطق ذات المناخ المعتدل من أكثر عناصر الحياة وخاصة المياه وعدم تطرف درجات الحرارة وان معظم السكان يعيشون بين درجتي عرض 20 و 60 شمالاً حيث تقع هذا النطاق الأقاليم الأقاليم المعتدلة والموسمي التي تعتبر أكثر المناطق ملاءمة لسكنى الإنسان

4 التربة:

على الرغم من أن التربة تعد المصنع الطبيعي لغذاء الإنسان إلا انه ليس من السهل الربط بين توزيع السكان وأنواع التربة وتركز السكان في بعض المناطق خاصة عندما تكون الزراعة هي النشاط الاقتصادي السائد فالتربة الطموية في دلتاوات الأنهار في مناطق شرق آسيا وفي دلتا النيل وكذلك التربة البركانية في جاوة لها دور كبير في ارتفاع الكثافة السكانية

5. الثروات المعدنية ومصادر الطاقة:

لاشك أن الثروات الطبيعية تلعب دوراً كبيراً في جذب السكان بل وإعادة توزيع السكان عند أكتشافها واستغلالها في مناطق معينة . وتزايد الحاجة إلى المعادن ومصادر الطاقة كالفحم والحديد .أدى ذلك إلى تركز السكان بجوار أماكن توافر هذه المواد

6. النشاط الاقتصادي :

يلعب النشاط الاقتصادي دوراً هاماً في نمط توزيع السكان . تسهم الصناعة في وجود كثافة سكانية مرتفعة مقارنة بالأنشطة الزراعية بشكل عام وينبغي الإشارة إلى أن النشاط الاقتصادي السائد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعوامل المذكورة أنفاً ويؤثر بالاشتراك معها في توزيع السكان وبناء على ماسبق يتضح تأثير الصناعة وتركزها في المدن

7 .النقل والمواصلات :

لقد أسهمت طرق النقل وخطوط السكك الحديدية بدورها في نشأة بعض المراكز العمرانية وازدياد الكثافة السكانية في بعض الأماكن .كما أسهم النقل البحري في نشأة الموانئ وتركز السكان في المناطق المجاورة لها . لذلك يلاحظ انتعاش ونمو بعض المراكز العمرانية التي تقع على خطوط النقل

وانكماش تلك التي تقع بعيداً عن الطرق وخطوط النقل

8. التنمية الاقتصادية ونسبة النمو:

يرتبط هذا العامل أرتباطاً وثيقاً بالعوامل الثلاثة السابقة (المعادن ومصادر الطاقة والنشاط الاقتصادي والنقل) إذ تلعب استراتيجيات التنمية وأهدافها دوراً كبيراً في توزيع السكان ونمو أعدادهم دوراً كبيراً في توزيع السكان ونمو أعدادهم .فالهجرة آلية مهمة من خلالها يتم إعادة توزيع السكان وذلك بتأثير الحوافز والدوافع المتمثلة في توفر فرص العمل والخدمات الأساسية

9. العوامل التاريخية والصراعات:

بما تفسر العوامل التاريخية انماط توزيع السكان في بعض المناطق فعلى سبيل المثال لا أحد ينكر البصمات التي تركها الاستعمار على توزيع السكان في قارة أفريقيا كما ان هناك تغير كثير من الحدود في أوربا بعد الحرب العالمية الثانية أحدث تحركات سكانية كبيرة وأخيراً أدى تفكك الاتحاد السوفيتي السابق وما اعقبه من حروب في البوسنة والهرسك وكوسوفا إلى تهجير إجباري وتحركات سكانية كبيرة . أسهمت في تغيير الخارطة السكانية لتلك المناطق

10. زيادة السكان والسياسات المتخذة:

تؤثر العوامل الديموغرافية المتثملة في المواليد والوفيات أو الزيادة الطبيعية على نمو السكان ومن ثم زيادة تركز السكان أو انخفاض الكثافة وتبعثر إعداد السكان فالتباين في معدلات المواليد بين المناطق الجغرافي ة يؤدي خلال فترة من الزمن إلى تغير في توزيع السكان نتيجة تزايد أعداد السكان أو تناقصهم في تلك المناطق . كذلك فإن التقدم التقني الهائل الذي حققه الإنسان خلال القرن العشرين مكن الإنسان وخاصة في الأقاليم المتقدمة من العيش في أي مكان بصرف النظر عن الظروف الصعبة.والتي تحتاج لتوضح بما يؤسس لمعرفة مضامين علوم الاجتماع بطريقة بحثية متجانسة الترابط المعلوماتي نوضح الاتي:

السياسات السكانية:

ماهي السياسة السكانية : هي مجموعة الإجراءات الظاهرة أو الضمنية التي تتخذ في الغالب من قبل الحكومات للتأثير على حجم السكان أو معدلات نموهم أو توزيعهم أو تركيبهم الديموغرافي . كما تعرف السياسية السكانية من قبل بعضهم على أنها مجموعة من الإجراءات المؤثرة على العمليات الديموغرافية وبخاصة الزيادة الطبيعية والهجرة.

لم تكن محاولات التأثير على المتغيرات السكانية وليدة العصر الحديث بل تشير بعض المصادر إلى أن الناس في بعض دويلات المدن في اليونان وبخاصة في اسبرطة يعمدون إلى ترك المواليد تحت ظروف صعبة لكي لايبقى منهم إلا الاصلب عوداً والأقوى بدناً . وعلى اية حال فإن الإنسان بطبعه شغوف بالنظر إلى المستقبل للتعرف على ماذا يخفيه من أحداث ومفاجآت لذلك حاول الإنسان منذ القدم اخذ العوامل المؤثرة في نمط السياسة السكانية الحيطة والحذر في محاولة لتغيير مجريات الأمور لصالحه هناك العديد من العوامل التي تؤثر على نوع السياسة السكانية التي تتخذها الدولة ومن أهمها :

1.العوامل الاجتماعية والثقافية والدينية:

يتأثر نوع السياسة السكانية بالحياة الاجتماعية والدينية ويأتي الدين في مقدمة هذه العوامل فالبلدان التي يلعب الدين فيها دوراً مؤثراً في حياة الأفراد غالباً ما تتبع سياسة سكانية ترفض الحد من النسل ولكنها قد تقبل خيارات أخرى تتعلق بتنظيم الأسرة .

2. العوامل الاقتصادية:

يؤثر المستوى الاقتصادي وأنماط الإنتاج في الدولة على نوع السياسة السكانية المتبعة وتقوم الدولة باتباع السياسة السكانية التي تناسب وتنسجم مع إمكاناتها وثرواتها الطبيعية . وهذه الظروف الاقتصادية تعكس على الحاجة إلى اليد العاملة ومن ثم تؤثر على سياسات الهجرة والنمو السكاني ز

3.العوامل السياسية :

تسعى الدول الصغيرة إلى زيادة عدد سكانها وبخاصة تلك المهددة من قبل دولة أو دول مجاورة ذات حجم سكاني كبير .ويشهد التاريخ بنماذج كثيرة لتأثير الجوانب القومية على السياسات السكانية في فترات مختلفة.

الفصل الثالث

الحيز المكاني

تعطيل وركود العقل المبدع في البحث العلمي , لاي دراسة تهم المجتمع سببه سياسي , لكونها تسلط الحقائق بشكل دقيق لمواقع المجتمع في الحياة العامة , وتفرز, كم هي متخلفة في مجمل حركة الدولة . لضمان حق الفرد والمجتمع ودوره في بناء مجتمع متجانس النسيج , الذي يؤطر لبناء مشروع الدولة . فقدنا مناهج التعليم الرصين في مختلف المراحل الدراسية . وتراكم اسلوب التلقين مما خلق مناخات استبدادية للمتعلم والمعلم.

ولمعرفة ماجرى من تدهور رهيب في مفاهيم المنظومة القيمية للمجتمع. وتحليل اسبابها بحيادية تبتعد عن الانتماءات والولاءات الفرعية . التي هي الاخرى شكلت عائقا للتشخيص الدقيق , لاخفاقات وانماط التعامل داخل وخارج المجتمع.

ورغم محاولتي , المتواضعة هذه في اقتحام هكذا موضوع في غاية التعقيد وبرؤيا مختلفة عما عرفناه . عن السلوك المتغير والمضطرب لما مر به من صعاب جسيمة هزت كل اعرافه ومنظومات القيم فيه . والتي لم يبحثها المتخصصون في علم الانسان , واهمها مايتصل بعلم الاجتماع لما لهذا العلم من علوم متعددة الانشطة واهمها الاقتصادية والتعليمية والثقافية وبقية العلوم الاخرى. اخذا بالحسبان ان لايوجد سلوك واحد لشخصية واحدة , يمكن تعميمها وهي احدى الاخفاقات في اي دراسة لهذا الموضوع الاجتماعي . فكما ان التوائم مختلفة السلوكيات والبصمات , فمن البديهي ان تختلف شخصية واخرى , وسلوك عن اخر بيئة وموروثا.

تعتبر الدولة حاضنة للوعي المعرفي والأخلاقي والاجتماعي والسياسي السائد في المجتمع، لذا فهي بنية فوقية لبنية تحتية، تمثل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية السائدة والمستوى المعرفي . فإذا كانت هذه العلاقات متخلفة، فالدولة متخلفة وهكذا.

فهناك علاقة تأثير وتأثر متبادل , بين المؤسسات والمجتمع، فكلما كان تأثير البنية التحتية للمجتمع على البنية الفوقية (المؤسسات) كبيراً. كانت الدولة أكثر ديموقراطية، وكلما كان تاثيرالبنية الفوقية

(المؤسسات) على البنية التحتية (المجتمع) كبيراً . اتجهت الدولة باتجاه القمع والديكتاتورية. فالدولة الديمقراطية هي حالة الوسط في التأثير والتأثر المتبادل بين البنى المختلفة. والدولة كمؤسسات قانون لا مؤسسات قمع او استبدادات متنوعة الاوجه والتاثير.

كذلك فان محنة الامة تبدأ من نقص او فقدان كفاءة النظم السياسية السائدة وضعف قدراتها على توريط شعوبها في مآ زق جديدة بين حين واخر. فتتحول النظم السياسية الى ادوات سلطوية , لتعالج محنها بانشاء مراعي تقود التجزءة الاجتماعية , وذلك بتغير الايكولوجيا المجتمعية بولائاته المتعددة كشعب متجانس الهوية والولاء , الى جمهور مصنف تصنيفا يفقد معناه الانساني والوطني ويحوله الى حشد يسهل انصياعه. كارقام لاتجمعها محصلة واحدة لها اتجاهها وقدرتها.

وعندما ينخرط الفرد في جمهور، مهما كان الفرد متعلما، فسيهبط عدة درجات على سلم المعرفة ويفقد كثيرا من تعقله للاشياء وكثيرا من سلوك شخصيته المعتادة. فيكون في وسط الجمهور غريزي، همجي، عفوي، بدائي، ويكتسب كل انفعالات الجمهور. ومن سمات الجمهور كما يصفه علماء النفس والاجتماع بانه: جمهور اندفاعي متسرع و انفعالي يكاد اللاشعور ان يكون دليله الاوحد. لاشئ عنده مسبق التصميم، يخضع للرغبة الآنية البدائية العارمة. فالجماهير لاتعرف معنى الحقيقة فهي تطلب اوهاما وتقدم على الدوام اللاواقعي على الواقعي ويصعب عليها التميز بينهما. ولغرض السيطرة على قيادتها فانها تؤمن بالقائد الذي يطلق عليه (الهيبة) سواء هيبة مكتسبة او مصطنعة .

ولكي تستمر السلطة القمعية , في حماية نفسها لابد لها من اضعاف النسيج المجتمعي وتهرئته ليستبدل بجمهورا اصطناعيا و حشدا بلا تنظيم او شبه تنظيم. عمدت السلطات بشكل ممنهج ومبرمج ولربما بشكل عفوي من تهيئة مناخ للطقوس الاجتماعية التي منها يتم صناعة جمهور جديد على قاعدة شيطانية وهي:

في السياسة كل شئ مباح . المكر والخداع والكذب والاقصاء والتستر برداء القيم والاخلاق والدين . اسس فنا من فنون الاحتلال والهيمنة , وفن اخضاع الجمهور للتجويع وحصوله وبالكاد على لقمة العيش , بما كان وما زال يسمى بالبطاقة التموينية , سيئة الصيت , منشغلا بالصراع من اجل البقاء . كحشد تطعمه السلطة شهريا وهي اكبرعملية ترويض سايكولوجي , لفقدان الذات الانسانية بكل ما تحمل من معاني وقيم ضاعت بها المدينة وتحول الريف الى فاقد لصفاته الزراعية وعمت السادية بديلا لقساوة الصحراء والبادية . فتغيرت بنيوية ماكان يصنف بالحضر والريف والبداوة فقد توجهت وبشكل

فوضوي للزحف الى المركز المديني والحاملة لمورثها الجغرافي تلكم السمات المختلفة عن، المدينة. اودية وسهول وجبال وصحراء . الانسان الفاعل المتفاعل معها فاغتربت مفاهيمه وسط مفاهيم المدينة المازومة بين مجمل الهويات المتخاصمة فيما بينها.

ازمات تلد اخرى

عندما تتاقلم وتنحدر اخلاق المجتمع . يتوقف ان لم يتراجع التطور والنمو فيها عند مستوى ساكن، فتتخذ سلوكا اجباريا الزاميا , لنوع العادات والتقاليد . باخضاع الفرد لمصلحة الجمهور فتسود الاخلاق المنغلقة داخل الجماعة بما تملك من بقايا كان يسمى بالضمير . العكس صحيح عندما تتفتح الاخلاق لتفتح , ابداعا انسانيا بآفاق واسعة نحو القيم السامية التي تجهلها الاخلاق الاجتماعية.

لكي يتم صناعة بدائل للاعراف الاجتماعية واستبدال النخوة والشهامة والامانة والصدق والاخلاق الحميدة والايثار وغيرها من القيم التي تعود المجتمع على ممارستها والافتخار بها والتي تضعف السلطة والحاكم . كون سياسة الاستحواذ تتصادم مع هذه القيم . فلابد من تقطيع اوصال هذه الروابط التي توحد المجتمع بولاء وانتماء الوطن والدولة . عمدت الميكافيليا السلطوية على تمزيق انسنة الاشياء كل الاشياء , فصنعت بديلها جمهور مجزأ , مختلف الولاءات سهل الطاعة , غريزي الحاجات , فتكونت جمهرة من جمهور . مما انتج بشكل متوالي يمتلك صفات , لشخصيات الحشد . الذي يفتش عن قيمه الاجتماعية التي بمضمونها الاخلاقي .اضحت ضبابية المفهوم والتطبيق, اضافة الى كونها ليست من الاولويات التي تحاسب عليها الاعراف الاجتماعية .

سياسة المساجد

كلما اقترب التدين من المدينة كلما ازداد تذبذبا وانتهازية . رغم جوهريته الايمانية والاخلاقية التي تبين ملامح التعامل الانساني مع الاخرين . بغض النظر عما يحملوه من معتقدات وهويات . لان المصالح الفردية عادة تعلو على المصالح العامة، اضافة لاستعداد المتدين المديني الانخراط بالسياسة فتصبح هويته الدينية تلي هويته السياسية. بل واحيانا كثيرة , يعلو ولائه السياسي على ماكان من ولاء

جمهور المنافع الدينية و تسيس الدين لخدمة السلطة . وليس تعبدا للايمان باهداف الدين .انه جمهور سلطة , تابع ومطيع سياسيا وطائفيا. كما كان في الحملة الايمانية التي يقودها حزب علماني لتحقيق مصالح طائفية ولفرز مجاميع يحدد ولائها جمهور تم صناعة وعيه الجمعي , بطريقة قصرية, تركت اثارها السلبية حتى وقتنا هذا وستتعمق باساليب عديدة رغم تنوع واختلاف الاهداف . واصبحت السياسة تقودها المساجد , واصبحت خطب الجمع وصلاتها منطلقات , من خلالها يتم تحريك الجمهور الذي آمن بتسيس كل ماهو رسمي , من منطلقات دينية بتفرعات مذهبية .

تكتلات المدن

تحولت المناطقية حسب ولائها للسلطة الحاكمة . فتم فرزها الى مدن سوداء حملت هويات مجروحة لاتنتمي لذاتها مغتربة مهمشة بين مهاجر ومهجر ومغيب . تمثل المدن المستنزفة .ومدن بيضاء صنع معظم جمهورها بسطوة الصحراء وسادية الحكم ليبني ولاءات مختلطة . لكن سرعان ما تحولت المدن البيضاء الى مدن منتحرة لانها احتضنت جمهور غريبا تاصلت فية صناعة التطرف فتصارعت صناعتان متناقضتان و بمكان واحد . رغم انهما من رحم القديم الذي اضاع فرص الاحتضان الجمعي لكل الاماكن الاخرى.

لم تتأسس لدينا مدن جامعية , وان وجدت فقدت اشعاعها ضمن جمهور بمستويات متعددة ومرتبطة في علاقاتها الاجتماعية. بل هنالك مدن دينية باضرحتها او كنائسها التاريخية او بمقابرها. هي الاخرى شكلت نوعا من هيئة المجتمع التنظيمية , في تلك ضمن تلكم المدن.

تسيس الولاءات

انقسمت منظماتنا المهنية الى واجهات لتنظيمات حزبية , منذ ان تاسست النقابات المهنية . بدلا من ان تكون مجتمع مدني يمثل تجمعات تمتلك وحدة متجانسة في تمثيلها لجميع اعضاء المجتمع المدني. فظهر بديلا لذلك المجتمع الاهلي . الذي يمثل العشيرة وتداخلات الاعراف والتشريع. وليس خليطا من انتماءات متعددة . كما كانت عليه منظمات المجتمع المدني , التي كانت تمثل وطنيا ومجتمعيا نحن بامس الحاجة اليه . كانت ومازالت تمثل ولاءات عاطفية منفعلة وليست انتماءات بمنهجية ناضجة .

واجهات شعاراتية

التنظيمات الطلابية والنسوية والفلاحية وبقية المهن الاعلامية المنطوية تحت نقاباتها الخاص كل ذلك تم اعادة صناعته من جديد لتلبي متطلبات مغناطيسية الولاء والهتاف والانصياع لحزب او تيار دون غيره، كلها حشود تملك وعي جمعي احادي, باساليب متعددة. لتحقيق منافع ذاتية بغض النظر عن شرعيتها الاخلاقية والمبدئية، وفوضى تبحث عن ماهيتها. دون الاكتراث للمصالح العليا للوطن , او انسجامها مع القوانين , الغير موجودة اصلا . التي تضع ملامح مسارات وشروط تاسيس المنظمات والاحزاب.

خارطة الازمات

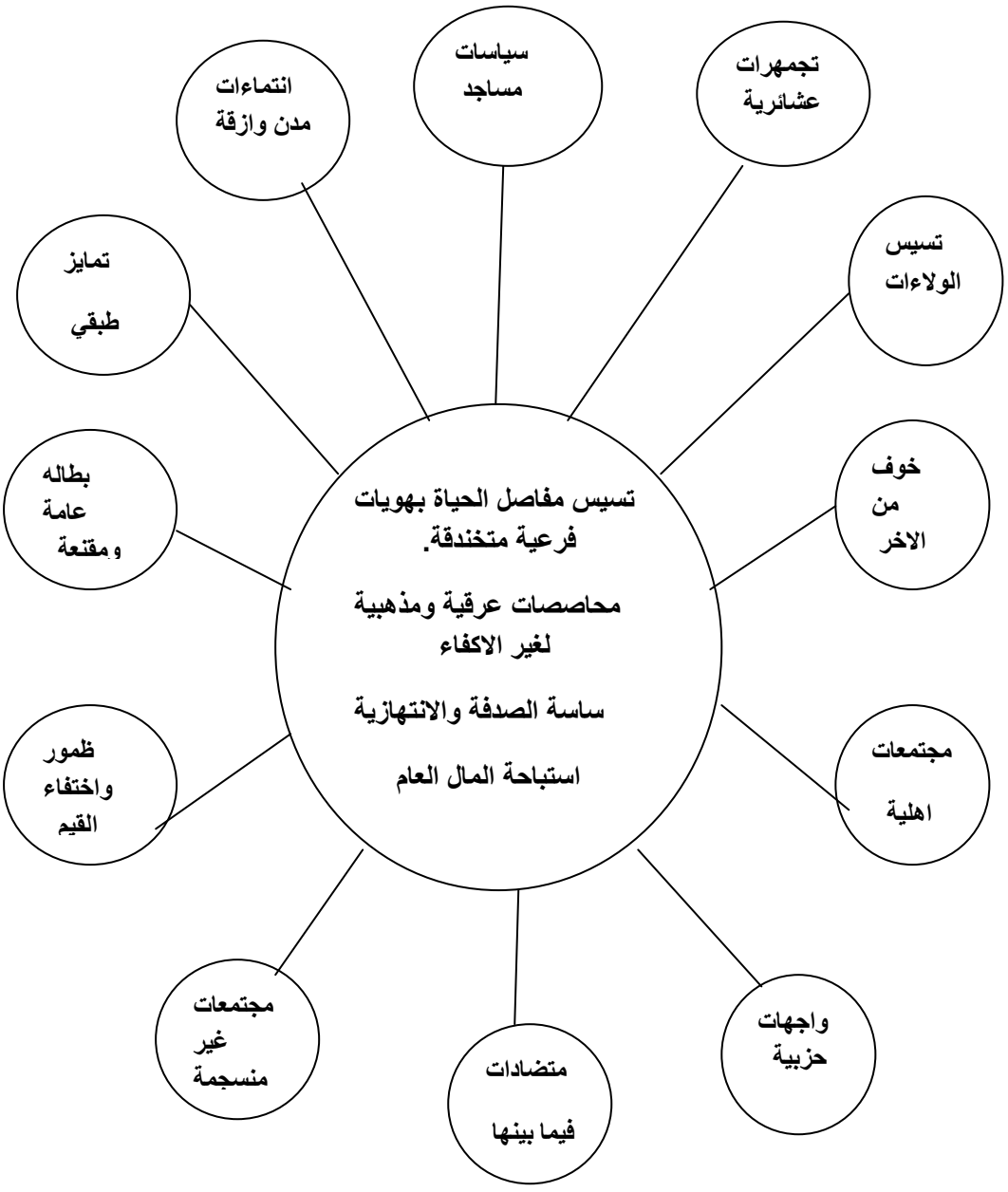

الفصل الرابع

اين نحن كمجتمع

تعدى مفهوم االفرد والذات والانا , في ما كان ومازال يسمى بالشخصية الى سلوك جمعي انصهرت الشخصية فيه , فتائر الجمع بها كما تأ ثرت هي فيه فضاعت بنيتها ضمن مفهوم الجماهير السيكولوجي كحشود تعمها الغرائز. ومما لاشك فيه ان هنالك بقايا من شخصيات , احتفظت بقيمها الخلقية وتملك ضمائر حية تتصف بالارث القيمي الذي قرئناه وعشناه. وبشكل عام لايمكن تعميم ووصف للشخصية او للمجتمع , لانهما ببساطة شخصيات ومجتمعات تختلف باختلاف ثقافاتها البيئية والبايولوجية بعضها مازال حيا يعيش معانات البقاء والديمومة . لكننا نحاول ان نلتقط الشائع من المنتج المجتمعي فرادا او جماعات .التي امكن رصدها بعد الفوضى العارمة من سقوط السلطة الحاكمة مايمكن تسميته او تصنيفه على النحو التالي :

اولا: الاستخفاف الجمعي لكل ماهو قيمي يمثل المصالح العامة فاستبدل العام بالخاص لتبرز ال نحن الجمعية لتستاسد على كل من يقف امام مصالحا فئوية كانت ام عامة.

ثانيا: ثقافة الصدفة والطائفة والعشيرة بديلا للهوية الرئيسية الجامعة لكل الفرعيات الطبيعية والوسطية فظهرت الشخصيات الهدمية الغريزية.التي تريد ان تعوض المفقود باي ثمن كان.

ثالثا: الفئات التسويقية في العرض والطلب بين تسويق نفسها ليس للدفاع عن هويتها بل لاستخدامها كهوية عنفية بلا اخلاق وطنية. فانتجت هويات اميبية بلا عناوين. اقلام تروج لهذا وذاك وسيوف تستخدم لنفس الذوات المنتفعة من فوضى التجارة السياسية الدينية والعرقية.

رابعا: ثقافة المظلوم الحاكم مبررا لتميز مظلوميتها عن غيرها والتي تؤمن بان السلطة والحكومة والمواقع السيادية هو البديل لمفهوم دولة المواطن الانسان لتنتج مجتمع سلطوي بديلا لمجتمع الدولة. فهي ثقافة لا تتسع الا لمن يصنف بالمظلومية ويسهل ان تكون اكثر ظلما ممن ظلمها حقا .. تبادل الدوار بتبادل المنافع والارباح.

خامسا: متاهات التوجه بالمنهج التعليمي الاستبدادي باسلوب ببغائي لاينتج الا الامية الثقافية الخالية من اي تاهيل للابتكار. سواء انخرطت بالدراسة ام تسيبت منها فلا الشارع ولا جو التعليم ومناهجه اصبحت عندها ذي جدوى امام الفوارق الاجتماعية الهائلة في الغنى والفقر.

سادسا: الطوائف الخائفة ، المجاملة، المضطربة، المتضادة التي تتلذذ بجلد ذاتها , كمنتج لثقافة العلن والسر .وتبعات التهميش وجنوسة الدماغ.عادة الاغلبيات المذهبية التي تم تهميشها على مر العصور ولها مرجعيات احادية في الشرائع السماوية والتي فقدت تنظيمها رغم اغلبيتها فاصبحت عبارة عن سكان يعيش مناطقه البائسة والمحاصرة .. خاضعة خانعة حسودة كارهة لذاتها بشعور الذنب (رغم ان لاذنب لهم) من تاريخ ندموا عن مذابحه في كربلاء وكأن الكوفة هي كل هذه البيئة ومناطقها .. حزن والم ومعاناة ومظلومية واقصاء وتهميش شكل هذه البيئة ومناطقها . حزن والم ومعاناة ومظلومية واقصاء وتهميش شكل شخصيات يصعب اعادة بنائها من جديد لان ادلجة العواطف اشبه بامراض مستعصية العلاج .. الا بعد ان تستبدل باجيال لها مفاهيم مغايرة لما قد رسخ في خيال وشعور ماقبلهم.

سابعا: شيوع ثقافة الطقوس بديلا لثقافة الابداع والادب وقراءة الكتب والترجمة فانتجت جماهير طقسية تفرح وتحزن لطقوسها كيفما تكون.وهي احدى وسائل اثبات الولاء وغسل ذنوب دواخل اسباب جلد الذات.

ثامنا: ظهور شخصيات تروج لتعظيم الذات الكاذب لامتلاكها وعيا زائفا جعلها بهلوانية مخادعة اعتمد بعضها رغوات مراحل سياسية بحجة المعارضة تتظاهر بالتسامح وحب الاخر لكنها تفعل العكس. انها شخصيات الانبهار المبعثر.التي اصبحت واجهات لاسوأ شريحة بالمجتمع وهي شريحة السياسين الذين فقدوا كل شئ من اجل ذاتهم الاستحواذية الشرهة لما هو مفقود لديهم مالا وجنسا وجاها . فامسى الجاهل عالما بشهادة مزورة والسارق امينا والامين سارقا معادلة سياسية نموذج لما وصل الية التردي في ضياع القوانين والتلاعب في كل ماهو ثابت ورصين. نماذج منحطة تكذب على ذاتها وتسخر بعقول الناس امام شاشات اصبحت نوادي مرئية بلا خلق انساني نبيل.

ورغم ان حجم الكارثة كبيرا ومفاصلها متشعبة متعددة التعقيد. نحن بحاجة لبناء الخطوات الهادفة لمعالجة ماحصل من تدهور مجتمعي بحاجة الى ثورة نهضوية تقوم بها كل مؤسسات

الدولة الغائبة حاليا حيث ان اعادة عمليات بناء الدولة الرصين تحتاج الى خبرات كل الخيرين من مثقفين استراتيجين ومن خبرات متراكمة وطنية واجنبية للنهوض من قاع الكارثة التي تركتها الانظمة السياسية السابقة والحالية. ومهما تكن الخطوات فلابد من البدء , لاعادة اعمار الانسان اولا للنهوض بكل مناحي الحياة لخلق مجتمع واعي كاساس جوهري لبناء دولة عصرية بلا طوائف متخلفة واعراق متعصبة.

خارطة واقع المجتمع

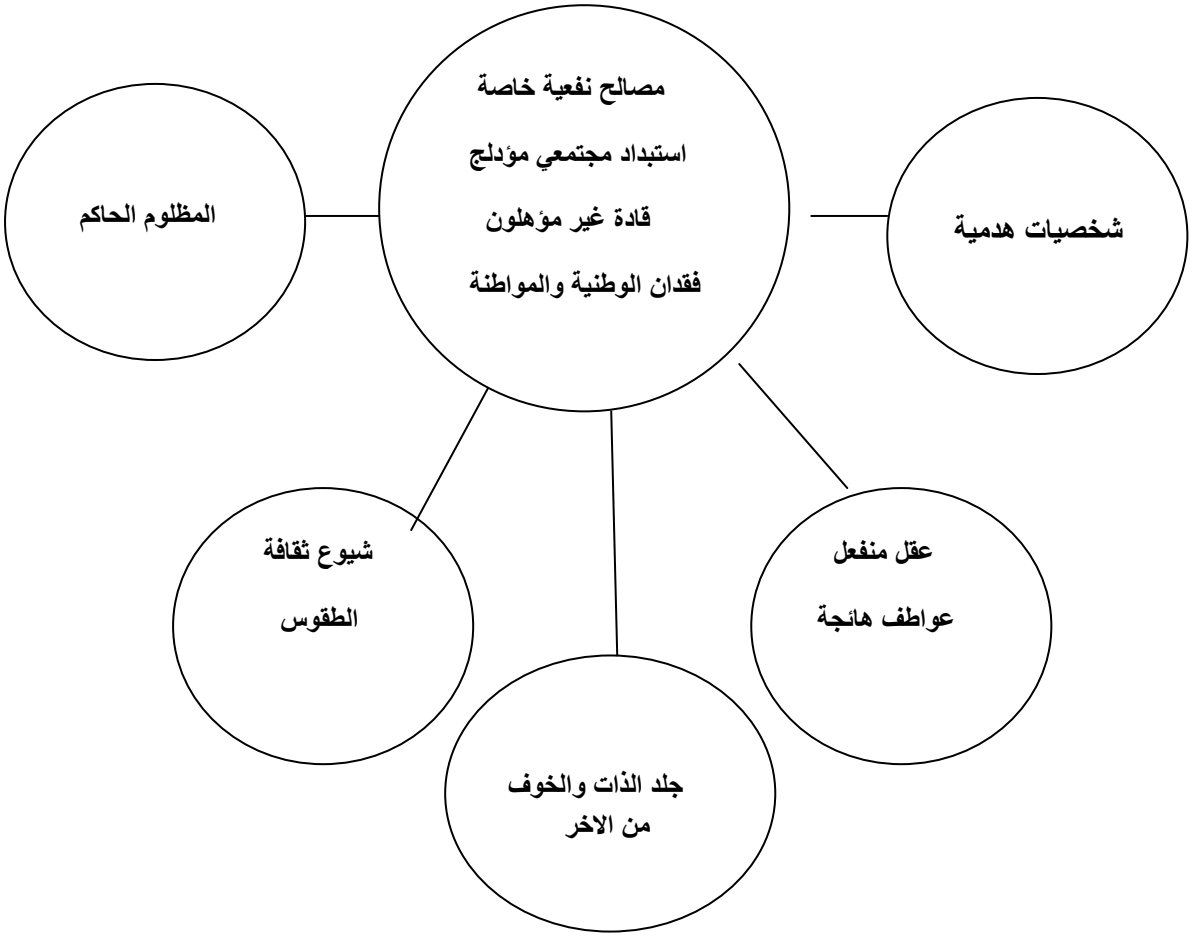

الفصل الخامس

سبل النسيج المتجانس

تأهيل المفاهيم:

المفهوم هو فكرة قادرة على التعميم , وتتضمن رؤية محددة ودقيقة في المجال الذي تعمل فيه تأهيل المفاهيم , تعطي للفرد قدرة على التامل والتفكير المنظم والعلمي , الذي بالتاكيد سينتج مجالا معرفيا يؤسس جملة ,من المفاهيم المنظمة فكريا قابلة للتجديد والمنفتحة على غيرها من الافكار.وان من اهم اسباب توقف الثقافة العربية هي توقف مفكريها عن تاسيس مفاهيم التجديد المعرفي . بل تشبثوا بمفاهيم الماضي وتوقفوا عندها مما ادى الى توقف تفكيرهم عن انتاج الجديد واصبحوا ينتمون الى عصر غير العصر الذي يعيشون احداثه وتطوراته.اشبه بمن يستخدم مفتاحا خشبيا صنع في القرون الوسطى ليفتح به بيته الحديث الذي يسكنه اليوم. مهمة تأهيل وتاسيس المفاهيم تقوم بها النخب على ان يتم تداولها في الاعلام والاوساط الثقافية والتعليم وصناع القرار. لتصل الى الفرد الذي هو الهدف كله ليؤسس بدوره فردانية تفكيره.

التفكير :

تعني ان لدى كل منا قدرة ما على التفكير, وانه لن تكتمل انسانيته وحريته ووجوده الحقيقي دون ان يستخدمها ويفعلها , كما ليس من حق اي منا , ان يستبعد فكرة انسان اخر فتجدد الذات هي تقبل اراء الاخر والتامل بها اي كانت لان اجزاء الحقيقة لايملكها الا اخرون يشتركون في استقلالية التفكير وحريته المتجددة حتى وان اختلفنا معهم هنا وهناك في الرؤى او الفهم المعرفي لتناول الجوهر من الافكار.وان رفض النقد ماهو الا تعميق للانا التي تقود الى تضخيم الذات الكاذب بستار الوعي الزائف. تاسيس مفاهيمنا من جديد وتنمية قدراتنا كافراد ,لابتكار افكار جديدة تبنى على نقد القديم. نكون قد ساهمنا في عقلنة العقل

,الذي هو مبتغى كل متجدد متحضر يروم التحديث لانتاج ابداع فكري, يؤسس لمفاهيم جديدة للمثاقفة بكل مدياتها وادواتها .

المثقف :

يعتقد البعض، ان المثقف هو من يعلم من كل شيئ شيئا . فهذه ليست مثاقفة بل معرفة عامة فكري يؤسس لمفاهيم جديدة للمثاقفة بكل مدياتها وادواتها واهمها المثقف الاستراتيجي . للتعلم . المثقف هو الشخص القادر على تغير فكره عندما يتبين له عدم صلاح فكره في مسالة معينة كان يعتقد بصحته. والمتعلم هو الاكاديمي الذي لم يستطع تغيير فكره عندما يشاء لان ضوابط القوانين العلمية لاتسمح بذلك . دور المثقف الاساسي ,هو المعرف بانتاج الافكار ونقدها لان الانتاج والنقد الدائم هو الالية الوحيدة التي تتيح للافكار ان تنضج جماعيا وتتبلور وتختبر وتشذب لتصبح حاملة للتغير الاجتماعي.

وعلى مدار قرون كان المثقف الحر او شبه الحر هو المثقف الحقيقي, الذي يقرع نواقيس التيقظ في كل مكان.ليتحدث في اللامتحدث فيه , ويفكر في اللامفكر فيه ويسلك دروبا قلما سلكه غيره, ليكون نموذج التحدي , وينحاز لمستقبل مجتمعه ضد ما يغتال ذلك المستقبل , من فكر سياسي واجتماعي وتربوي.

المثقف الوهمي الذي يجيد التزيف والتبرير الباطل . والمثقف التاجر الذي يبيع ضميره وليستسهل فكره وثقافته للسوق التجارية واسهمه لمن يدفع اكثر....والمثقف الكاسب هو من يعيش براتب شهري كموظف سلطة وليس كموظف دولة. فكل هؤلاء لايمكن تصنيفهم بصفة مثقف بل هم يحملون لقبا بلا صفة لانهم بلا موقف اخلاقي , وسياسي لتخليهم عن صفة المثقف الحقيقي صاحب الفكر المبدع الخلاق المتجدد.

الثقافة والسياسة :

في المجتمعات التي تسودها ثقافة ضميرية واقعية , تعبر عن هموم الانسان وتطلعاته وتلعب فيها النخب المثقفة والمتعلمة, دورا اساسيا في صنع المشاريع الوطنية الكبرى لتساهم بقيادته الى جانب السياسي ورجل الدولة. اما المجتمعات المازومة فهي مجتمعات تسودها, ثقافة لاضميرية منقطعة عن حاجات وهموم المجتمع, وغالبا مايكون مثقفوها منعزلون خائفون وتابعون للسياسي وللسلطة.

المثقف بصفته صانع للافكار والمشاريع النهضوية.اما السياسي فانه منفذ لهذه الافكار والمشاريع . اي ان المثقف هو من يمتلك فن التفاعل مع الواقع وفهمه وتعمقه في ابتكار المشاريع . والسياسي هو من يمتلك فن ادارة الواقع مجتمعا ومؤسسات دولة.

ان نرجسية السياسي , وتبعية المثقف هو نتاج الخراب الذي لحق في نهضتنا الحديثة ومازال, حتى وقتنا هذا.لاننا عجزنا عن خلق اي ثقافة عراقية وطنية متجذرة، واي مشروع

سياسي عراقي ناجح.والسبب يعود الى ان اغلب اتجاهاتنا الثقافية والسياسية لم تتفاعل مع واقعها حتى وقتنا هذا.لاننا عجزنا عن خلق اي ثقافة عراقية وطنية متجذرة، واي مشروع سياسي عراقي ناجح.والسبب يعود الى ان اغلب اتجاهاتنا الثقافية والسياسية لم تتفاعل مع واقعها الوطني.ومعظم ثقافاتنا السياسية كانت مؤدلجة . مترجمة من واقع ولغات اخرى . من الصعب ان نؤسس لثقافات متجددة تتناسل مع ثقافات التحضر, مالم نؤسس لمفاهيم جديدة تبتعد عن ارتهان العقل بعادات وتقاليد الاسلاف ، وظنية الاشياء، ولغرض اعادة تاسيس ثقافة فردية ومجتمعية . لابد من استنهاض النخب التي تبتكر افكارا خارج سياقات الثقافات السائدة حاليا في مجتمعاتنا. وهذا ممكن ان بدئنا باعلام واعي وساحات عمل مدني يؤسس السائدة حاليا في مجتمعاتنا.

ان نرجسية السياسي , وتبعية المثقف هو نتاج الخراب الذي لحق في نهضتنا الحديثة ومازال حتى وقتنا هذا.لاننا عجزنا عن خلق اي ثقافة عراقية وطنية متجذرة، واي مشروع سياسي عراقي ناجح.والسبب يعود الى ان اغلب اتجاهاتنا الثقافية والسياسية لم تتفاعل مع واقعها الوطني.ومعظم ثقافاتنا السياسية كانت مؤدلجة . مترجمة من واقع ولغات اخرى .

علينا ان نفهم ان ضيم تكرار تقليد معاني الماضي دون تجديد وبلا تامل ووعي ناضج لايقل ظلما عن اي تسلط اخر, ان لم يزيده دمارا لتاثيره على العقل الانساني ويجمد ادراكه ووعية وابداعه, وتفوقة في مختلف مناحي الحياة منتجا عماء الوعي الجمعي الذي اعتاد ان يقاد ولا يقود. في مايلي نسلسل ترابط عناصر الوعي الناضج. اخذين بالاعتبار ان كثير من اللاوعي هو احد منتجات الوعي الناضج او الادراك الواعي.

سبل الوصول

لوعي ناضج

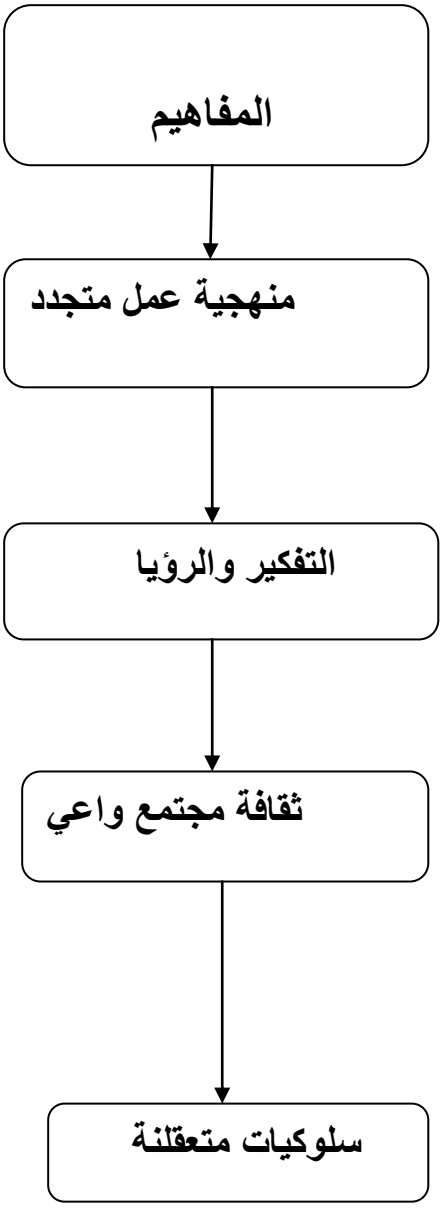

الفصل السادس

عناصر التأثيروالفعل

الجغرافيا والمجتمع:

كانت ومازالت، الجغرافيا تاريخا وواقعا، االمحور المؤثر في لعب ادوار متحركة, رغم ثبات الارض الا ان مكانها وحدودها وتواصلها مع الجغرافيات الاخرى, وباطن الارض بمايملك من ثروات متعددة . مواد معدنية، وكيماوية، وطبيعية، نفط وغاز . تجعل للجغرافية اقتصاد متحرك يتخطى مساحة البلدان, ليرسم استراتيجيات لثروات شعوب وبناء انسان متقدم، متطور ومتحفز نحو المنافسة الابداعية المتجددة.

وافضل الجغرافيات هي التي تملك ثروة المياه .. وخزائن الارض المكتشفة والمستورة. كل هذا يخضع لفن ادارة هذه الموارد الجغرافية وكيفية استثمارها لبناء مجتمع له منافع ودوافع في استمرار خلق الجديد , المكتشف والمطور, المشيد والمحسن مما يحفز المجتمع ليتعامل مع جغرافيته – الارض – الوطن، ابداعيا، ليعيد بناء هويته المجروحة، ويثبت انه مجتمع خلاق يمكن ان ينهض من جديد.

لاستنهاض هذا الترابط الانتاجي بين ابداعات المجتمع, وغنى الجغرافية وتعدد مواردها وتحويلها لقيم ربحية اضافية زراعيا وصناعيا .. الخ، بتخطيط سليم متعقل ذات كفاءة ومعرفة، لبناء انسان الدولة ودولة الانسان . لايمكن ان يتحقق هذا الطموح الاستراتيجي , مالم تكن نخبة اي صفوة المجتمع, ومفكروه وأكاديميوه المتخصصون. تاخذ مواقعها في عمليات النهوض، التخطيط والبناء لأعادة هيكلية الدولة المفقودة.

الاقتصاد والتعليم:

الاقتصادات في العالم هي علوم وليست كتل نقدية لبلدان تصنف بالفقر او الغنى، هي ليست بنوك لتداول النقد والعملات،وسوق الاوراق المالية . الاقتصاد هو الصناعة والتكنولوجيا والزراعة الفائضة عن الاستهلاك المحلي والتي تدخل ضمن عمليات التصنيع والتعبئة والتسويق، هو المواصلات والاتصالات .

الاقتصاد هو فرع من فروع علوم الاجتماع وعلوم السياسية . الاقتصاد هو جوهرة التخطيط بكل مدياته. فمنه اي الاقتصاد نخلق تعليما تربويا مبدعا مناهجه تنسجم مع حاجات المجتمع الاقتصادية المتحركة والمتغيرة باستمرار. *فمعدلات النمو والدخل المحلي والقومي والقيم المضافة, كلها مؤشرات تترجم طبيعة الاقتصاد* في البلدان . معيار الزيادات في استخدام الفرد للكهرباء احد المعاير في تعافي الاقتصاد ، ما يعني، وجود تقنيات تلبي حاجات الانسان اليومية المنزلية وغيرها . كذلك نسبة الارض المزروعة – الخضراء – داخل المدن هي الاخرى معيار للرقي في المدن المتقدمة، اضافة لنسب التلوث البيئي وتاثيرها على المزاج الابتكاري للفرد.

التعليم التلقيني احد اسباب الانتكاسات , في المفاهيم العصرية على الاقتصاد الوطني وعلى مجمل الفواصل الفاعلة في تثوير العقول , لانتاج ابداعات فكرية متجددة. فعندما تكون مواردنا ريعية احادية ساكنة, وتعليمنا تلقيني .تبني مجتمعا مستبدا لايقبل التغير. فعلم الاجتماع التربوي يؤكد على ان منبع الاستبدادت في مجتمعاتنا . بسبب التعليم التلقيني اضافة, لاحادية اضافة للاستبدات المجتمعية الاخرى.

فعندما تكون المناهج في المدارس الابتدائية جيدة، ستكون مدارس المتوسطة والاعداديات افضل وبالتاكيد ستستلم الكليات والجامعات طلبة لهم تفكيرا وابداعا افضل، مما كان عليه في المناهج التلقينية البائسة . وهكذا فحركة الدولة ببناه التحتية (المجتمعية) تنمو وتتطور كلما تطور التعليم .

الطبقة الوسطى :

ليس المقصود بالطبقة الوسطى , الطبقة المصنفة بمواردها المالية الشهرية ,او من يملك دارا سكنيا, او يوفر من مدخولاته الشهرية بمالايقل عن ثلث دخله. الطبقة الوسطى هي طبقات الوعي الناضج .. هي طبقات تتداخل فيما بينها لتشكل حركة مجتمعية تسعى لمستقبل افضل، هي الصفوة والنخبة التي تفكر وتبدع لتامين حاجات مجتمعها بكل طبقاته واطيافه. هي الطبقات المستفيدة من تاهيل وتعليم افراد المجتمع ليكونوا همزة الوصل بين , الاقتصاد المتحرك النامي والتشريعات القانونية الضامنة لحركة المجتمع الحر. الطبقات الوسطى هي الرديف لكل ابداع يؤطر وعيا ناقدا للا نحرافات في مختلف الاصعدة . هي النموذج الانيق لحركة المجتمع المدني في كل بلدان العالم المزدهر.

فمن الطبقات الوسطى تكون للمجتمع ثقافة عقلية حديثة . هي نخبوية الوعي المتجانس بين المثقف والسياسي بين الواعي واللاواعي هي مدرسة لجنين المجتمع. لقد فقد المجتمع العراقي هذه الطبقة الواعية المحركة , لكل الطبقات الاخرى بعد ان كانت نسبتها تتجاوز ال 18% من نسبة السكان في العراق , وقدرت حينها باكثر من ثلاثة ملايين ونصف نسمة . عندما كان تعداد السكان بحدود عشرين مليون نسمة.فكانت تساهم في ارسال ابناءها للبعثات الخارجية , كي تتاهل لمواصلة المسار الذي ينتهجه الاب كذلك تؤهل العاملين , لديها بدورات تدريبية خارج العراق.

عناصر التاثير والفعل في
الثقافات المجتمعية

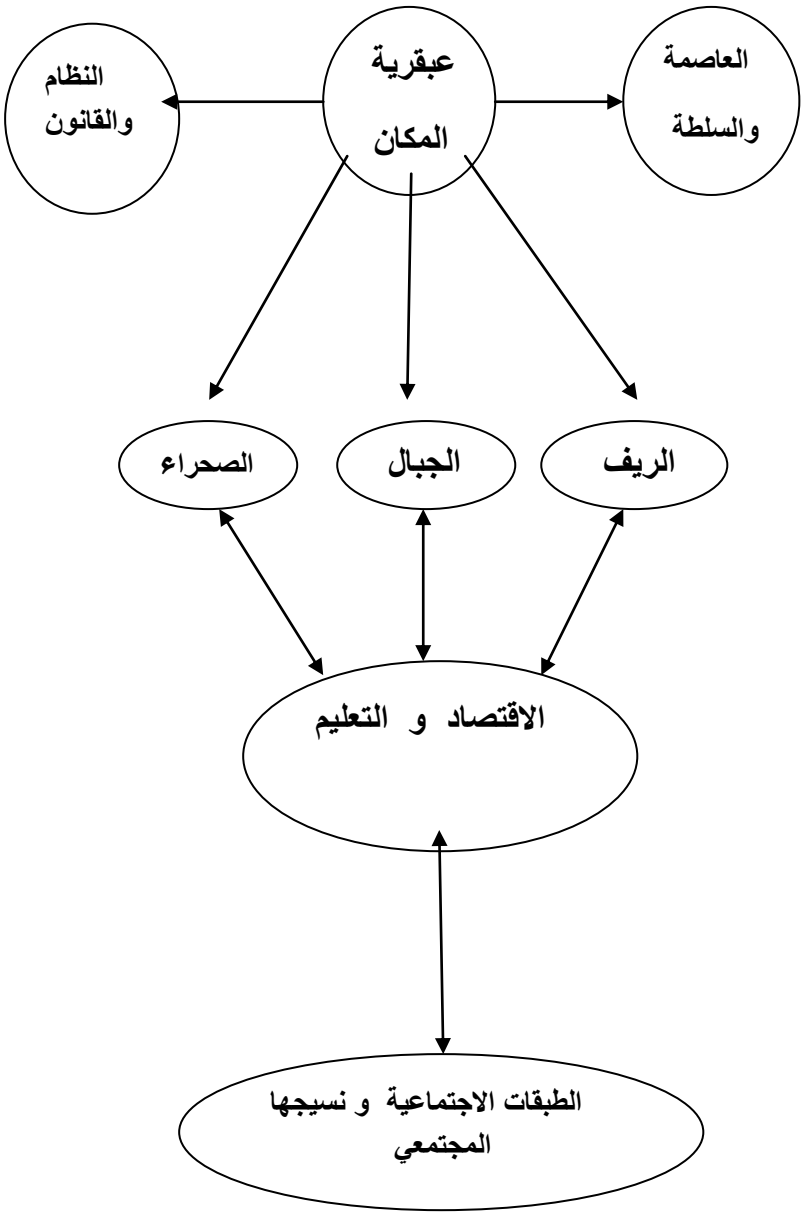

واقع مُعاش :

التشخيص الحر عندما ينطلق من عقل يحب وطنه وشعبه , غالبا مايكون تشخيصا نابعا من بنية المعاناة التي يعيشها مع مجتمعه , ويتحسس الدمار الهائل من تفليش الدولة والمجتمع بشكل ممنهج ومبرمج. يساهم فيه اهله وابنائه الذين لايمتلكون رؤيا لمصالح العامة بل لمصالحهم الفئوية والمذهبية , والعرقية . وغالبا مايقعون في مستنقع البؤ ر الظلامية التي تفلش مجتمعها وتحتفل في تجريفه , وتعتبره انتصارا وتنشد له احلى الالحان الغنائية, لتجيش سذج العواطف المنفعلة بحماس كاذب لايتعدى التقهقر والانكسار الذي شهدته امتنا العربية , وبمقدمتها العراق الذي كان نموذجا لطفرة متقدمة في مختلف المجالات العلمية والاجتماعية والصحية . لكنه سرعان ما اصبح صرحا من خيال فهوى .

ان اهم الاسباب التي يمكن تشخيص بعضها , يصعب جمعها في كتاب او مجلد , تتعدى الواقع العراقي المتضاد والمتحاجج , والمتعالي, والمزدوج في تعاملاته , لا يعترف انه قد اصبح مغلوبا . وعليه ان يغادر ساحات الغالب لكي يبني واقعا متغيرا يحتاج الى ثورة من عروق ظلم المفاهيم التي اكتسبناها من التربية الاستبدادية منذ النشاءة , اي بيئة المدرسة , وغلق اسوارها باقفال يصعب فتحها . ترافقها عصا المعلم وهيمنة الدارة التي تحرم على الطالب الاقتراب منها , كونها جزء من اسوا ر الاستبداد التعليمي . الذي عليك ان تتقبله رغما عن كل مايحدث من تغيرات وتطورات , معصرنة, في المجتمعات الاخرى.

ومن التربية الاجتماعية وذكورية السلطة حتى في تصاميم بيوت السكن هنالك امكنة تسمى بالبراني اي الخارجي . لعزل ضيوف الرجال عن ضيوف النساء. والعيب بيننا ونحن صغارا اصبح احد الاعراف الاجتماعية , بل اقترب من التشريع الديني في الحرام والحلال . في ان تلعب لعبة الاناث ولايسمح لهن بلعبة الذكور. او حتى اللعب سوية مع بنات الحارة وانت طفل لاتميز بين الفروقات العضوية.

فتكونت لدينا من البيئة التي عشناها هويات اكتسبناها رغما عنا . واولها جنوسة الدماغ التي هي هويتك الذكورية او الانثوية التي تحرم الخلط بينهما . اينما تذهب احمل هويتك الذكورية في البيت على الاخوات اولا , يساعدك الاباء بانك ولي الامر بعد الاب.

اما محددات واصول العشيرة ورجل الدين فهي الاخرى لاتخضع لارادتك اينما تكون , وكيفما تكون . الطاعة والاحترام وتنفيذ الاوامر بلا نقاش . هو المعيار الذي تكون فيه حسن الاخلاق وفي غاية الادب الرفيع . لكنك تستطيع ان تستفسر عن كيف الطريق الى تنفيذ ماهو مطلوب منك . وليس التعرف عن لماذا او مالسبب لذلك.

ومن هنا تاسست لدينا الثقافة المكتسبة من الجغرافية اي من المكان . هويتنا اي شخصيتنا التي هي كما مدون في البطاقة الشخصية للفرد :

اسمك واسم امك وابيك وديانتك وقوميتك مع طولك والعلامات الفارقة واللون . هي المكتسب البيئي من ثقافة المكان لبسناها رغما عنا. ومنها نشاء وعينا الاولي .

ثم جاءت الاحزاب الايديولوجية القومية منها والماركسية وبعدها الدينية . لتكون ساحات العراق من اوائل الدول العربية التي كانت مسرحا لهذه الاحزاب . التي اضافت انتماءات لما هو مكتسب سابقا . فتنافست فيما بينها لكسب جمهور يتقبلها كاحزاب بافكار بعضها مترجم من لغة اجنبية الى لغتنا , العربية , واخر تعليماته نصيه من الاعلى بتأويلات مختلفة ومتعددة. ورغم ذلك وجدت لها حواضن اجتماعية اغلبها من الفقراء والطبقات المتضررة التي تبحث عن ملاذ امن يخلصه , من المعاناة التي كانت تعيشها انذاك . ولاتخلو هذه الافكار من حواضن نخبوية مثقفة تلاقفت المستورد , والمؤول احاديا من النصوص . لتتبني الترويج كل حسب ما اقتنع فيه . وعندما نقول اقتنع فيه لايعني القناعات اليقينية , بل معظمها قناعات عاطفية لم تدخل العمق لسبب بسيط . لانها لم تكن قادرة على نقد ماهو موجود من ادبيات ايديولوجية , ذات نصوص لاتبتعد كثيرا عن تسيس النص لمصلحة السلطان الحاكم وفي الغالب يكون المستبد فردا او مجتمعاً في بيئة هيمنت عليها تعاليم المنافع الفردية.

اعطت هذه الاحزاب او التيارات تغيرات في بنية الفرد وشعوره باستقلاليته كونه سيكون مخلصا ومنقذا لمعاناة الجماهير . فا ختلط ما هو مكتسب من المكان من عادات وتقاليد وهويات ذكورية الى مفاهيم التساوي بين حقوق المرأءة والرجل . وشعارات التحرر من القيود الاجتماعية السائدة . ومعظم التنظيمات الحزبية كانت سرية وغير مجازة للعمل العلني . وهذ ما منحها صفة المعارضة والضدية من السلطات الحكومية والدولة بشكل عام. فتكونت لدى عامة الناس المنتمين منهم والمستقلون ,تعاطفا مع اعضاء هذه التنظيمات وليس مع فكرها الايديولوجي . لانهم لم يطلعوا وان قرؤوه فلن يفهموه بشكل واعي وعميق. لربما يقرؤن عناوينه وليس معاني مضامينه وهي من اهم معرقات الفهم الذي نعاني منها بشكل شائع ومزمن .

فتاسست فواصل عديدة بين الجماهير فيما بينها لاختلاف التوجهات العقائدية والسياسية , مما زاد في انتشار الهويات الفرعية . الحزبية , يسارية او قومية عروبية او قومية اخرى , او دينية بغطاء مذهبي. كل منها يحمل ارثا عشائريا مهما تغلف باغلفة العلمانية والليبرالية الشعاراتية. وهو الواقع الحقيقي والملموس الذي نخطف ثماره الان . وبات المواطن كل حسب انتمائه , يشعر بانه مهمش ومغترب في الدولة . التي فشلنا في انتاجها كدولة تحمي كل المواطنين , بغض النظر عن انتمائاتهم .

وما حدث من تغيرات في المنطقة قبل وبعد انتكاسة حزيران عام1967. ومن انقلابات عسكرية , ايدتها الجماهير لاسقاط الانظمة . الا ان ما نتج عن ذلك صراعات حزبية , وفوضى شعاراتية بين ماكان يسمى باليسار وبين التيارات العروبية والكردية.فتسيس كل شئ ليصبح جزءا من الحرب الباردة بين اقطابها . ونحن جزئها المفعول به والغير فاعل باحداثها . قلة الوعي وحماسة الولاءات , وفوضى المراهقات السياسية . فرز استقطابات بين دول المنطقة وشعوبها , وبات لايخدم جميع ماورثناه من المكتسب البيئي والحزبي . لان الوعي الزائف حل محل كل ماهو مفيد للوعي الجمعي او للعقل الجماعي . فكانت الجماهير تمتطي لمن يقودها , واصبحت اللادولة هو هدف عفوي لكل الاحزاب وسحبها لانقاذ الواقع المزري والمخيف . وكانت الثقافة

الساكنة هي التي نعتمدها في حياتنا اليومية . بل والمتخاصم بعضها مع ذاته التي هي في خندق واحد. وحمت نفسها واهية في أصغر الخنادق باعمق الحفر, معتقدة انه الملاذ الآمن البديل للدولة.

للمكان عبقرية في التأثير والتأثر على السلوك والعواطف وعلى مجمل العلاقات بين الافراد, اي للبيئة المكانية , الثقافة الجغرافية . منها تخلق صفات وعادات تصبح متأصلة في الفرد. بل تعتبر احد الجينات المكتسبة من المكان , ويمكن ان نقول انها جينات صنعتها الامكنة . يضاف على ماهو موروث من الاباء والاجداد . وسنتطرق عن ذلك بشكل موسع . ناخذ بنظر الاعتبار طبيعة المناخ والغذاء في التاثير على العواطف والامزجة والتعاملات بين السكان وبين الاخرين .

كل المدن الكبرى وعواصم البلدان انشئت من خلال توسع نشاط المدن الريفية وصيد الاسماك . فكانت الحاجة الماسة الى مواصلات ومخازن قرب منافذ المرافئ لتسويق المحصولات الزراعية الفائضة عن الحاجة.مما كانت الحاجة الماسة لوجود مصارف للتداول النقدي. اضافة لاهمية اكتمال التعاملات وفض النزاعات . تم ايجاد المحاكم والمحاماة لحل النزاعات,بشكل قانوني وحسب العقود والاتفاقات التي كانت هي الاخرى المنظمة للعمل التجاري والسوق . وبمرور الزمن وتوسع المحصولات الزراعية وصيد الاسماك , وتربية الثروة الحيوانية . اصبحت الحاجة ملحة لاقامة مشاريع لتصنيع المحصولات الزراعية والثروة الحيوانية . فكان توسع المدن والعواصم هو الملاذ الذي ينظم عمليا التعامل بشكل منسق ومنظم بين الريف والمدينة. فتكونت طبقات لعبت دورا مهما في عمليات النقل والتسويق وتجارة المواد وتصديرها . فكانت (الطبقات البورجوازية) التي امتلكت مايميزها عن بقية الطبقات الاخرى .

لابد لنا من الاشارة لاهمية الطبيعة الجغرافية وتاثير الغذاء والمناخ على السلوك والعواطف وغيرها من المؤثرات على الناس افرادا وجماعات متعايشة فيما بينها . كل حسب بيئته ومكانه . لما لذلك من انعكاساتها على النشاط الذهني . وما يخص تنوع الجغرافيا العراقية, بين السهول والوديان والجبال, والصحراء ومتون الانهر, والريف ذو الطبيعة الزراعية, وحياة الاهوار التي تميزها عن بقية الاماكن سكانا وجغرافيا.

ان مايخلخل التعاملات وانسجام المفاهيم , ويقلب موازين المدن او العواصم هي : المستبدل من البضائع والمحاصيل الزراعية والمنتجات الغذائية الوافدة من الريف . عندما تستبدل بهجرة المنتج اي الفلاح او المزارع الى المدينة او العاصمة ويشح الانتاج الزراعي نتيجة الهجرات المعاكسة. هي احد اهم الكوارث في عدم تجانس المفاهيم والثقافات . حتى ا لسياسة تمارسها عقلية متريفة برؤيا مختلفة تماما عن رؤى المدينية في اروقة الدولة والسلطة . فتختلط الاعراف مع التشريع . اضافة الى تعثر بل انحسار في مرتكزات الامن الغذائي . وهذا مايؤدي الى اختلافات عديدة بين السكان , بسبب تمايز ثقافة المكان , وتاثيره على السلوك العام والتصرفات السائدة بالمجتمع .

الثقافات وعلم الانثروبولوجي

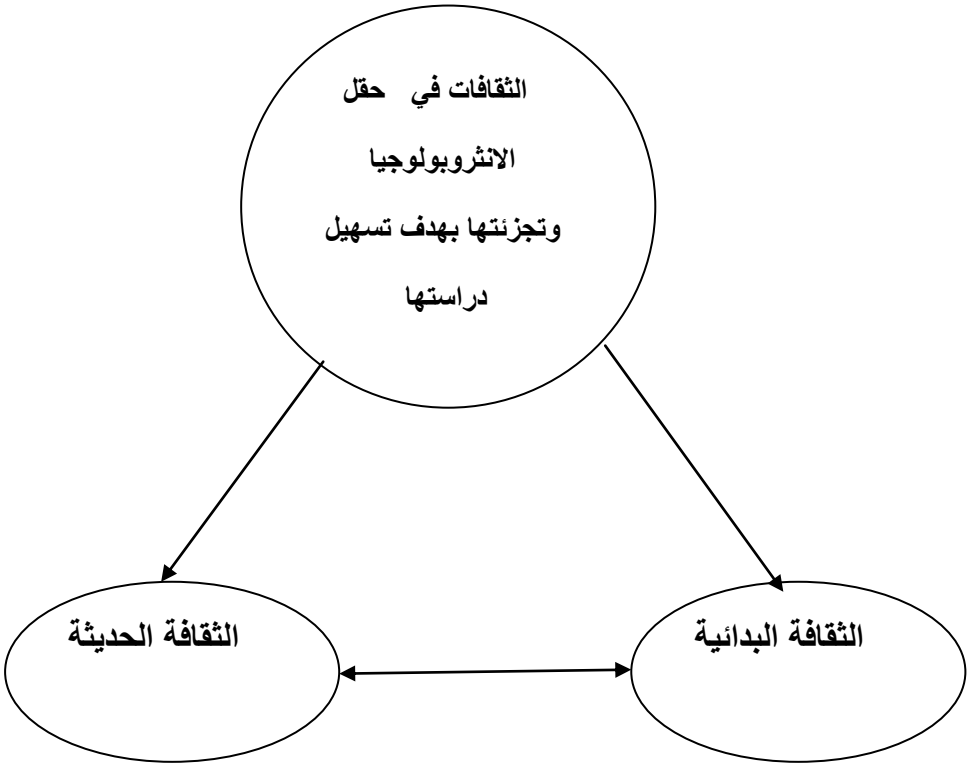

الثقافة الحديثة:

لها حواضن ووسائل التعقل والتجديد والتغير . متسامحة منفتحة على الثقافات الاخرى. هي علاقة بين علم النفس والانثروبولوجيا . ووضع حد واضح بين الثقافة والهيكلية الاجتماعية لتعطي علم الاجتماع انثروبولوجي , اي الانثروبولوجيا الاجتماعية . فهي معارف موضوعية كمادة خام للثقافة. لان الثقافة ممارسة حياة وممارسات فلسفية . وهي كموقف واتجاه وعواطف متزنة وعادات ومكان وتاريخ وموروث. وغالبا ما تتسع الثقافة الحديثة اي المتحركة , المتجددة , عندما يكون في المجتمع اقتصاد متحرك متنوع الموارد لا ريعي احادي . وتكون فيه الطبقة الوسطى والقطاع الخاص , هما صاحبا المصلحة في المنافسات النوعية والترويجية . فتنشط عمليات التاهيل البشري في رفع

القدرات والقابليات في مساحات متعددة اسميناها الثقافة المتحركة او ثقافة الوعي الناضج . .

الثقافة البدائية:

وحدة معقدة تشمل المعرفة والايمان والفن والاخلاق والقانون والعادات والتقاليد وبقية العادات الاخرى. تمتلك ثقافة التعالي , وهي ثقافة المجتمعات العشائرية والدينية . شيوع ثقافة العيب , وثقافة التسلط كثقافة ذكورية تتقمص الشخصية متباهية مغرورة اي السقوط اللاحق .هي ثقافة السكون الذي يعتمد التنميط في المدخلات والمخرجات الاقتصادية .

الفصل السابع

مجالات الانثروبولوجيا

تعريف الانثروبولوجيا:

ألانثروبولوجـــــيا هي علم دراسة الإنسان. وقد نحُتت الكلمة من كلمتين يونانيتين هما (8)

anthropo) ومعناها " الانسان" ، و (logos) ومعناها " علم

وعليهِ فأن المعنى اللفظي لإصطلاح ألانثروبولوجـــــــــــيا (anthropology) هو علمُ الإنسان.

وتعُرّف ألانثروبولوجـــــيا تعريفاتٌ عدة أشهرها:

1. علم الإنسان

2.علم الإنسان وأعماله وسلوكه.

3.علم الجماعات البشرية وسلوكها وإنتاجها.

4.علم الإنسان من حيث هو كائنٌ طبيعي وإجتماعي وحضاري.

5.علم الحضارات والمجتمعات البشرية.

هذهِ التعريفات هي لــ " الانثروبولوجيـــا العامّة"، ويمكن من خلال التعريف الرابع أن نعرفَ " ألانثروبولوجـــيا الإجتماعية " : بأنها علم الإنسان من حيث هو كائن إجتماعي.

تعريف اخر للانثروبولوجيا : هى علم دراسة الانسان واعماله ضمن النطاق البشرى وما طرأ عليه من تغيير او تطور نحو الافضل , سواء فى شخصيته او مظهره الخارجى , وذلك بتأثير الظروف الطبيعية والاجتماعية المحيطة به .

أهداف الأنثروبولوجيا :

استناداً إلى مفهوم الانثروبولوجيا وطبيعتها، فإنّ دراستها تحقّق مجموعة من الأهداف، يمكن حصرها في الأمور التالية:

1- وصف مظاهر الحياة البشرية والحضارية وصفاً دقيقاً.

2- تصنيف مظاهر الحياة البشرية والحضارية بعد دراستها دراسة واقعية، وذلك للوصول إلى أنماط إنسانية عامة، في سياق الترتيب التطوّري الحضاري العام للإنسان : (بدائي- زراعي- صناعي – معرفي – تكنولوجي... الخ)

3- تحديد أصول التغيّر الذي يحدث للإنسان، وأسباب هذا التغيّر وعملياته بدقّة علمية .. وذلك بالرجوع إلى التراث الإنساني وربطه بالحاضر من خلال المقارنة، وإيجاد عناصر التغيير المختلفة.

4- استنتاج المؤشّرات والتوقعّات لاتّجاه التغيير المحتمل، في الظواهر الإنسانية والحضارية .

5- دراسة البقايا المادية للانسان فى المجتمعات (علم الاثار)

6- التعرف على اللغة وتطوراتها والاختلافات فيها عبر الازمنة والامكنة (علم الانسان اللغوى)

7- مقارنة الشعوب والمجتمعات ببعضها البعض من اجل الوصول الى وحدة الجنس البشرى .

8- دراسة السلوك البشرى بشكل نظامى .

9- دراسة المجتمعات الانسانية كلها , وعلى المستويات الحضارية كافة .

أهمية الانثروبولوجيا :

إنّ اهتمام الأنثروبولوجيا بدراسة المجتمعات الإنسانية كلّها، وعلى المستويات الحضارية كافة، يعتبر منطلقاً أساسياً في فلسفة علم الأنثروبولوجيا وأهدافها. ولكن على الرغم من التوسّع في مجال الدراسات الأنثروبولوجية، فما زالت الاهتمامات التقليدية للأنثروبولوجيا، ولا سيّما وصف الثقافات وأسلوب حياة المجتمعات، ودراسة اللغات واللهجات المحلية وآثار ما قبل التاريخ، تؤكد ولا شك، تفرّد مجال الأنثروبولوجيا عمّا عداها من العلوم الأخرى، ولا سيّما علم الاجتماع.

ومن هنا كانت أهميّة الدراسات الأنثروبولوجية في تحديد صفات الكائنات البشرية، وإيجاد القواسم المشتركة فيما بينها، بعيداً عن التعصّب والأحكام المسبقة التي لا تستند إلى أية أصول علمية .
وإذا كان علم الأنثروبولوجيا، بدراساته المختلفة، قد استطاع أن ينجح في إثبات الكثير من الظواهر الخاصة بنشأة الإنسان وطبيعته، ومراحل تطوّره الثقافي / الحضاري، فإنّ أهمّ ما أثبته هو، أنّ الشعوب البشرية بأجناسها المتعدّدة، تتشابه إلى حدّ التطابق في طبيعتها الأساسية، ولا سيّما في النواحي العضوية والحيوية.

الاثنوجرافيا:

هي علم دراسة الشعوب دراسة وصفية. يهتمُّ هذا المساق بتطوير النظرة العالميَّة للطالب، ويوفِّر له

المعلومات الوصفيَّة عن كثير من ثقافات الشعوب في قارَّات العالم، مبينًا طرز حياتها، ونظمها الاقتصاديَّة، والقرابيَّة، والدينيَّة، والسياسيَّة، والتربويَّة، وفنونها وآدابها. كما يبيِّن الفوائد النظريَّة والتطبيقيَّة التي توفِّرها البحوث الإثنوغرافيَّة في توفير المعلومات الوصفيَّة المقارنة، وفي الكشف عن النسبيَّة الثقافيَّة.

الاثنولوجيا:

هى العلم الذى يبحث فى السلالات التى تم جمعها , ثم يقارن بين مختلف الثقافات والمتناقضات , ووضع الثوابت الثقافية وصياغة التعميمات عن الطبيعة البشرية .وهى علم تأريخ الحضارات والعلاقات الحضارية بين الشعوب وتصنيف الحضارات وتوزيعها وانتشارها فى العالم .

الانثروبولوجيا اللغوية:

يوضِّح هذا المساق اللغة كأداة اتِّصال وتفاهم وبعض قوانينها الصوتيَّة والنحويَّة، وعلاقتها بالثقافة وبالحياة الاجتماعيَّة. إضافة إلى الكشف عن ارتباط اللغة بالفكر والمعايير والقيم الاجتماعيَّة ودورها في مجال الرموز والإشارات. فضلاً عن استخدامها في الكشف عن العلاقات التاريخيَّة للأمم والشعوب.

الآركيولوجيا(علم الاثار):

وهي الدراسة الاثنولوجية والاثنوغرافية لحضارات شعوب بائدة من الآثار التي يجدها العلماء في الحفريات، واقتنى مصطلح علم الآثار عدة استخدامات في اللغات الأوروبية الاركيولوجيا Archaeologyالتي تعني دراسة القدم في أصلها الإغريقي القديم. الشيء نفسه بالنسبة لكلمة آثار في اللغة العربية بحيث لا يختلف معناها عن كلمة تاريخ في معناها الواسع بحسبانه دراسة ماضي الإنسان. لكنه منذ القرن التاسع عشر استخدمت كلمة اركيولوجيا بمعنى علم الآثار لوصف ميدان دراسة الأشياء العتيقة. بمعنى آخر فإنها تعني دراسة البيئة المادية الدالة على ماضي الإنسان والتي تشمل الموضوعات التي يمكن رؤيتها وتحسسها وقياسها وتصنيفها.

وتتناول بالدراسة اقدم المجتمعات الانسانية منذ ظهور الانسان العاقل ويبحث فى مختلف المراحل التطورية لثقافة الانسان حيث تحدد معالم تفكير الانسان الاول ويدرس مخلفاته ويتتبع هذه المخلفات والبقايا ويدرس تطورها من حالاتها البدائية الاولى الى حالتها الراقية فى بداية العصر التاريخى حيث اكتشف الانسان الكتابة وتوصل الى حضارة اللغة وعبر الانسان عن حضارته وثقافته تعبيرا لغويا باستخدام الكتابة .

التراث

مفهوم التراث : هو تراكم خبرة الانسان فى حواره مع الطبيعة وحوار الانسان مع الطبيعة يعنى التجربة المتبادلة بين الانسان ومحيطه .
التراث يعني كل مفهوم تاريخية الإنسان في تجارب ماضية، ويعيشه في حاضره، ويمهد من خلاله لمستقبله- أما التراث الحضاري، فهو وثيقة تاريخية وفنية، وجزء من التراث السياسي والروحي والرمزي، وهي حقيقة ثقافية.

الانتقاء : اختيار افضل العناصر من الاشياء من خلال عدد كبير منهم طبقا لمحددات معينة . على رأسها الذائقة الحسيّة التي تحدد سمات تلك الأشياء مراحل الانتقاء :
أ.مرحلة الانتقاء التمهيدى
ب. مرحلة الفحص والتعمق
ج.مرحلة التوجيه

الأنثروبولوجيا الثقافية:

تعرّف الأنثروبولوجيا الثقافية -بوجه عام - بأنّها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع لـه ثقافة معيّنة. وعلى هذا الإنسان أن يمارس سلوكاً يتوافق مع سلوك الأفراد في المجتمع (الجماعة) المحيط به، يتحلّى بقيمه وعاداته ويدين بنظامه ويتحدّث بلغة قومه.
ولذلك، فإنّ الأنثروبولوجيا الثقافية :هي ذلك العلم الذي يهتمّ بدراسة الثقافة الإنسانية، ويعنى بدراسة أساليب حياة الإنسان وسلوكاته النابعة من ثقافته. وهي تدرس الشعوب القديمة، كما تدرس الشعوب المعاصرة.
فالأنثروبولوجيا الثقافية إذن، تهدف إلى فهم الظاهرة الثقافية وتحديد عناصرها. كما تهدف إلى دراسة عمليات التغيير الثقافي والتمازج الثقافي، وتحديد الخصائص المتشابهة بين الثقافات، وتفسّر بالتالي المراحل التطوّرية لثقافة معيّنة في مجتمع معيّن .
ولهذا استطاع علماء الأنثروبولوجيا الثقافية أن ينجحوا في دراساتهم التي أجروها على حياة الإنسان، سواء ما اعتمد منها على التراث المكتوب للإنسان القديم وتحليل آثارها، أو ما كان منها يتعلّق بالإنسان المعاصر ضمن إطاره الاجتماعي المعاش.

الأنثروبولوجيا الاجتماعية :

وهو من أهم ميادين علم الأنثروبولوجيا , يدرس الجانب الاجتماعي للإنسان، بالوصف والتحليل :
المجتمع الإنسان القديم والمتطور من حيث بنائه الاجتماعي وخصائصه، ومكوناته، وعاداته وتقاليده .
يدرس نظمه الاجتماعية، كالنظام الأسري والتربوي والاقتصادي والسياسي .
يدرس الأمثال الشعبية والأفكار والمعتقدات والمعارف الشعبية كالطب الشعبي والأعياد والنذور...إلخ.

وهذا الميدان من العلم مرتبط بعلم الاجتماع. حيث طرح هذا المفهوم (الأنثروبولوجيا) الفيلسوف (أوجست كونت) وتلاميذه. حيث اقترحوا إنشاء علم جديد بهذا المسمى (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) وذلك لدراسة ظواهر الاجتماع الإنساني.

دور الانثروبولوجيا الاجتماعية :

يهتم فرع الانثروبولوجيا الاجتماعية بتحليل البناء الاجتماعى للمجتمعات الانسانية وخاصة المجتمعات البدائية التى يظهر فيها بوضوح تكامل ووحدة البناء الاجتماعى وهكذا يتركز اهتمام هذا الفرع بالقطاع الاجتماعى للثقافة ويتميز بالدراسة المركزة التفصيلية للبناء الاجتماعى وتوضيح الترابط والتأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية , ومعرفة طبيعة التكوين الطبيعى لسكان العالم ومميزاتهم الحضارية والعقلية .

الفصل الثامن

الدين والانثروبولوجيا

منذ بدء ظهور الاهتمامات المبكرة للأنثروبولوجيا بثقافات المجتمعات[9] ومحاولة فهم مدى الفروق والاختلاف بين ماضي المجتمعات وحاضرها أخذ السؤال حول كيف وكم تؤثر العقائد على تشكُّل الناس وفهمهم للطبيعة والعلاقات القائمة بينهم. ولعل النصوص الدينية ـ وبالذات في الكتاب المقدس بسبب إيرادها أوصافاً وتفاصيل عمّا كانت عليه حياة أسلاف الشعوب الحديثة في تصرفاتهم وأفعالهم الحياتية اليومية ـ ما دفع بعض المفكرين لطرح السؤال الآتي: هل مرّت البشرية بتحولات لتصبح على ما هي عليه اليوم؟ ونظراً إلى شيوع مفهوم التطورية تولد الفضول المبكر المفضي إلى إثارة أسئلة حول كيف كان يعتقد أو يفسر الإنسان في الماضي علاقاته بالطبيعة وسعيه للإجابة عن الأسئلة المصيرية الكبرى؟

ولمّا بدأ الإنسان في تحقيق شيء من القدرة على التحرك من موطنه إلى أماكن موغلة في البُعد، وكذلك للتعرف على شعوب مختلفة جداً وربما ـمن منظور تطوري- تنتمي إلى مراحل تاريخية قديمة جداً، طرأت فكرة أنه عند تأمل ودراسة هؤلاء الأقوام ربما كان بإمكاننا تتبع ما كان عليه أسلافنا في مراحل تاريخية قديمة. ولقد ساعدت تجارب الرحالة المستكشفين على تراكم بيانات ووصف جوانب من حياة وعادات وتقاليد هذه الشعوب، وعند مقارنتها مع بعض البقايا السلوكية التي جمعها باحثون محليون عن العادات والتقاليد التي لا تزال آثارها باقية في حيوات أفراد مجتمعاتهم وبالذات في الأرياف وبعض أفراد المجتمع ممّا يتعارض أحياناً مع مستوى التطور الذي حققه المجتمع الحديث، فجر ذلك فكرة أن دراسة المجتمعات المتوحشة التي لم تتطور ـكما تطورت المجتمعات الأوروبيةـ يمكن من خلال ذلك فهم ما كان عليه أسلافهم، فهذه الشعوب والثقافات يمكن اعتبارها نسخة مجمدة لما كانت عليه حالة الأسلاف. وأصبح المطلوب هو دراسة وفهم الحالات الأكثر بساطة وبدائية، حتى تكون المادة الأولية لتتبع مسار تطور مفهوم البشرية بخصوص الدين انطلاقاً من أفكار كانت سائدة حول وحدة النفس البشرية من حيث الأصل

وعلى الرغم من أن العديد من المفكرين وأوائل الباحثين الأنثروبولوجيين، سعوا لاكتشاف مجموعات إنسانية ليست لديها أية مفاهيم أو أفكار تنمّ عن غياب أي تصورات دينية إلا أن ذلك لم يتحقق؛ أي أن المجتمعات البسيطة الأولية التي تعرَّف عليها المفكرون الأوائل من أصحاب الفضول المعرفي الأنثروبولوجي، وجدوا أن مفهوم الإيمان بقوى فوق طبيعية ووجود تصورات ميثالوجية حول خلق الكون كانت موجودة بصورة أو بأخرى في كل المجتمعات البشرية، حتى أكثرها بساطة وبدائية، مثلما كانت عليه الحال في قارة أستراليا التي تعرَّف المستكشفون على سكانها الأصليين الذين كانوا يعيشون حياة بسيطة جداً، ربما كانت الأكثر بساطة وبدائية بين معظم السكان الأصليين الذين تمّ التعرف عليهم، ولذا اقتضى ذلك أن تزداد كمية التقارير والكتابات التي أعدّها المستكشفون والرحالة.

وهذه الأدبيات الفردية الانطباع، شكلت الرصيد الوصفي الأول كمادة وبيانات "علمية" للعديد من الدارسين، لما يمكن أن يسمى بأنثروبولوجيا الكراسي الوثيرة لعلماء "تخصَّصوا" في تتبع ودراسة الظواهر الفلكلورية أولاً في حياة مجتمعاتهم، ولاحقاً في محاولةٍ لدراسة ما كان آخذاً في التراكم والتوسع مع ملاحظات وتقارير الرحالة والمستشكفين في محاولة -عند القيام بالمقارنات فيما تراكم من كتابات- للخروج بتصورات نظرية عامة.

من هذه الملاحظات العامة، أخذت تتبلور تفسيرات وشروح واصفة لما كان عليه سلوك هؤلاء السكان الأصليين، وسعي حثيث لتفسير وتأويل الكيفية التي فكر بها هؤلاء لتبرير تصرفاتهم الحياتية واليومية، ولماذا نجد أحياناً بعض بقايا أمثال هذه التصرفات في حياتنا ومفاهيمنا، رغم التطور الذي مرّت به مجتمعاتنا؛ أي أننا نجد بعض البقايا الدفينة في تصوراتنا وسلوكنا الشعبي، وبالذات الريفي ممّا قد يصدق عليه إطلاق بعض هذه المفردات التي تمّ اشتقاقها - كما سنوضح عاجلاً - في بقايا لاوعينا الثقافي والفكري.

في هذا الخصوص مدّتنا هذه الثقافات والمجتمعات بترسانة من المصطلحات/ المفاهيم دخلت في سياق تفكيرنا، وأصبحت جزءاً من خزان المفاهيم المفتاحية في دراسة أثر الدين والأفكار في حياتنا، وبطبيعة الحال حياة تلك المجتمعات. وكانت هذه المفردات ربما أنها أخذت بلفظها -أحياناً بشكل متدرِّج- من لغات تلك الشعوب.

وتشمل بعض أهم هذه المفردات مفردات تفسيرية من مثل "الفتشة" أو ما يوازي عندنا الحجاب، وهي نوع من مادة دينية محسوسة تُستخدم، لدرء الأضرار أو الشرور التي قد تهجم على الإنسان، واستخدام الفتشة قد يحمي الإنسان من هذه الأضرار والشرور. ويؤمن الإنسان الأولي بمفهوم "المائة"، وهو ما يمكن أن يقابل مفهوم "البركة" الغامض الذي يبشِّر بحدوث أفعال جالبة للخير بسبب أفعال أو تصرفات أشخاص أو أشياء تحمل نوعاً من القداسة أو ميزات خاصة في جوهر ذاتها. وهناك شخص له مواهب روحية خارقة لما هو طبيعي يسمى "الشامان"، أو ما يقابل في ثقافتنا الولي الصالح الذي يملك مواهب غير طبيعية، من شأنها أن تساعد من حوله برفع الضرر أو خلق الظروف التي من شأنها جلب المصالح والخير لهم. والشامان لديه قدرات في إدارة الطقوس الجماعية التي تُعقد في مواعيد وأماكن معينة، والتي تساعد على تآلف وإراحة المجتمع المحلي الذي يعيش بين ظهرانيه، والشامان يملك من الخبرات ما يمكِّنه من إدارة حفلات راقصة تُصاحبها الموسيقى، أو خلق أجواء من شأنها إحداث نشوة روحية قد تؤدي بالبعض إلى نشوة نفسية تدفع بعض المشاركين، لدخول حالة نشوة نفسية تفصلهم مؤقتاً عن الواقع المعيش، لتسبِّب لهم نوعاً من الراحة النفسية من أعباء متطلبات الحياة اليومية الشاقة، وإدخال نوع من السرور والاسترخاء، في مثل ما يُعرف بالحضرة أو الزار أو الدخلة عند بعض أنواع الصوفية ويعيش المجتمع البدائي البسيط -حتى يتوحد في طقوسه .الشعبية، كالعيساوية أو الرفاعية ونحو ذلك واحتفالاته- تحت تأثير مفهومين آخرين أخذا معاني مختلفة، لكن في الأساس كان مفهوم تابو يعني المحذور الذي عند الإساءة إليه أو الامتناع عن عمله أو أكله، يمكن أن يؤدي إلى أضرار تلحق بمن فَعَل ذلك، ممّا ساعد على ترسيخ وجود ضوابط اجتماعية تحمي وحدة ذلك المجتمع وتساعده على تجانسه ووحدته، وهنا يبرز المفهوم الآخر المسمى الطوطم أو المشترك الموحّد قرابة وحياة بين أفراد المجتمع (في إحدى معانيه). ولعبت الأساطير المؤسسة وبالذات أساطير الخلق وتشكُّل الكون والعالم في حياة الإنسانية دوراً كبيراً.

لعبت مجموعة المفاهيم التي جئنا على ذكر بعضها في بداية تشكيل وحدات أساسية لفهم الظاهرة الدينية أو الاعتقادية في المجتمعات البسيطة، بل أصبحت وحدات أولية، سعى بعض المفكرين، ومنهم فرويد ومدرسة التحليل النفسي إلى استعمالها، باعتبارها تعكس الوحدات الأساسية المشكِّلة لنفسية وعقلية الإنسان، وهي لا تزال واضحة قوية التأثير على عقلية الإنسان البسيط الأولي، ومن هنا بدأ بعض أوائل دارسي الفلكلور أو علماء الأنثروبولوجيا غير الميدانية في سعيهم لتقديم تصورات تخمينية

للمقارنة والخروج بتصوّرات عامة عن مفاهيم الدين وعلاقتها بالمجتمع وبحياة الإنسان. وكان في ذلك بعض الافتراضات "العلمية" الكبرى السائدة، لعلّ من أهمها النظريات التطورية القائلة بأنّ الحضارة الإنسانية مرَّت وتمر بمراحل تطورية من أبرزها: البدائية والهمجية، فالبربرية ثمّ التطور إلى الفلسفة والتأمل، ثم بعد ذلك الانتقال إلى التطور القائم على العلم والصرامة في العقلانية والابتعاد عن التصورات والمعتقدات الدينية البسيطة.

بعد انتقال مجموعات "المفاهيم" السابقة بحسب صياغاتها في لغات الشعوب "البدائية" المدروسة، أصبح أمراً ملحاً تفسيرها ومقارنة إمكانية, استخدامها لتفسير ما أورد الرحالة والمستكشفون في بيئات أخرى آسيوية أو أفريقية، بالإضافة إلى استخدامها لتفسير بعض السلوكيات والطقوس التي لا تزال باقية في المجتمعات الأوروبية الحديثة بحسب ما توصَّل إليه جامعو الحكايات والمواد الفلكلورية.

وهنا مع عدم وجود فئة الأنثروبولوجيين الميدانيين ووجود ما عرف بأنثروبولوجيي الكراسي الوثيرة - نقلة" نوعية "نلاحظ تعدُّد التفسيرات والتنظيرات وتضارب انتقادات الدارسين فيما بينهم، ممّا أحدث في ظهور نظريات عديدة. ولعلّ من المستحسن أن نتوقف عند أبرز هذه النظريات التي لا يزال لبعضها أصداء حتى يومنا هذا، رغم تجاوز العديد منها. كانت أولى هذه الاهتمامات قد انطلقت من خلال دراسة الدين، ومدى تأثير اللغة والتعبير عن العديد من الظواهر في اللغة. وهنا تبرز جهود فريدريك ماكس مولر فلقد سعى لتسخير علم اللغة المقارن من أجل جلاء الغموض الذي يكتنف بعض نواحي الميثولوجيا، ولقد انتهى في دراساته إلى أن اللغة كانت سبباً في هذا الغموض بسبب الترادف والاشتراك اللفظي، وغير ذلك من أمراض لغوية، وقد أدّى هذا الفساد في اللغة إلى بلبلة الأفكار، وسوء التعبير عن المعاني الأصلية التي كان يرغب في توصيلها، وكان لذلك الأثر العميق في النصوص الدينية، ومن ثم عند محاولة فهمها ودراستها يتوجب على الباحث الدراية بهذا الفساد اللساني والعمل على تقويمه لفهم النصوص، ولقد تسبَّبت أبحاث وآراء مولر في فهم ودراسة الظاهرة الدينية في الفكر الحديث.

ظهر في أواخر القرن التاسع عشر إدوارد تايلور وكان من أنصار نظرية التطور، وكان يرى أن الحضارات أو السلالات البشرية تمرّ بمراحل متتالية من التطور هي: الوحشية وتليها الهمجية، وأخيراً المرحلة المدنية أو الحضارية. ولقد كرس مولر جهوده البحثية في دراسته للميثولوجيا والفلكلور من أجل بناء نظرية لتطور الجنس البشري. ونادى بمفهوم وحدة النفس أو العقل البشري؛ بمعنى أن الطبيعة الإنسانية متشابهة في الأساس، ومردّ الاختلافات بين المجتمعات البشرية يعود إلى المرحلة التطورية التي بلغتها، ونظراً إلى أن كل مرحلة من مراحل التطور تفرز خصائص المرحلة، وهي ستتغير مع تطور ذلك المجتمع. ومن أهم وسائل التغير أو التطور الاستعارة أو انتشار أساليب التفكير والاعتقاد بين المجتمعات؛ فلدى البشر القابلية للتطور وقبول الأفكار الجديدة التي تساعدهم للانتقال من طور إلى طور.

ولهذا كان مولر، يرى أن الدين هو الاعتقاد بوجود الروح أو النفس، وهي تسمى بالنظرية الروحانية، إذ تقوم على مبدأين؛ الأول هو الاعتقاد بأن أرواح الأفراد لا تتلاشى بموتهم، وإنما تنفصل عن أجسادهم وتبقى على قيد الحياة. أما المبدأ الآخر، فإنه يتعلق بوجود أرواح علوية يؤلِّهها البشر، ومن هذه المنطلقات بنى تصوراً ميسراً على أساسه ما يمكن وصفه بالدين في المجتمعات البشرية البسيطة.

ولقد دفعته نظريته إلى الحديث عن أمرين مرتبطين بالجسد هما الروح والخيال. فالروح تمنح الجسد الحياة والقدرة على الشعور والإحساس والتفكير والحركة، وهي عندما تفارق الجسد في حالة الموت أو النوم أو الغيبوبة؛ فإنها تبقى -مع عدم إدراكنا ذلك- في نظر الإنسان الأولي ذات وجود مادي، ممّا يجعل الإنسان الأول يتصوّر أن للروح حياة خاصة مستقلة بذاتها، وهي التي تزوره في أحلامه، وهي المولِّد الأساس للرؤى المشكلة للظاهرة الدينية.

إذن، نقلنا تايلور بعيداً عن تصورات مولر عن فساد اللغة، ليربطنا بحياة الناس في وجودهم اليومي المعيش، وربط من طريق ذلك معبراً عن الحياة الدنيا والحياة الأثيرية الأخروية، مما قد يومئ بأن فكرة التناسخ كانت جزءاً من فكر الإنسان الأول إلى مركب معتقد من المعتقدات حول انتقالات الروح، ليتطور لاحقاً إلى الإيمان بالبعث والحساب. ومن منظور تايلور يفسر تعدّد الطقوس الدينية التي تأخذ في التبلور والتمايز في مراحل متقدمة من التطور البشري بعد أن يصل التنظيم الاجتماعي إلى مرحلة تكون فيها الطبقية وفرز أفراد المجتمع في شكل مراتب اجتماعية وسياسية، مما يدفع إلى ظهور المؤسسات الاجتماعية في شكل متقدِّم، يمكّن من تحويل الطقوس الدينية التي هي في الأساس نتاج اجتماعي يعكس التفاعلات والعلاقات الاجتماعية للبشر ويأخذ أشكالاً في شكل علاقة المسود بالسيد أو أشكالاً مختلفة للزبونية.

وما الدعاء أو الرجاء أو التوسل سوى أشكال اجتماعية دوافعها الخوف من العقاب والأمل في الثواب، بعد هذه المرحلة من التطور تشهد المجتمعات البشرية ظهور أماكن العبادة والتقديس، ومعها يظهر مفهوم القربان الذي يتحوّل مع الوقت إلى رمز للتعبير عن الولاء والتبعية والامتنان والشكر؛ وفي هذه المرحلة من التطور، يبدأ ظهور السلطة السياسية والطبقية التي تتداخل مع ما هو "ديني". وهنا يُدخلنا تايلور إلى كيفية تطور الفكر الديني إلى أن يكون عاكساً ليس فقط لعلاقة الإنسان بالطبيعة، وإنما علاقات البشر ببعضهم بعضاً من خلال علاقة السلطة والمصالح، وهذه المرحلة تعدّ بداية الانتقال من مرحلة تعدُّد الآلهة إلى مرحلة التوحيد، والتي ربما تؤكد على ضرورة تكريس علاقات السلطة في قوى اجتماعية سياسية محورية.

ويُرجع تايلور تضعضع العقائد الدينية مع مرور الوقت وضعف مؤسساتها إلى طبيعة الدين المحافِظة، حيث لم يعُد القائمون على الشأن الديني بمقدورهم اللحاق بمستجدات العصر والتكيف معها بالسرعة الكافية أو المناسبة، حيث يعودون غير قادرين على تلبية الحاجات العاطفية أو الذهنية للناس، مما يقتضي تفسيرات جديدة بناء على المرحلة التطورية التي يعيشها الناس.

ولقد لقيت أفكار تايلور قبولاً ونقداً واسعاً في الأوساط الأكاديمية، لكن مع ذلك كان لأفكاره أثرها العظيم على ما دار من أفكار مكّنت من إعادة تفسير الكثير من مواد المأثور الشعبي التي نجدها متناثرة في ممارسات وأفكار الطبقات الدنيا في المجتمعات الأوروبية، وبالذات بين فقراء المدن وساكني الريف.

وكانت أستراليا وما جرى فيها من دراسات، تشكِّل المهاد الأساس لدراسة الديانات في أشكالها البسيطة والأولية، وهي التي مدّت الفكر الأنثروبولوجي بمفهوم الطوطمية الذي أدى دوراً محورياً في تلك الدراسات حتى عقود. ولعلّ ما تناوله دوركايم في كتابه المعنون :الأشكال الأولية للحياة الدينية أكبر الأثر على الدراسات الحديثة عن الدين. إنّ مفهوم الطوطمية قد خلق موجة معقّدة دعائية من الجدل والنقاش ربما أدى إلى مزيد من ضبابية المفهوم وعسر هضم منهجية، حتى عقود ماضية قليلة عند ليفي شتراوس وسواه، وهي مرحلة عنوانها أن الدين والتصورات الدينية عبارة عن نتاج تمثيل للمجتمع نفسه في شكل آلهة ومفاهيم مثالية، ولقد أثّر مفهوم الطوطمية أنثروبولوجياً في تفسيره، وفي تطوير نظريات عديدة عن النسق القرابي والتنظيم الاجتماعي.

وقد استخدم مفهوم الطوطمية لتفسير العديد من الظواهر الاجتماعية والنفسية ليس فقط في المجتمعات الأولية، وإنما أيضاً في تفسير الكثير من الظواهر النفسية في العالم الحديث. وكتاب فرويد المعنون الطوطمية يفسر العديد من ردود الفعل الاجتماعية اللاواعية على أساس هذا المفهوم.

وفي هذا السياق، يبرز تأثير فريز صاحب الغصن الذهبي، والذي من خلال جمعه وتبويبه للأساطير في العالم، كان له عظيم التأثير على أفكار المشتغلين في الدراسات الأنثروبولوجية والفلكلورية، وصديقه وزميله ويليام رابرتسون سميث الذي كان رائداً مهماً في دراسته حول الطوطمية في سياق دراساته عن

الدين، وكذلك دراساته عن الزواج والأسرة فيها، ويعدّ كتابه من أهم الدراسات :الجزيرة العربية لدراسته حالة الساميين (العرب) الأثر الكبير في دراسة الدين من الناحية -العميقة، وكان -وربما لا يزال الأنثروبولوجية بعيداً عن التفسيرات اللاهوتية التقليدية. وفي دراساته، برز الاهتمام بالشعائر والقرابين والطوطم (طوطم القبيلة) كإشارة جامعة للقرابة وظهور إله العشيرة مع الزراعة أو الرعي.

لقد قادت دراسات سميث وفريز، إلى الانتقال من التشكلات الاجتماعية إلى تشكل الأساطير المشكلة لتفسيرات أوسع وأعمق لخلق الكون ومصدر الحياة، انطلاقاً من التطور المعرفي والعلمي الذي توصل إليه البشر.

ولقد تلا ذلك تحوُّل مهم آخر من الأساطير الكونية إلى إعادة النظر والتقييم لتطورات المفاهيم عن المجتمع وتشكل العقل الجمعي أو الضمير الكلي بعيداً عمّا كانت تفسّر به الأمم الأولية أو البدائية وعيها بنفسها وبمجتمعها؛ أي أن الدراسات بدأت تنتقل وتتحول من سعي لفهم وتفسير كيف كان البدائي يفسر عالمه إلى التأسيس لوعي وفكر يعمل على تفسير ما تحوّل إليه فكر ووعي الإنسان بما يقوم به من خلال الدين؛ فهو يخلق عالمه الديني من خلال تمركزه واهتمامه بذاته، ليصل إلى نظريات تقول بأن الدين نتاج لتصورات ومفاهيم اجتماعية ثقافية، وليس نتاج فكر فوق بشري. وفي المراحل المتقدمة من محاولات تفسير الدين كانت التحولات هي من الطوطمة إلى علم النفس وبعدها علم الاجتماع، بداية على يد فرويد في كتابة الطوطمية والتابو، ثم التحول إلى علم الاجتماع من النقاشات التي كان فارسها دوركايم وغيره من الأنثروبولوجيين، والدراسات النقدية للمسيحية واليهودية لدى فرويد لليهودية وفيورباخ للمسيحية.

وعند وصولنا إلى هذه المراحل شقت الدراسات الميدانية الأنثروبولوجية الدراسة لتلك المجتمعات، والتي تمكنت من تطوير مناهج ونظريات "علمية" منهجية دقيقة عوضاً عن الاعتماد على ملاحظات من رحالة ومستكشفين، ممّا استدعى رؤية جديدة أكثر عمقاً واتساقاً وتواصلاً مع المجتمعات والثقافات المدروسة. وأصبحت الدراسة أكثر تحديداً وتخصيصاً على مجتمع محدد أو ثقافة ما. ولم تتوقف هذه الدراسات الميدانية للإجابة عن أسئلة البدايات والأصول أو التعميمات الكونية العامة، وإنما أصبحت أكثر تحديداً ودقة، وتداخلت الدراسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بمفهوم الدين أو الحياة على دراسة المجتمعات والثقافات القديمة، -الدينية. كذلك لم تتوقف هذه الدراسات -في العقود المتأخرة وإنما أخذت في دراسة الظاهرة الدينية في سياق أوسع، بما في ذلك دراستها في إطار المجتمعات الحديثة أو القائمة، بل وحتى مع تطبيق هذه الدراسات على الأديان العالمية الكبرى في العالم من إسلام ومسيحية وهندوسية وبوذية ونحو ذلك.

ونظراً إلى أن هذه الدراسات لم تغلق نفسها عن نتاج المفاهيم والتصورات التي كانت سائدة في الحقل في دراسات مرحلة ما قبل الدراسات الميدانية الاحترافية، فإننا سنركز على نماذج من هذه الدراسات التي تمت عن المجتمعات الإسلامية بصورة مقتضبة -قد تكون مخلّة- لكن القصد توضيح مدى الغنى والتنوع في الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة، وكيف يمكن أن تساعدنا على فهم ما تقدمه الأنثروبولوجيا في فهمنا لدور الدين وتأثيره في حياتنا اليوم.

ولعلّ تقديمنا لصور من هذه الدراسات، بدءاً من تلك التي سعت لتقديم تصور شامل، إلى الدراسات التي ركزت على جانب من تأثير الدين في الثقافة والحياة الاجتماعية والحياة العامة المجتمعية، وأيضاً لعلّ له دوره وأساليب انتشاره في :دراسة بعض الوسائل والكيفيات التي يتشكّل من خلالها الفكر الديني الحياة العامة.

ومن نافلة القول الحديث عن مدى تأثير كلّ من جيرتس وجيلنر وتلاميذهم في دراسة دور وأثر الدين في حياة المجتمع المسلم اليوم؛ فلقد قام جيرتس بالعديد من الدراسات الميدانية والنظرية عن المجتمعات المسلمة وخصوصاً في كلّ من أندونيسيا والمغرب. فلقد درس في أندونيسيا مثلاً في كتابه دين جاوة ما يُعرف بالباطنية الجاوية وأثر العادات وبالذات ذات الأصول الهندوسية في بلورة صورة من إسلام تلفيقي مركّب يُشكّل مفهوم الإسلام في أندونيسيا وتحديداً في جزيرة جاوة. ولقد قارن جيرتس في كتابه المهم للإسلام ملاحظاً القيام بمقارنة لمفهوم الإسلام في كلٍّ من المغرب وأندونيسيا من خلال تقديم تصور لنماذج مثالية جعلها في شكل نائب محمد الخامس -الحسن اليوسي، وسوكارنو- كالجيكا وعلى أساس هذه النماذج المثالية حاول أن يوسِّع من فكرة كيف تأسست صورة القائد/ السياسي في مقابل القائد/ الروحي وكيف تمكَّن القائدان محمد الخامس وسكارنو من خلق صورة حديثة لقائد سياسي يحمل كاريزما روحية بحسب السياقات الثقافية المختلفة بين البلدين. إضافة إلى استفاضة استخدام جيرتس لسير وفهم كيف تحوّل تفسير النصوص إلى واقع سياسي واجتماعي حديث، مستفيداً من كافة المفاهيم التحليلية حول المغرب خصوصاً في مفاهيم، مثل: المخزن، وبلاد السبيبة والمخزن، والمغرب المفيد وغير المفيد، وكيف أن هذه المفاهيم الفرنسية الاستعمارية بلورت النموذج المثال للفكر السياسي والحزبي في المغرب. بينما تقليد الأولياء الذين أسَّسوا لدخول الإسلام إلى أندونيسيا في وجدانهم وجذبهم الصوفي وباطنهم أدى إلى ظهور مفهوم الباشسيلا، ومن ثم الإسلام الأندونيسي الباطني النزعة القادر على التعايش مع أفكار مركبة ملفقة الترابط.

ولقد أسهم جيرتس في استعراض مسألة كيفية إعادة تفسير النص الديني المتسامي في شكل تفسيرات أيديولوجيا تبريرية لمظاهر مفهوم الإسلام في البلدين انطلاقاً من واقعها الثقافي وليس انطلاقاً من معاني أزلية نصّية كما يدّعي في الوهلة الأولى. وتظهر تفاصيل رؤية جيرتس للإسلام المغربي في مشروع دراسة صفرو التي ظهرت في كتابه المعنون المعنى والنظام في المغرب، والتي جعل محوريتها في البازار وانتهائه، باعتباره المفتاح لفهم التبادل والعلاقات المدنية بين أفراد المجتمع المغربي. وكان لاستخدام جيرتس منهجية الفهم الظاهراني أثر عظيم في تشكيل مدرسة تعدَّدت دراستها وتناولها لمظاهر وانعكاسات الدين في ثقافة وحياة المجتمع المغربي. فهؤلاء تلاميذ درسوا الطرائق الصوفية، وتحديداً التوجهات الشعبية العجائبية ذاتها من مثل العيساوية في دراسات كارينزانو وغيره من دراسات تناول البركة وطقوس القرابين وتشكّل الأعياد الدينية عند إيكلمان وغيرها من دراسات خصبة تناولت الدين، باعتباره ثقافة تعطي معنى ونظاماً للحياة اليومية.

في المقابل وربما كنتاج للأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية والمدرسة الفرنسية الاستعارية، برزت جهود أرنست جلنر الذي قدَّم نوعاً متطوراً من الانقسامية لدراسة دور الدين في مجتمع المغرب في تشكلاته المختلفة المخزنية والقبائلية وفي الأوساط المدنية الفقيرة، ممثّلة في السوق والزاوية والمسجد، وكيف أن البناء الاجتماعي وتحديداً الأسري والعشائري ما هو سوى تجسيد للممارسة والعلاقات الدينية. ولقد انتبه لموضوع التذبذبات التبدلية من الشرك إلى التوحيد -وهي نظرية أخذها عن دايفد هيوم- ترى أن هذا التذبذب يساعد على عدم التطرف في الدين. كذلك يستخدم وبشكل تلفيقي آراء الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع: ماركس ودوركايم وفيبر لتقديم تفسيرات للسلوكيات الدينية في ، بالإضافة إلى أفكار عامة حول كيفية تفسير القيادات السياسية (المغرب المدني والريفي (القبائلي للنصوص الدينية، انطلاقاً من فكرة مؤدّاها أن الإسلام يقدم في نصوصة الأصلية مخططاً أو مسودة لأسلوب حياة وثقافة ما.

ولقد أثرت آراء ودراسات كل من جيلنر وجيرتس على قطاع واسع من الباحثين الأنثروبولوجيين الدارسين للعالم العربي، لكن دراساتهم لم تقتصر على تقديم تصور عام شامل، وإنما ركزت على جوانب محددة، ومن هذه الجوانب دراسات سعت لتقديم تصورات الناس والمعاني التي يسقطونها على فهمهم محادثات مغربية" أو داخل سياق الحياة الأسرية في دراسة"لممارساتهم وطقوسهم الدينية اليومية.

واهتم بعض الأنثروبولوجيين بكيفية تكوّن العالم والواعظ المسلم، باعتباره نتاج واقعه الثقافي والاجتماعي. وهناك في هذا السياق، دراسات عديدة اهتمت بدراسة كيفية تكوّن الفقيه أو الواعظ، فقدمت دراسة لإيكلمان الكيفية التي تشكّل بها مسار فقيه في إحدى القرى المغربية، ودرس ذلك من حيث معرفة قوة وتأثير الخطاب الشرعي التقليدي على ساكني تلك المنطقة. ودرس أنطون ريتشارد أسلوب ودور خطيب جمعة وتأثيره في إحدى القرى الأردنية، ولقد قامت الدراسة على دراسة بلاغة وأسلوب الوعظ وتأثيره في مجريات الحياة السياسية والاجتماعية الراهنة. وقام تلميذ لهذا الباحث بدراسة أربعة وعاظ يمثلون رؤى مختلفة في القاهرة ومحيطها، ليتعرف على أساليبهم ومدى تأثيرهم في محيطهم، إضافة إلى دراسة نصوص خطبهم، وتعدَّدت الدراسات في هذا المجال، ومن أطرفها دراسة تخطَّت دراسة تأثير خطب الجمعة، لتطال الكتاب المدرسي لمواد الدين في المدارس الحكومية الرسمية موضحاً الدور المهم للعلماء في تعريف ماهية الدين والأدوار المُناطة بالمفاهيم والتصورات الدينية في تشكيل الرؤية الدينية عند النشء في دراسة عنوانها "تعريف الإسلام.

بطبيعة الحال توجهات الدراسة هذه، تبين أن عملية إعادة إنتاج مفاهيم وأطروحات "إسلامية"، إنما تتم عملية إعادة إنتاجها داخل مؤسسات تمولها وترعاها الحكومات، ولقد كان لهذه الدراسة صداها فيما تراه من مراجعات نقدية صراحة لما يَرِدُ في تلك الكتب المدرسية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وكيف أن الحكومات المحلية أعادت النظر في تلك الكتب والمقررات المدرسية.

وتتوالى الدراسات حديثاً في دراسة الفضاء السيبري الحديث، لمعرفة تأثيرات ما يبث على وسائل التواصل الاجتماعي من رسائل ثقافية وسياسية من طرف القيادات والجماعات الدينية، مع الاهتمام ببعض الدراسات الموجّهة لدراسة الرموز الدينية في الفضاء الخاص والحميم لدى بعض المهاجرين ممن يعيشون في الغرب، ولقد توسّعت هذه الدراسة بالاهتمام بالرموز المؤكدة على الهوية الإسلامية في الفضاء العام، ويعدّ الاهتمام بمسألة الحجاب أو ظهور المآذن أو المساجد بشكلٍ عام في الغرب واحداً من هذه القضايا. ولقد درس بعض الأنثروبولوجيين مسألة الهجرة من زاويةٍ آفاقها الدينية وأبعادها الرمزية ، وتناولو ا ما عُرف "باستزراع" الإسلام في أوروبا والغرب عموماً .

واهتمت الدراسات الأنثروبولوجية تقليدياً بما يُعرف بالدين الشعبي، ولعلّ ما قام به ويسترمان في المغرب حول ذلك يعدّ منجماً لدراسات عديدة ما زلنا ـرغم ما تمرّ به مجتمعاتنا من عمليات تحديث وعلمنةـ موضع تركيز واهتمام بموضوعات، مثل دراسة المربوطية والبركة والحسد ودراسة التعبيرات الفلكلورية للدين، باعتبارها مكونات أساسية لا يزال لها أثرها في حياة قطاعات كبيرة من السكان.

وتتوالى الدراسات والأبحاث الأنثروبولوجية المؤكدة على أن المحور المحرك سياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً لسلوكيات وتصرفات شعوب العالم العربي هو الدين الذي ينبغي أخذه في الاعتبار بوصفه العامل الأهم، لكن، رغم ذلك نظراً إلى التحولات الجوهرية التي مرّ بها هذا الجزء من العالم، بدأت تظهر دراسات تعنى بالتحولات العلمانية التي تمر بها هذه المجتمعات، وتتلمس مدى تأثير العولمة والتيارات الفكرية الغربية الحديثة على فهم الناس للدين.

وتعد دراسات طلال أسد وتلاميذه رائدة في هذا المجال؛ فهو يرى أنّ العالم العربي آخذٌ في الانفتاح يتميز بما - والتفاعل مع هذه التيارات من خلال تمريرها وفلترتها عبر مخزونه الديني الذي ـفي رأيه أسماه الخطاب الاستطرادي أو الشرح والتعليق المؤسسي لإعادة إنتاج خطاب ديني ذي صبغة حديثة، وربما حتى علمانية. ولقد قدمت بعض تلميذات أسد دراسات ميدانية حول علاقة الفكر الديني بإنتاج جهود المجتمع المدني والأعمال الإغاثية والتنموية من هذا المنطلق. دراسات التحولات العلمانية وتقاطعها مع السياق الديني كما يعيشه الناس بوصفه مشكِّلاً لهويتهم وثقافتهم المعاشة من الميادين

الواعدة جداً، وهي أكثر وضوحاً وإلحاحاً لكي تدرس ما نشهده من جدل ومواجهات بين الخطابات التي برزت على الساحة بشكل ما كان معهوداً في سياق الربيع العربي الذي نشاهده اليوم. ومن ثم نتوقّع مستقبلاً فريداً من الدراسات والتأملات حول صيغة وشكل الهوية الدينية في ظلّ أوضاع العولمة والتحولات السياسية التي تشهدها المنطقة، وهذا يعني أنّ الدراسة الأنثروبولوجية للدين وبالذات الإسلام لا تزال تعدُ بالكثير والكثير.

في الختام، ممّا يؤسف له أنّ الدراسات الأنثروبولوجية وبالذات للواقع الإسلامي والعربي لا تزال حكراً على الغربيين أو المراكز البحثية في الغرب، ومن ثم هذا –ربما- يذكّرنا بالدور الوظيفي للأنثروبولوجيا في عصر الاستعمار؛ فبالرغم من إصرار وتأكيد الدارسين الأنثروبولوجيين على أن دراساتهم، إنما تعمل من أجل غايات علمية، وهي تسعى بموضوعية واحترافية إلى مقاربة دراسة الواقع بأكبر قدر من الحياد والدقة العلمية، إلّا أن هذه الاهتمامات بالواقع المعاش لا تزال من اهتمامات المراصد والمراكز البحثية للأكاديمية الغربية، وتفعّل أو يستفاد منها من طرف قواها السياسية. صحيح أن هناك أعدادا تتزايد من الباحثين من ذوي الأصول العربية والإسلامية تشارك في إعداد هذه الدراسات، لكنهم إنما يقومون بذلك داخل إطار تلك المؤسسات والمراكز العلمية الغربية، وربما حتى الكثير من دراساتهم وأبحاثهم تبقى غير معروفة ولا تلقى الاهتمام والعناية في أوطانهم الأصلية، وهي على أية حال كتبت لمرجعيات علمية خارج إطار أوطانهم.

وإنها لمفارقة مربكة وعميقة أن الدراسات الميدانية التي تهتم بالواقع والظواهر الثقافية والاجتماعية المؤثرة في السياسة والاقتصاد والواقع الاجتماعي لا تزال بعيدة عن اهتمامات جامعاتنا، وهي إنْ لقيت اهتماماً فربما من زوايا أمنية فقط، ومن طريق تكليف تلك المراكز الأكاديمية الغربية.

لعلّه من المفيد هنا في ختام هذه المداخلة المقتضبة العاجلة رفع الصوت والمطالبة بضرورة إيلاء اهتمامات أكبر من أجل إعادة النظر وزيادة جدّية الاهتمام في القيام بدراسات ميدانية تأخذ ما يجري فعلاً في مدننا وأحيائنا، بل وحتى في أسرنا بجدية أكبر.

وباعتبار أنها رأس مال ثقافي؛ فمن الضروري الاستثمار الجدي فيه من أجل بناء اجتماعي ثقافي أكثر رسوخاً وواقعية في عملية بناء المستقبل على أيدي أبنائه من الباحثين والدارسين، وأن تشكّل تلك الدراسات فضاء مهما وجاداً للنقاش والحوار العام، الذي من شأنه أن يبني مستقبله، وبالذات في مكوناته الأساسية، انطلاقاً من معرفة ميدانية مؤكدة، لا على طروحات وأفكار منقطعة عن الواقع، وربما لا تمثل سوى أماني القائلين بها.

فمحورية الدراسة الأنثروبولوجية للدين، وبالذات في مجتمعاتنا التي يلعب فيها التصور الديني الجامع المؤسس لمعظم رؤانا وأساليب تفكيرنا، ما يعزِّز من ضرورة الاهتمام بالمقاربة الأنثروبولوجية للدين، وعندها يصبح ما تراكم من مفاهيم ونظريات وبحوث عالمية مادة مهمة للتأمل والنقد، وربما في بعض جوانبها ينبغي اكتسابها من طريق الدربة والتعلم.

الفصل التاسع

العقل المنفعل

المشاعر والعواطف :

السلوك مركب انساني تميزه ذكاء المشاعر والعواطف المرهفة التي تميز طبيعة الانفعال العقلي الذي له الدور في عقلنة السلوك الذي يعتمد على ثقافة المكان من حيث النشأة والتاثيرات البايولوجية التي سنبحثها لاحقا. وهي اسس علم الاجتماع – علم الانسان والمجتمع, في الانثروبولوجيا الاجتماعية . لايكتمل هدف البحث مالم يكتمل ترابط العلوم فيما بينها . علم النفس الاجتماعي وبايولوجيا الموروث الجيني لهما الاسس التي نعتمدهما كموشرات تضئ طريق البحث . اضافة الى ماسنضيفه من رؤيا جديدة في بحثنا هذا. لغرض التعمق في دراسة الشخصية العراقية .

المشاعر: Feelings

هي القدرة على التاثير والتأثُر بشكل شخصي وبايولوجي. بمودة اجتماعية للاخرين. تتميز المشاعر بانفعالاتها الذكية كاحد صفات السلوك الانساني المفعم بالاحساس المرهف. وبدون تاثير المشاعر الشخصية , نفقد الاحساس نحو البيئة التي نعيش فيها . و ومن تاثير المشاعر يتاثرالتعاطف الايجابي او السلبي مع الاخر . هي سمة السلوك والصفات الاجتماعية في الذات. ومانشعر به دائما هو مايوصف بعضا من المشاعر بالاتي :

السمع و التذوق والشم والحرارة او البرودة والمتعة والالم والتوازن والرؤيا والجهد والنشاط .

العواطف : Emotions

هي رد فعل تحفيزي او انفعالي . عنفي او هائم في التسامح . قصيرة الفعل هائجة التاثير والتاثر ان لم تضبطها البصيرة التي سرعان مايستحضرها الوعي حين الحاجة , او بعد فوات الاوان. مايوصف بعضا من العواطف بالاتي:

اليقين والمتوقع . الارتباك والمفاجئة . الثقة والخوف . المتعة والاشمئزاز . الحب والغضب. الغبطة والحزن. الرضا والرغبة.

كما ان العواطف تمثل الاتي:

كسلوك عام متمثل في الفرح والبهجة . وكنظام دفاعي متمثل بالخوف . كما ان القلق يمثل التثبيط السلوكي . والمخطط ادناه يبين الترابط بين المشاعر والعواطف في الفص الايمن من الدماغ . وما ينتج من وعي يريح او يؤنب الضمير من خلال ذكاء المشاعر , كمجسات عقلية في السلوك الانساني . ومن خلال تناغم العواطف والمشاعر وتداخلهما في العقل والضمير . واختلافات السلوك والتصرف والتعامل بين الافراد والمجتمع , هو ماسنبحثه في قادم الفصول.

خارطة الجسد والضمير ومؤثراتهما على عناصر السلوك الواعي

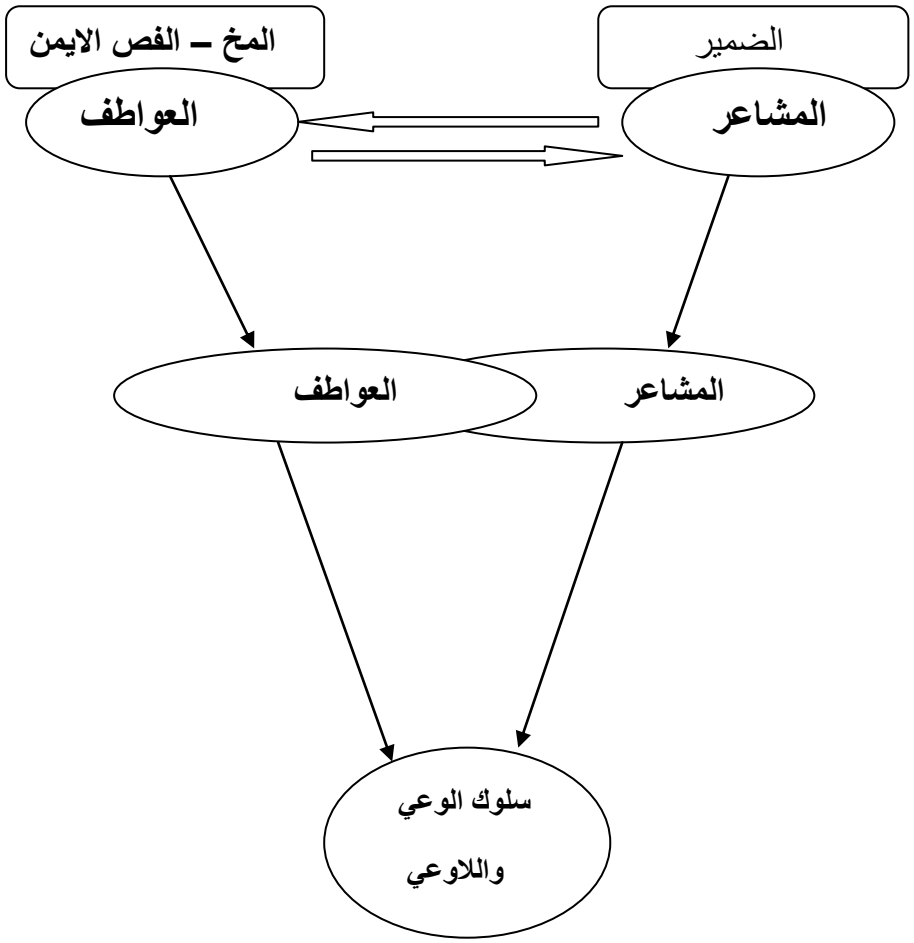

السلوك :

هو تصرف شخصي لظواهر يعبر عن نشاط الفرد , قد يكون ظاهرا كتصرف وبعضه غير ظاهرا للاخرين. ويمكن تعريفه بانه نشاط وتعامل مع الاخرين . سلبا او ايجابا , منفعلا او متعقلا , بوعي ناضج او وعي منفعل , وفي كلا الحالتين . هما اما رد فعل لظواهر معينة نستجيب لها بسلوكنا, لربما بشكل تلقائي. ونوع يمكن ان يكون فعل نتخذه جراء مانشاهده عن قرب او عن بعد من خلال النقل للحدث.

وليس السلوك الانساني ظاهرة عفوية وبالصدفة, بل يخضع السلوك لنظام معين, والعلم استطاع ان يضع معاير لتكنولوجيا السلوك البشري , بعد ان تعرف على البيئة الاجتماعية وثقافة المكان . لكن في بحثنا هذا نستطيع ان نتنبأ بطريقة تقترب من الواقع . وذلك عن طريق التناغم البايولوجي اي من خلال الجينيوم البشري وانواع الجينات للشخص , ومن خلال النشأة والتربية التي تبني الوعي السلوكي للفرد. او لمجموعة من الافراد , او السلوك المجتمعي وما يمكن رصده ضمن منظومات القيم الاخلاقية.

مؤثرات السلوك

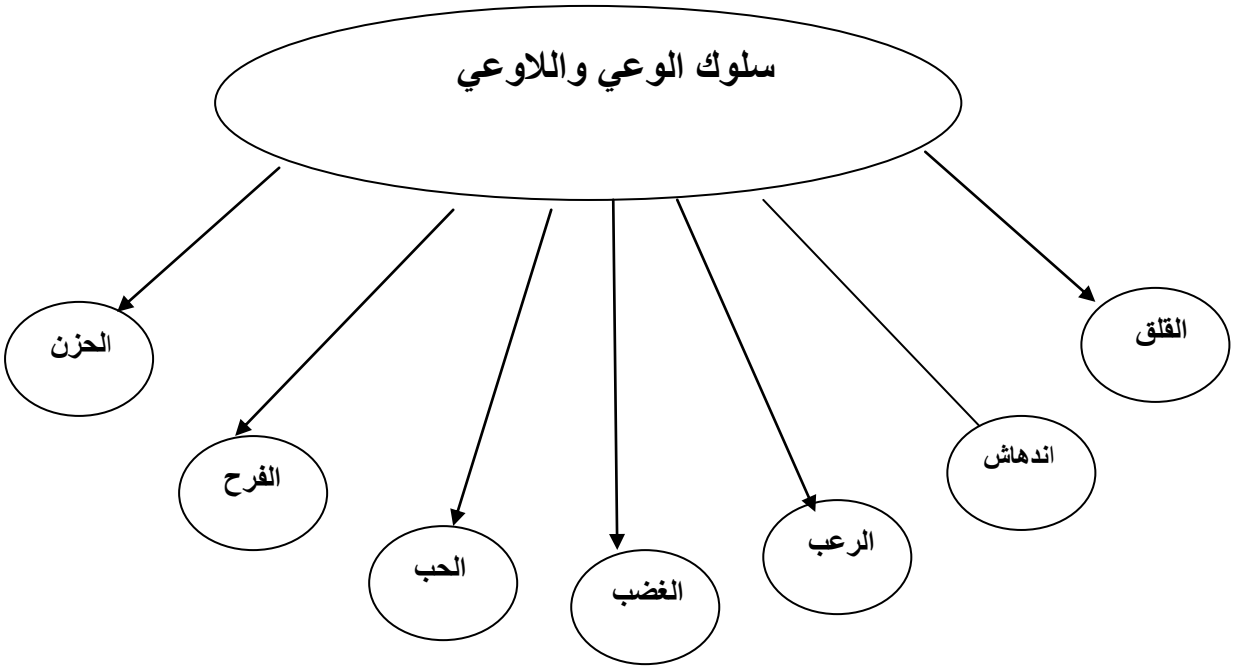

سلوك الوعي واللاوعي : سلوكيات متنوعة تعتمد على ثقافة وتعقل البيئة والمكتسب من الموروث الجيني كصفات وتصرف انساني . قد يتعدى حدود المعقول الى عواطف ومشاعر هدمية , متعصبة . كذلك تتسم بعضها بحدود اللياقة والذوق والاحاسيس المرهفة في التعابير السلوكية .وهذا مايميز فئة عن غيرها . وماسنتناوله لاحقا. نصف اهمها باختصار لتتوضح مسالك واهم صفات مضامين السلوك .

الحزن :

المعاناة , هموم , اكتئاب , تعاسة , بؤس , اليأس , استياء , خيبة امل ,الشعور بالذنب ,الندم , الخجل , اغتراب , حنين للوطن , العزلة , الاهمال , انعدام الشعور بالامان , الاحراج , الاهانة , السب ,الشتم , شفقة , تعاطف .

الفرح :

مرح, تسلية, بهجة, غبطة, بشاشة , سرور , سعادة , تمتع , رضا , نشوة ,تلذذ , واثارة , تشويق ,متعة نشوة , انغماس بالطرب , امل , تفاؤل , انبساط .

الحب :

عشق ,مودة ,ولع ,انجذاب ,رعاية , حنان, عواطف , اثارة ,رغبة , شهوة ,شوق , افتتان , رعاية .

الغضب :

مفاجأة , دهشة , تهويل , تضخيم , تهيج , اثارة , انزعاج , نكد, تجهم,سخط , احباط,غضب , عداء , شراسة, مرارة, كراهية, ازدراء, ارغام , انتقام , استياء, اشمئزاز, احتقار , حسد وغيره.

الرعب :

ذعر , هستيريا , خوف , رعب , صدمة , اهانة, قلق , عصبية , توتر , اضطراب .

الاندهاش:

ذهول , مفاجئة .

القلق :

تردد, خوف , فقدان الثقة , قلق , فوضوي , شكاك ,ارتباك .

سلوك المداهنة :

المداهنة نوع من الخداع , والغش بما تضمر للاخر ,تملق ونفاق لقضاء مصلحة شخصية . هو الانسياق الاجتماعي السائد , في مجتمعاتنا كسلوك يومي بسبب , وجود فوارق هائلة بين الاستبدادات المتنوعة والتمايز الطبقي في المجتمع . وبين عامة الناس التي تشعر بانها مهمشة لامكان لها لتتعرف على شخصيتها الا عن طريق المداهنة , والغلو في نفاق التعامل الاجتماعي مع الاخر لتمرير المصالح. ومن اخطر شيوع النفاق الاجتماعي والمداهنة هي عندما تكون ممارسة وظاهرة اجتماعية عامة تمارس في معظم مناحي الحياة.

الخوف والحاجة وفقدان الثقة بالنفس سلوك يعتمد على النشاءة وجغرافية المكان . هي ثقافة عائلية تنطلق من ثقافة ازدواجية . ثقافة مايتوجب ان نقول وثقافة البوح بالممنوع داخل العائلة . ثقافة العلن وثقافة السر. هي بنية عائلية تتوسع لتكون ضمن المدرسة والبيئة ثم المجتمع بفضائه الاوسع. النفاق الثقافي والسياسي والاجتماعي , سمات مجتمعية تمارس كجزء من تحقيق الذاتوية الانوية . بغض النظر عن معاير القيم الاجتماعية العليا , ومنظومة الاخلاق المجتمعية التربوية.

افرازات الحروب والسلطة القهرية والشعور الذاتي بالاستهداف الفئوي لمجموعة دون غيرها . هو احد اهم ممارسة المداهنة والنفاق بشتى انواعه. كوسيلة لتجنب الاذى . كذلك للاعلان والتظاهر بالولاء والانتماء رغم شعور المنافق بخداع ذاته قبل خداع الاخر. انها معاناة اجتماعية يمارسها معظم افراد المجتمع العراقي . لما تراكم عليه من استبدادات وحروب ومآسي مجتمعية . انعكست على تعاملاته الاجتماعية والوظيفية مع الاخرين. بحيث اصبح التملق عادة تقترب من موروث مكتسب من البيئة الاجتماعية , المتنوعة مكانا وثقافة ومعتقدا.ويمكن ان يكون مكتسب جيني من البيئة المعاشة .وهو احد مكتسبات الثقافة المكانية .

االتباهي وتضخيم الذات الكاذب هو الاخر تماهي في عملقة الاوهام وتحويلها الى كذب . هو احد امراضنا الاجتماعية , المنافقة , التي نضخم بها احتفالات الافراح ومواكب الاحزان , كنوع من الولاء الخادع الذي ينطلق من نفوس تشعر بالانهزام في داخلها . لما تعاني من ازمات نفسية واضطرابات في العواطف والمشاعر التي لاتنتمي للسلوك المنضبط والعاقل. وعادة ما تتصرف مثل هذه الشخصيات بانفعالات اللاوعي بين لحظة واخرى . تارة تتعاظم العواطف وتصبح سلوك هائج وهائم وغير منضبط. سرعان ماتنقلب راسا على عقب الى عواطف جياشة يسودها البكاء والحزن . لتعبر عن شعورها بالذنب عما كانت عليه من انفعالات تصل للهدمية ضد الاخر. كل ذلك نراه في تعدد الولاءات الاجتماعية –عشائرية او دينية .و فريدة لجذب انتباه الاخرين بسبب الشعور بالادنى من الاخر . كل ماتم تناوله هو وقائع مازالت شاخصة في مجتمعنا العراقي الذي عانى من ظروف قاهرة مازالت تتجدد باطر واساليب متنوعة. لم يعانيه اي مجتمع آخر في المنطقة. ومازال يشعر بمصير ضبابي مضطرب انعكس على سلوكيات المجتمع بمختلف مناطقه واعماره وفئاته وبالاخص في مجتمعنا .

الخجل كسلوك :

" فجائته احداهما تمشي على استحياء " آية كريمة.

الخجل كما يعتقد علماء النفس في حد ذاته ليس سوى ثمرة من ثمار شجرة , الخوف والقلق والتهميش . الاقدام والإرادة بمفهومها الانفعالي والسلوكي تلعب دورها الفعال الأساسي في حياة الفرد الذي يتميز عن غيره ثقافة وبيئة يتميز بهما عن غيره من الناس ولكل منا نزعته وتفكيره وانفعالاته السلوكية الخاصة به وأن عقدة الخجل وانفعالاتها الوجدانية والنفسية تختلف بين فرد وأخر وذلك لتعدد الأحوال والعوامل والظروف الموضوعية التي تحيط بحياة كل مخلوق بشرى والناس وهم كائنات بشرية متعددة الخصائص ومتنوعة الدوافع. يجب دراسة كل شخص على حدة لعدم الترابط النفسي بين الناس كمجتمع . ولا بد من الإشارة إلى العوامل الرئيسية التي تساعد على خلق الخجل والحياء لدى الأفراد والتي تتلخص في عاملين هما (العامل الجسدي والعامل النفسي)ولكل من هذين العاملين تأثيره البعيد والقريب على وجود الخجل وربما وقع الإنسان تحت مؤثرات داخلية وتفاعلات خارجية من البيئة التي يترعرع فيها.

الموروث والمكان :

حيث تلعب الوراثة دورا كبيرا في شدة الخجل فالجينات الوراثية لها تأثير كبير على خجل الطفل والكبير من عدمه فالخجل يولد مع الطفل منذ ولادته وهذا ما أكدته التجارب ولان الجينات تنقل الصفات الوراثية من الوالدين إلى الجنين والطفل الخجول غالبا ما يكون له أي أب يتمتع بصفة الخجل وإن يكن الأب كذلك فقد يكون أحد أقارب الأب كالجد والعم فالطفل يرث بعض صفات والدية.

وأشارت دراسة جديدة خاصة بتصوير الجهاز العصبي أقوى الأدلة على أن الخجل غير العادي لدى الأطفال يمكن أن يحدث بسبب تغيرات في أدمغتهم فقد استخدم باحثون في كلية الطب بجامعة هارفارد التصوير بالرنين المغناطيسي لفحص عدد من البالغين الذين كانوا معروفين بالخجل أثناء طفولتهم ، وحين تم عرض صور لوجوه غير مألوفة على هؤلاء الأشخاص ظهر نشاط في لوزة المخيخ لديهم أكبر بكثير من نظائرهم الذين كانت طفولتهم تتميز بالنشاطات الاجتماعية . وتتمثل وظيفة لوزة المخيخ في اليقظة والخوف وفي السابق كان يعتقد إن الخجل الذي يظهر أثناء الطفولة ويستمر في كثير من الأحيان أثناء البلوغ يعود لأسباب تتعلق بتطور المخ لكن هذه الفكرة لم تتعرض للدراسة والبحث لأنه كان من الصعوبة لمكان إجراء تصوير لمخ الأطفال الصغار .

انواع الخجل الاجتماعي [10]:

1) خجل الخوف Fearful shyness .

2) خجل بالذات Self - consciousness shyness

3) الخجل العام Public shyness : يتميز صاحبه بعيوب في الأداء مثل الحرج عند ممارسة المظاهر السلوكية العامة مما يؤدي إلى الفشل في ممارستها .

4) الخجل الخاص Private shyness : يختص بالشعور الذاتي بشيء ما أي تكون لدى الفرد الخجول ذاتيا بعدم الارتياح والخوف من التقييم السلبي وبالقلق وبالحساسية الزائدة للذات وبالاستثارة الداخلية (internal arousal).

5) الخجل الاجتماعي الانطوائي Introverted - Social - Shyness

أي الميل للعزلة ولكن مع القدرة على العمل بكفاءة ونجاح مع الجماعة إذا اضطر الشخص لذلك .

6) الخجل الاجتماعي العصابي Social - Shyness Neurotic -

يشعر بالقلق الناتج من الشعور بالدونية بالحساسية المفرطة نحو الذات وإحساس بالوحدة النفسية وخوف من إقامة علاقات اجتماعية مع الآخرين .

ومن خلال التعاملات الاجتماعية على جميع المستويات التي يمارسها الكثيرون من مختلف الاعمار والمهن والوظائف . ان الخجل ممارسة واسلوب سيكولوجي واجتماعي وبيولوجي (عضوي بسبب عوق جسدي مثلا) . وان الخجل ايضا يتصف بثلاث ممارسات عملية من خلال البيئة المكانية كالاتي:

اولا:انتباه زائد للذات.

ثانيا:انشغال مفرط بالذات.

ثالثا:تقويم سلبي للذات.

آخذين بالاعتبار ان معظم اساليب الخجل خفي غير ظاهر وبعضها مزاجي. يمكن ان نصف الخجل , بالمفاهيم المتداخلة والمتشابهة , في الشكل الاتي :لما بان البخيل والاستحواذي لايشعر بالخجل من ممارساته . فهو يعتبر ذلك غالبا لامغلوبا.

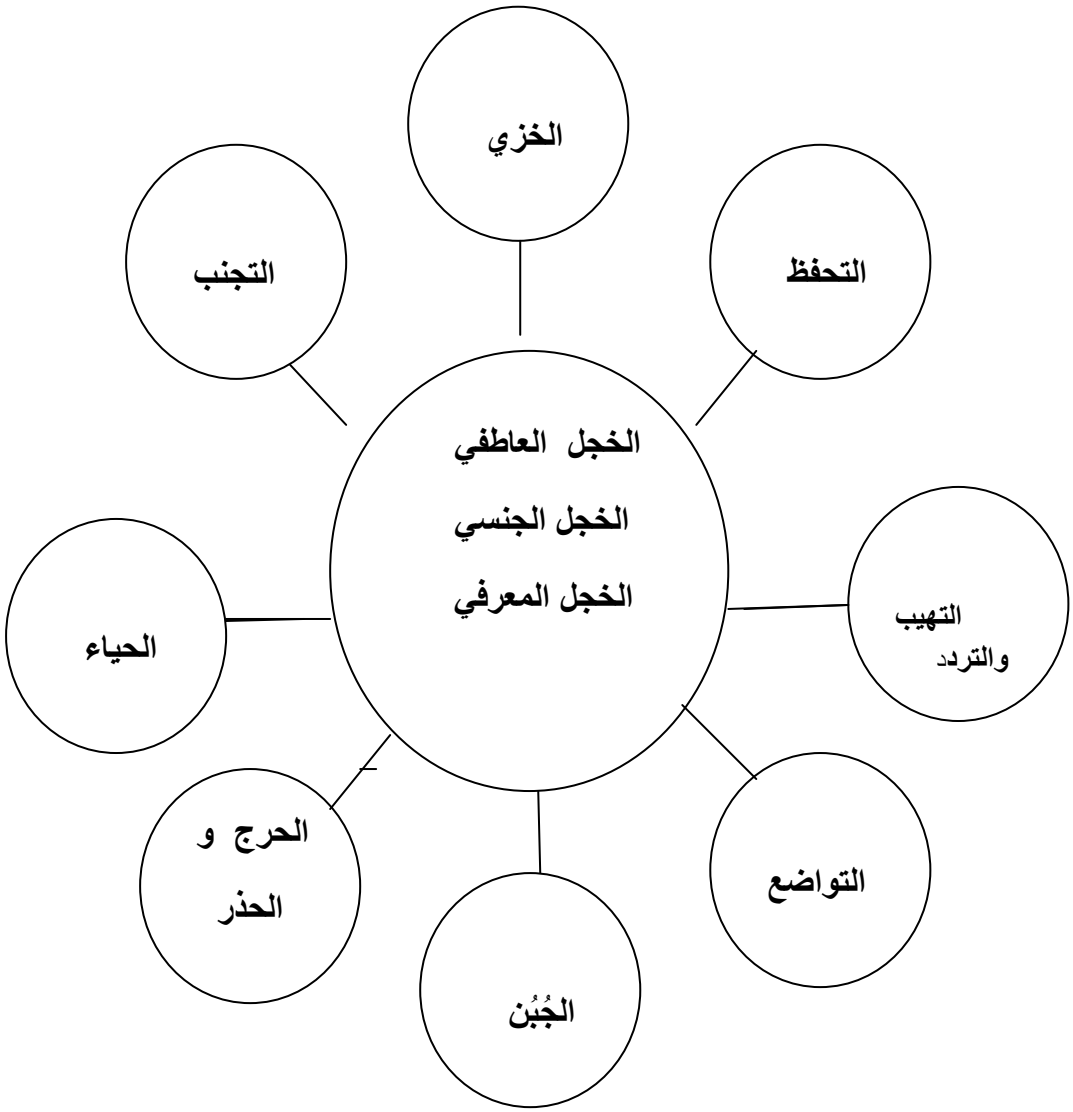

وهنالك خجل مفتعل او مقصود ليعطي انطباعا للاخرين بحسن الاخلاق الاستعراضي وهو نوع من الخداع الاجتماعي او المداهنة .

وهنالك درجات في الخجل , العادي والشديد . ومن الضروري التميز بين الخجل الطبيعي والخجل المرضي. وكما ان للخجول صفات حسنة , كالاحتشام والعفة والاخلاص . والخجل هنا عندما يكون التعامل بالضد من منظومات القيم الاجتماعية.

الفصل العاشر

سلوك وظواهر اجتماعية(11)

1. الرشوة والغش :

الارتشاء كان منذ نشوء اول حضارة في التاريخ , كانت على شكل هدايا ومواد عينية. شّرعّ لها حمورابي قوانين صارمة, لمعاقبة كل من يتعامل بالارتشاء.

الرشوة تعتبر جزء من حياتنا اليومية, والتي يجب ان لاتكون هكذا. فالارتشاء اصبح مرادفا لاي عمل تجاري, او هو وسيلة مالية لتسهيل اجراء المعاملات في اطار لاقانوني وخارج منظومة الاعراف الاخلاقية .

الارتشاء خطر يداهمنا في اي خطو ة تحتوي على تبادلات سلعية مالية كانت او استهلاكية , حتى وصلت الرشوة الى اعلى مناصب الدول المتقدمة والبدائية, فهي نهج لسرقة الاخرين او هي اغراء مقابل تنازلات, حتى تصل الى مرحلة الخيانة العظمى التي تهدد الامن القومي للبلدان. والتي يطلق عليها بالعمولات مقابل اتعاب و عادة ما تمارسها الشركات الكبرى . او اجهزة مخابرات لجمع , معلومات سرية مقابل اموال .

اصبحت الرشوة اخطبوط يزحف في اكثر الامكنة سرية وحصانة, نوصفها:

1. اشبه بعجلة لايتوقف نشاطها حتى في عالم السياسة.
2. يدخل الارتشاء حتى في تدقيق حسابات الشركات.
3. يتدخل وبوسطاء محترفون لمنع تاثير الراي العام على خروقات الحكام في الدول المتحضرة والديمقراطية.
4. اي جريمة يمكن ايجاد مبررات في خلل عقلي مثلا كي يكون الفاعل الحقيقي بعيدا عن العقاب
5. عندما يستفحل الفساد المالي, وذلك بشيوع الارتشاء في العقود الوهمية يحدد التفاوض بها فقط عن كيفية استلام العمولات وباي حساب تدفع. وليس بالتفاوض على نسب انجاز الاعمال.

6. المال السياسي من الرشوة, يتعملق على حساب الدولة وتنشط في احضانه عصابات تتخاصم على غنائم المال المسروق على شكل قطاعات وعوائل ومقاطعات يصعب محاسبتها قانونا , لان القتل هو احد وسائل الرشوة المنظمة.

ورغم خطورة ماورد اعلاه وعلاقته على امن المجتمع والامن القومي .

لايمكن بناء دولة تنقل الانسان من مكانه السئ الى مكان ارقى لاسباب عديدة منها:

آ. الارتشاء لايخلق كفاءات بل يوسع عصابات .

ب.اي اضطرابات او نزاعات داخلية هي مكسب اضافي لبيئة الارتشاء.

ج.الارتشاء او العمولات ,همها تهريب الاموال وتبيضها على حساب المال العام .

د.الرشوة ممارسة لشرعنة الفساد الاجتماعي, وتكوين بيئة فاسدة يصعب اصلاحها.

عندما تتغلب المصالح الفردية الفئوية على مصلحة المجتمع , تتهاوى القيم الاخلاقية , في مختلف المجالات وتصبح المنافع هي القيمة الاعلى بالفرد والجماعة , تضمحل الروابط المجتمعية لتحل محلها جماعات وتكتلات تتخلل في افساد ماهو قيمي واخلاقي . واغراء من يتحمل عبئ الامانه المالية , والاخلاقية , بعد التجسس على نقاط ضعفه وحاجاته المادية . او تتعرف على اهواء ورغبات الافراد وما يطمحون اليه من ملذات , كي تكون منافذ الاختراق معروفه بتحديد الوسائل المراد تحقيقها وصولا لتخريب ماهو قانوني ونظامي في مؤسسات الدولة والمجتمع. وهكذا تتاكل الامم بنخر جسدها بالتدريج الى ان تصل لمواحل يصعب الرجوع عنها لما للغش والفساد . لتتحطم كل ارادات الخيرين وتجعلها متورطة في تدنيس شرفها المهني . او لتخويفها وترهيبها من البوح عما جرى او يجري.

هذه هي سمات المجتمعات التي تعاني من انعدام الطمأنينة وفي المجتمع العراقي على وجه التحدي . شاع الفساد المجتمعي في اروقة المؤسسات الحكومية بمحتلف واجهاتها . اعلاها واقلها تدرجا في مهامه التي باتت مرتعا لكل من ليس له ضمير حي . واصبح النسيج المجتمعي المختلف بقيمه واخلاقة احد اهم مفاصل الانهيار المزمن الذي يصيب المجتمع بشكل مخيف .

الحق العام هو الضحية والمقتول في مجتمعات خرجت من حروب واحتلالات . مازالت تسرق وترشي وتفسد وتخرب . لتضع كل ماتراكم من اخلاق المجتمع في بيئته الثقافية من معتقد ديني وتراث حضاري عريق ومبادئ ترسخت جذورها تربية وممارسة .في هزازات تغربل ناسها ومبادئها . لتجعل من الاحتماء بقانون السماء الالهي , خسارة امام من استبدل قوانين التحضر والتاريخ المجيد الى تذكرة لشعارات جوهرها كاذب ومزور ويصبح الانتهازي والمنتفع , لهم اولوية الصدارة في مجتمع , ظل الطريق السوي. فتساقطت الطبقات المنتجه بابداعاتها وعرق جبينها واستبدلت بطبقات الغفلة والتردي الاخلاقي الذي اصبحت اعرافه ومنظومات ماكان يسمى بالقيم الاخلاقية و الى مفاهيم النطيحة والمتردية باطار دوائر تغطية على اللانزيه والامين والمخلص . باسم دوائر او هيئات النزاهة ! للتعمية على الحق والمال العام .

2 الاستغناء والاستحواذ :

عندما كان الزحام كبيرا في قطار الهند , وبينما يهم الزعيم غاندي وقع احد نعليه وبقى بنعل قدمه الايمن . بينما بدا القطار بالسير . فوجد ان من الافضل ان يرمي نعله الاخر , لكي يستفاد منه من سيجد النعل الاخر. فكان الاستغناء عن نعله جوهر في فلسفة الاستغناء بديلا للاستحواذ و الذي يضر الاخر .

ويمكن ان نوضح الامثلة التالية التي هي جزء من تعاملات مجتمعية نمارسها بشكل شائع باختلاف الوسائل والغايات.

اولا: كل منا له حقه ولايتجاوز حق الاخر :

لك ماتمتلك

ولي ما امتلك

كل منا يحتفظ باشيائه , حاجاته , وكل منا مقتنع وراضي عما لديه. التزام قانوني واخلاقي ينظم حق الفرد بالمجتمع . وهي حالة عادة ماتسود في المجتمعات المتجانسة والتي لها منظومات قيم. ومستعده ان تعطي بعضا مما تمتلك او تشارك الاخر بالتكافؤ الاجتماعي.

ثانيا : نتشارك فيما بيننا من منطلق العيش السليم :

لك ماتمتلك لي ما امتلك

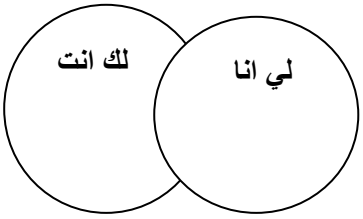

السلوك الاجتماعي السليم هو ان تكون سعيدا وتسعد الاخرين . سعادة الفرد من سعادة الاخرين.ليست للاستحواذ مكانا في التعاملات . الاستغناء والتسامح وحب الاخر هي سمات السلوك الواعي.

ثالثا:ما امتلك انا هو لك وما تمتلكه انت هو لك :

لك ماتمتلك لي ما امتلك

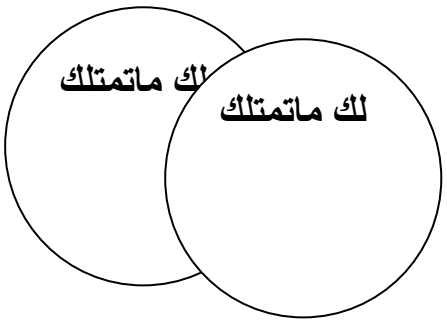

افضل سمات السلوك المجتمعي في العطاءوالاستغناء . لتجعل من الاخر مطمئنا بسعادتك ورضاك ايضا. تجعل من يمتلك شيئا سعيدا بما لديه . وكل سلوك هو سلوك يؤسس لتراكم ثقافات الاستغناء الانساني بهدف دوافع اجتماعية نبيلة .

رابعا:ما تمتلك انت هو لي وما امتلكه انا هو لي ايضا :

لك ماتمتلك **لي ما امتلك**

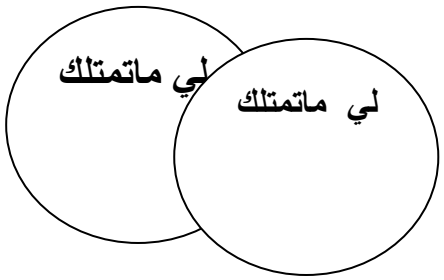

سلوك استحواذي , وطمع بما يمتله الاخر. هنا يكمن السلوك الفردي او المجتمعي اللاسوي.ثقافة الانا السفلى . في التحايل والغش والمراوغة والطمع . لتحقيق ممارسات تتعدى الفردية وتتجاوز الافراد للهيمنة على المال الاعام وما يمتلكه الغير. وهي عوامل تستشري لتصبح فسادا ماليا يمارسه المجتمع ويصبح فسادا مؤسساتي . تحميه بؤر الفساد التي سرعان ماتتحول الى آفات مافيات تتعملق على حساب ضعف الدولة وغياب القانون والعقاب والقيم الاخلاقية بالمجتمع .

الفصل الحادي عشر

عناصر الشخصية و الذات

هي اضافات بحثية جديدة , لتعزيز ماتقدم من دراسات في علم الاجتماع وعلوم الانثروبولوجيا , ولتسليط الضوء على ماكان ومازال مهملا في بحوث علم الاجتماع . ومالم يتم الاستفادة من الاكتشافات العلمية في الجينيوم البشري وترميزه ومدى علاقته في علم الاجتماع , من قبل دوائر البحوث ذات العلاقة, او المتخصصين وما قدموه من الدراسات المنشورة في السلوك والصفات العامة للشخصية تحديدا وللمجتمع عموما .ومالم يتطرق اي من الباحثين عن علاقة كينونة المجتمع وقيمه.

أحد اهداف البحث هو التركيز على النشاءة والبيئة ومدى تاثير الجغرافيا وطبيعتها على الفرد والمجتمع في السلوك والتعاملات مع الاخرين. وللجغرافيا الثقافية وطبيعة المناخ والغذاء هو ما سيكون ضمن بحثنا . لاهمية كل ذلك وغيره الكثير من العوامل التي تؤثر على التعامل الانساني . والثقافة هنا ستكون احد محاور بحثنا .

وبالنظر لاهمية معرفة المجتمع , والتعايش معه لغرض تقديم ادق التفاصيل في بحث السلوك المجتمعي. وما طرأ من تغيرات هائلة عليه , ولكوني عراقي من هذا المجتمع بسلبياته وايجابياته اعطي لذاتي ولضميري امانة تناول اهم تفاصيل النقد المعرفي في هذا المجال . وساخضع كما اي عراقي اخر لذات النقد لاكون جزءا منه . ولاني اعتقد جازما ان للعراقي ظروفا قاهرة مر بها , ميزته عن غيره من المجتمعات المجاورة والبعيدة. لهذا سيكون تناولنا لما كان يعرف منذ بحوث الدكتور علي الوردي باطلاقات هامة عن "الشخصية العراقية" . هي تلكم المتغيرات الجذرية علينا كمجتمع عراقي انا احد افراده .واينما ذكر المجتمع او لفرد العراقي , فانا اول المعنين في الوصف و بل وجزءا منه بسلبياته وايجابياته .

في الشكل ادناه هو الجديد في ماسنتناولة لاحقا كعناصر مؤثرة على اخلاق الفرد والمجتمع . والتي تشكل الوعي الجمعي . بما يكتسب من ثقافته المجتمعية من انواع الوعي المختلف الزائف والناضج منها. هي معادلة جديدة . نبحث فصولها بمنهجية التسلسل المعرفي , حسبما نراه. آمل ان نوفق بذلك.

نحن بحاجة الى تغير اسلوب التفكير , لا باتباع مدرسة او نظرية معينة لاتنسجم مع واقعنا وتستوعبه وتتفاعل فيه . فالعلم بامعلوم اي بما نعلمه ليس علما . بل العلم هو استنباط المجهول من المعلوم , وعقل مالم يُعقل بعد . فالتأدلج عدو العلوم والعقلنة الفكرية

العناصر المؤثرة في الشخصية

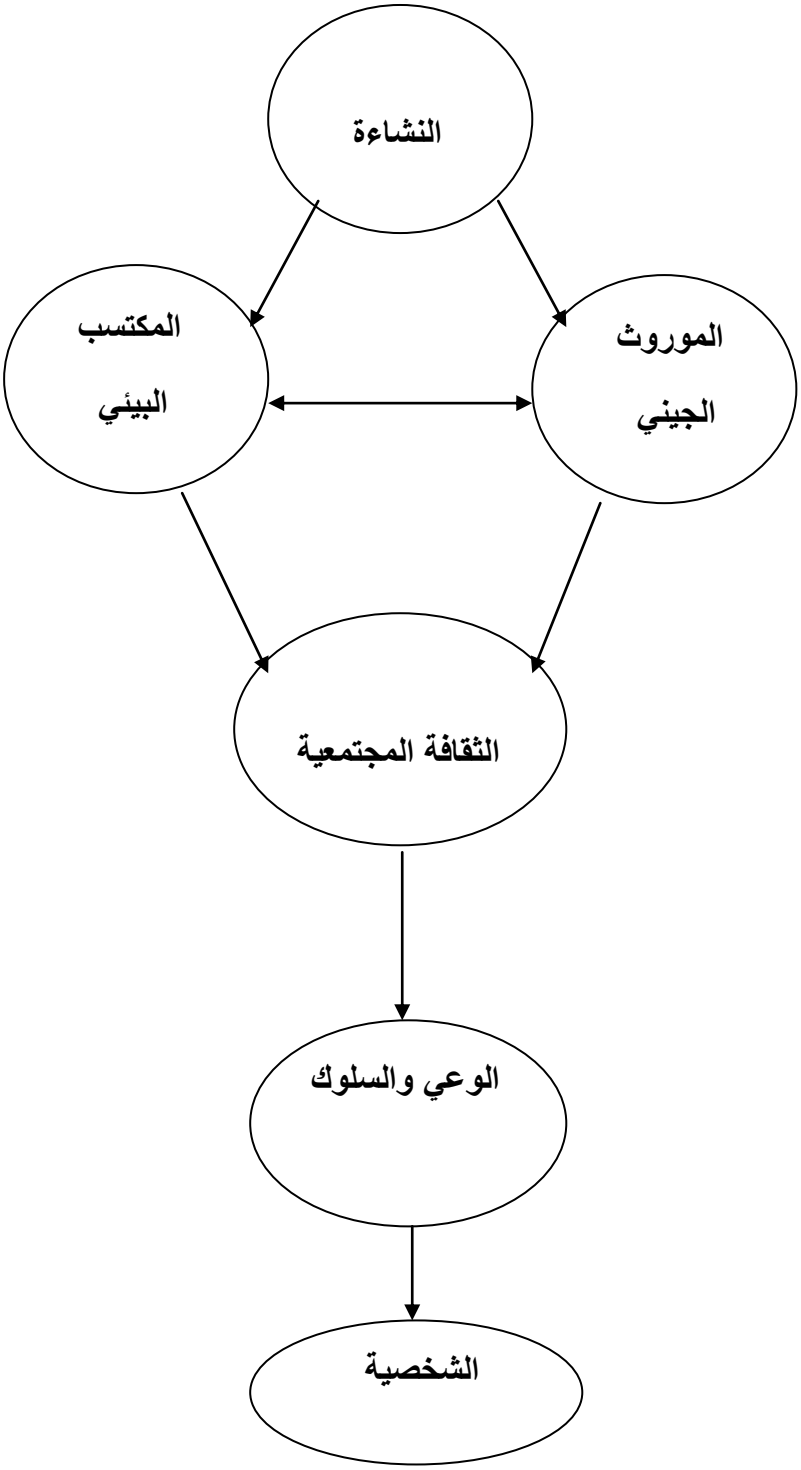

اولا : النشاءة :

التنشاءة هي النشئة التي اكتسبنا بها ثقافتنا الاولى . هي ماتم اكتسابه عنوة عنا, اسمائنا و معتقداتنا , ثقافتنا بعاداتها وتقاليدها , ملبسها واكلاتها ولغتها التي نتداولها . هي ما يتم بنائه في مايسمى بشخصيتنا في طبيعة الثقافة المجتمعية , التي تتضمن منظومات القيم العشائرية والدينية . اي الاعراف والشرائع . هي منظوماتنا القيمية الاولية التي منها , تعودنا ان الاحترام هو الادب والاخلاق هو الحاجز بين العيب ومحددات الخارطة التي علينا الالتزام بها .

من مجتمع النشاءة تكونت جنوسة الدماغ. اي هويتنا الجنوسية . هويتنا الذكورية . من تصاميم بيوتنا السكنية , التي بها مجالس الرجال عن مجالس النساء. في المدرسة والشارع وطبيعة الالعاب بين البنين والبنات. تتشكل ثقافتنا الاولية التي يليها ادراكنا ووعينا بما تعلمناه واكتسبناه من النشاءة. ان كانت طبيعة المكان بقربه او بعده عن مركز المدينة . طبيعته المكانية دينية ام عشائرية ام كلاهما يكمل الاخر . وهو وعي مجتمعي سائد في ثقافة المكان. او ان كانت مدينة دينية بها اضرحة الصالحين او مقابر لعامة الناس. كل هذه العناصر المكانية والثقافية . تشكل منظومات نكتسب منها ثقافتنا المكانية بما يتظمنه النشاط السكاني والعام للبيئة التي نكتسب ثقافتنا منها.

كلما كان النشاط الاقتصادي للبيئة غير منتجا اي خدميا , كلما تعددت الرموز فيه واصبحت لكل فصيل رئيس ووجيه يمثل جاه المكان. وكلما كان النشاط المهني متوفرا كلما تلاقفت الاجيال مهن الاباء في ثبات الحرف والمهن.

ثانيا : المكتسب البيئي:

يتاسس وعي الفرد والجماعة من خلال مايتم اكتسابه بيئيا . العائلة, الاصدقاء, المدرسة , والمجتمع . الاعلام والثقافة التربوية والتعليمية , بما فيها التنظيمات السياسية ومنظمات المجتمع المدني . والايديولوجيات التي يروج لها ضمن تنوع مصادر الكتب والادبيات في الاسواق والمكتبات .

المجتمعات التقليدية بما يؤسس لها من : النشاءة والمكتسب البيئي كمنتج ثقافي مجتمعي يحمل سلوكا بوعي ناضج ووعي زائف . كل ذلك مجتمعا ومتناغما فيما بين عناصره يؤسس للشخصية بهوياتها المتعددة , متضادة او متخاصمة . هويات مازومة ام هويات صنمية لاتقبل الاخر.

وهنالك تباين في وجهات النظر في تعريف الشخصية . ولكن توجد وقائع وحقائق اساسية في ان الشخصية متفردة اي هي وحيدة في ذاتها. فلايوجد شخصان حتى في التوائم المتماثلة , متماثلين في شخصيتهما. فكل شخصية لها مجموع العناصر الواردة في اعلاه والتي تؤثر في الشخصية .

ثالثا :الثقافة المجتمعية:

المجتمعات التقليدية قلما يتصرفون بوحي من المعرفة العقلانية والاستقرائية او التأملية. بل يتصرفون غالبا بوحي غريزي وانفعالي بدائيين. وهي احدى سمات الثقافة السكونية , اي ثقافة الركود . كونه نشاطها التعليمي يعتمد الاسلوب التلقيني في مناهجهه التعليمية المنمطة وفق مايتبئ بها من مناهج تؤسس لاستبدادات تعليمية لاترتقي لمنهجية النقد الواعي , والمبدع. من اجل خلق افكار تتغير وفق حاجات المجتمع التي تحتاج للتغير الدائم حسما تتطلها ثقافتها الواعية . ضمن ثقافات التلاقح مع ثقافات اخرى اكثر ديناميكية من ثقافات العقل العربي بذهنيته الاحادية .ونستطيع القول عموما ان كلا من العقل او النقد الابداعي لم يعش اي منهم في رحاب الاسلام حرا طليقا . بل عاش خلف ادلوجات من الحواجز المستورة.

فتاسسب ثقافات مجتمعية مكتسبة بايديولوجيات تتصف بالاتي:

1. ماينعكس في الذهن من احوال الواقع انعكاسا محرفا.

2. نسق فكري يستهدف حجب واقع يصعب او يمتنع عن تحليله او نقده.

3. نظرية او مفاهيم مستعارة او مترجمة لم يستوعبها المجتمع.

4. ظهور تيارات دينية احتكرت التاؤيل النصي . وان فسر البعض او اوّل فات تاؤيله تاؤيلا سايكولوجيا منحازا.

5. شيوع تقديس الجهل في الوعي الجمعي للثقافات المسيسة في تدين السياسة او تسيس الدين .

من هنا تنشأ الاستبدادات كمنتج لممارسات متعددة الجوانب كثقافة سائدة وجزء من الاعراف الاجتماعية التي تعلو على القانون وتشريعاته , ومن هذه الاستبدادات:

آ. الاستبداد العقائدي : هو القناعة بان اعمال الانسان ورزقه وعمره وخارطة مسيرته الحياتية مرسومة له منذ النشاءة.

ب . الاستبداد الفقهي : ماينسب للسلف الصالح , واحتكار التأويلات النصية , وتكفير من يخالف ذلك .

ج . الاستبداد السلطوي : استبداد الادارة والمناصب والنظام في مؤسسات السلطة والدولة . وتدار بتعليمات مختلطة بين تعليمات حزبية او بتعليمات قانونية.

ع . الاستبداد الاجتماعي : يتمثل في سطوة العشيرة ورجل الدين . مما يسبب اختلاط التشريع القانوني بالشريعة , حيث تسود الاعراف والحلال والحرام والمنكر والمعروف.

و . الاستبداد السياسي : الدكتاتوريات الحاكمة والتي تتفرعن في ممارساتها وتتعملق على حساب القانون , وعادة ما تعلوا ممارسات الواجبات المتعددة على المواطنين دون مكاسب حقوقية لهم.

ز . الاستبداد الاقتصادي : اكثر من قارون في ظل الاقتصاديات الريعية العائلية . ذات النشاط المحنط من حيث حركة المجتمع والابداهات التنافسية في نوعية الانتاج وفن الترويج والتسويق.مما يخلق تفاوت طبقي هائل بين شرائح المجتمع بين طبقات الفقراء والاغنياء.

جميع هذه الاستبدادات وغيرها تؤدي الى مظاهر التعصب ومنها : التعصب الحزبي , والقومي ,والطائفي , والعنصري, والغلو في تضخيم الذات والتعصب النرجسي وعلو الانا . التمادي في التعصب بانواعه هي ممارسات في الانحراف السلوكي بانواعه المتعددة واهمها:انحراف اخلاقي , انحراف فكري, انحراف عاطفي , انحراف نفسي , انحراف روحي . جميعها تمثل شيوع الانحرافات المجتمعية السائدة في معظم بلداننا.

رابعا : الوعي والسلوك في الشخصية:

كل سلوك يقترن بطبيعة الوعي الذي تمتلكه الشخصية . فالوعي بانواعه هوركيزة من ركائز العلوم الاجتماعية التي تهتم وتسعى بصناعة وعي ناضج يحدد ملامح عقلنة الوعي الجمعي لعموم المجتمع.

والوعي كخاصية إنسانية هو تلك المعرفة التي تكون لكل شخص بصدد وجوده وأفعاله وأفكاره فأن الشخص الواعي ,يتصرف طبقا للمعرفة التي تحركه وما اكتسب من بيئته. وهذه الازدواجية هي التي تميز الإنسان .
تختلف مدلولات الوعي من مجال إلى آخر، ومن مفهوم الى آخر. ويمكن أن نجمل الدلالة العامة للوعي فيما يلي (12) :
إنه ممارسة نشاط معين (فكري، تخيلي، عملي)، وإدراك تلك الممارسة. و يمكن تصنيف الوعي إلى أربعة أصناف وهي:
1) الوعي العفوي التلقائي: إنه ذلك النوع من الوعي الذي يكون أساس قيامنا بنشاط معين، دون أن يتطلب منا مجهودا ذهنيا كبيرا، بحيث لا يمنعنا من مزاولة أي نشاط آخر.
2) الوعي التأملي: إنه وعي يتطلب حضورا ذهنيا قويا مرتكزا في ذلك على قدرات عقلية كلية كالذكاء أو الإدراك أو الذاكرة.
3) الوعي الحدسي: وهو الوعي المباشر و الفجائي الذي يجعلنا ندرك الأشياء أو العلاقات، أو المعرفة، دون أن نكون قادرين على الإدلاء بدليل أو استدلال.
4) الوعي المعياري الأخلاقي: وهو الذي يسمح لنا بإصدار أحكام قيمة على الأشياء والسلوكيات بحيث نرفضهما أو نقبلهما بناءا على قناعات أخلاقية، وغالبا ما يرتبط هذا الوعي بمدى شعورنا بالمسؤولية اتجاه أنفسنا و اتجاه الآخرين.وقوة الارادة والوعي عادة ماتتسم بقوة الشخصية وكلاهما يعتمد على القوة الذهنية في اساليب القوة الفكرية. دائما الشخصية القوية , شخصية مفكرة وتمتلك مسقا متكاملا فن منهجية التفكير.
وفي العموم لايمكن ان نتفق على صيغة لتعريف الوعي ,وكل وعي مالم يتم التحقق منه يعتبر وعيا زائفا , ومع ذلك يكون الناس فرحين وسعداء بوعيهم المخدوعين فيه , وهم في حجاب الذات بوعيها عن ذاتها . وبهذا تتكون القناعات والعواطف واخلاق المجتمعات وثقافاتها عن بعضها.وهي مايتكون منذ النشاءة وتصبح ثقافة النشاءة كبيئة, معجونة في الوعي الناتج عن تلكم البيئة.وتصبح ماتمتلكه من وعي هي قناعات راسخة يصعب تقبل غيرها . وهو ما يؤسس لانغلاقات مجتمعية تقترب من الاستبدادات الفكرية والاجتماعية والرمزية في تاسيس مفاهيمها الاجتماعية . ويكون للاشخاص فيها عصبة القبلية ذات الوعي العاطفي الذي سرعان ما يتحول الى عواطف ذات وعي شرس حال الاقتراب من نقد ماتحمله من معتقدات تشكل حواضن وعيها السائد.
الفرق بين الشخصية والثقافة يعود الى الفرق في الاسس التي تقوم عليها كل منهما. فالشخصية تعتمد على دماغ الفرد وجهازه العصبي. اما الثقافة فتستند الى مجموع ادمغة الافراد الذين يؤلفون المجتمع.في الثقافة نميزالصحيح والخطأ , فهي اي الثقافة هي الضمير الحي عند الافراد ليكون الرقيب

القوي على سلوكهم ومواقفهم.وسنتابع في فصولنا القادمة نتناول ماورد عن الموروث الجيني في المخطط اعلاه .

الفصل الثاني عشر

المكان والمناخ(13)

أن علم الجغرافيا او علم الامكنة وعبقريتها , تُعد من العلوم الأساسية التى يُعتمد عليها فى تكوين ثقافة وشخصية الإنسان وسلوكياته وقيمه فى أى مكان كان . أنها تبحث فى العلاقة بين الإنسان والمكان بكل ما تحتويه من موارد طبيعية وما يترتب على هذه العلاقة من تحديد شخصية المكان التي تؤثر بشكل ملموس على شخصية الفرد . بل تصنعها بيئا وبتضاريسها واانهارها وجبالها ومناخها . والانسان جغرافي بالفطرة . ولاهمية الجغرافيا السلوكية البشرية ومدى تاثيرها على نوع الشخصية ومكانه او لابد من دراسة الشخصيات وانماطها وسلوكياتها. سنستشهد ببعض ماورد في نصوص مقدمة ابن خلدون دعما لاستنتاجاتنا التي سنملا فراغات علمية لم تتحصن ما استشهد به ابن خلدون ومصادره التي وردت فيها .

وضعّ ابن خلدون دور البيئة الجغرافية وامكانية تأثيرها على الحياة الاجتماعية والتي تخضع لقوى خارقة للطبيعة اي ماوراء الطبيعة , ويحلل ذلك بروح عصره ومدى تفهمه للجغرافيا وتغيرات المناخ وطبيعة المناطق الارضية ومدى تاثيرها على البشر وحياتهم الاجتماعية فالحرارة المفرطة على خط الاستواء تقلل انتشار البشر في هذه المنطقة و تجعل نشاطهم الحيوي عسيرا و مع ذلك يفضلون العيش في تلك الظروف . فنظرية الإقليم عند ابن خلدون هي نظرية المناطق الجغرافية ذات الشكل الموحد للاحوال الجوية والحرارية.

والإقليم يؤثر على الناس بثلاثة طرق :

الأول: أنه يحدث بعض الخصائص في تكوينهم الجسماني.

الثاني:وفي نطاق معين يحدد الخصائص والامزجة لجميع القبائل والامم

الثالث: انه يدفع أو يعوق طموح الناس إلى العمل ومثابرتهم في الحصول على وسائل البقاء، بمعنى انه يؤثر على التطور التاريخي للمجتمع .

يستخدم ابن خلدون في فصول الجغرافيا مفردات «ذكروا» و«قالوا»؛ لأنه علم غير مستحدث وهو منقول من واحد إلى آخر، ويذكر أنه نقل أخباره الجغرافية من مصدرين أساسيين :

بطليموس (كتاب الجغرافيا) وكتاب «نزهة المشتاق» ألفه العلوي الإدريسي الحمودي لملك صقلية من الإفرنج (روجار بن روجار) بعد خروج صقلية من إمارة مالقة صنف الإدريسي الكتاب في منتصف المئة السادسة وجمع له كتباً للمسعودي وابن خرداذبة والحوقلي والقدري وابن إسحق المنجم وبطليموس وغيرهم . فعلم الجغرافيا ليس علم ابن خلدون لذلك يكرر استشهاداته ويعززها بالكثير من المراجع الجانبية وآراء الفقهاء والحكماء من غير المدارس الجغرافية ومركزها الوسط والماء المحيط بها فوق الأرض وعلاقته بالأقاليم والبيئة والمناخ.

وعلى أساس نظريته الجغرافية يأتي على البحار المشهورة «التي ذكرها أهل الجغرافيا» ثم يأتي على الأنهار لدراسة الرطوبة وعناصر التكوين وقيام العمران وذكر ذلك كله ,بطليموس في كتابه والشريف في كتاب روجار. وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور . وبعدها يرسم صورة الجغرافيا كما رسمها الإدريسي في «نزهة المشتاق ، ويبدأ بمقدمته الثانية عن تاثير المناخ:

الأقاليم والمناخ

ويبدأ بتفصيل كل إقليم استناداً إلى بطليموس والإدريسي ويذكر ما في كل جزء من جزر وبحار وأنهار وشعوب وثقافات ويأتي على شرح عادات وتقاليد سكان ذاك الجزء ولغاته وعباداته وحيواناته ومصادر رزق الناس وأساليب معاشهم . ويعتمد في تفصيل المعلومات وتعزيزها على مصادر مختلفة من كتب الفتوح والبلدان والمعاجم فيذكر ياقوت الحموي وابن سعيد مراجع إضافية لضبط مفرد أو كلمة أو لفظ أو تصحيح أو مقارنة معلومة .
بعد أن يربط الأقاليم الجغرافية بريا يبدأ بتفصيل الأجزاء فيرى أن الجزء الأول من الإقليم الخامس العظمى كرسي ملك الإفرنجة ومسكن البابا بطركهم الأعظم. وفيها من المباني الضخمة «أكثره مغمور بالماء إلا قليلاً من جنوبه وشرقه» وتقع فيه «مدينة رومة .

المناخ والعمران

على أساس المناخ وتأثيره يبدأ صاحب المقدمة في دراسة العمران البشري بعد أن انتهى من تفصيل طبيعة أجزاء الأقاليم السبعة ويرى أن «المعمور في هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال» . فالوسط هو مركز العالم العمراني وأساسه الإقليم الرابع لأنه «أعدل العمران والذي حافتاه من الثالث والخامس اقاقرب إلى الاعتدال.

لم يكتفِ ابن خلدون بقراءة الجغرافيا كطبيعة ومناخ وبيئات بل ربطها بالتاريخ والثقافات والمناخ المتطرف .والديانات. فالمناخ المعتدل يحفظ العمران من التطرف ويساعد على الاعتدال يجعل العمران مضطرباً ويدفع كل الأشياء إلى التطرف الأجسام الطويلة ، الأمزجة الحادة، قلة الدين، وتطرف الأخلاق والثقافة.

الوحشة والتوحش

يرى محمد عابد الجابري في كتابه عن «العصبية والدولة» في فكر ابن خلدون أن صاحب المقدمة لم يقصد تحقير الشعوب عندما استخدم مفرد «توحش». فالقصد من استخدام الكلمة وصف ,النمط العام لسلوك القبائل المنفردة المنعزلة في البادية والصحراء منها بالخصوص. وورد في «مختار الصحاح» للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي أن الوحشة وأوحش المنزل أي أقفر وذهب عنه الناس . . (تعني الخلوة والهم (وقد أوحشه الله فاستوحش كذلك تعني (الوحش) حيوان البر الواحد . وذكر العلامة أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ في «المصباح المنير» المعنى نفسه . فالوحش ما لا يستأنس من دواب البر. وكل شيء يستوحش عن الناس فهو وحش . ونقل عن الفار ابي قوله إن الوحشة بين الناس تعني الانقطاع وبُعد القلوب . وأوحش المكان وتوحش أي خلا من الإنس لاشك في ان ابن خلدون لم يقصد النمط البهيمي من كلمة «توحش». فالنسبة ليست إلى الوحش(العزلة والخلوة والابتعاد والانقطاع) لأن مقياسه للتقدم هو الدين. وبقدر ما يتقدم الإنسان نحو التمدن والعمران بقدر ما يتقدم نحو الدين. فالدين إلى الاجتماع البشري والعمران والعصبية والمناخ والجغرافيا المعتدلة كلها عوامل مساعدة على تحقيق التقدم. والشعب الذي لا دين له هو أقرب إلى التوحش إذ لا نظام أخلاقياً يرتب علاقاته وسلوكه بل يعيش حالات انقطاع وعزلة تشبه حالات البهائم.

حتى تكتمل الصورة وضع ابن خلدون مقدمة رابعة (الهواء) في نظريته الجغرافية وقرأ تأثير الهواء على سلوك الناس. فإذا زادت الحرارة استولت على أمزجة الناس وزاد مليهم إلى الفرح والسرور والانبساط، أما إذا زادت البرودة نجد أهل الإقليم «مطرقين إطراق الحزن» (ص 93). وأبدى الباحث الألماني فون فيسندنك إعجابه بملاحظات ابن خلدون عن تأثير الجو وظروف الحياة في تكوين أخلاق البشر وأبدانهم وخصوصاً عندما ذكر «أن البربري يعيش في الصحراء عيشة العربي بينما يتخذ في مرتفعات جبال الأطلس صفات خاصة ويبقى مختلفاً عن العربي تمام الاختلاف» .

يجد ابن خلدون في الأخلاق أثراً من كيفيات الهواء في الأقاليم والبلدان (ص 93). الإقليم تتحكم فيه ظروف المكان من بيئة ومناخ وهواء وغذاء. ويرد في هذا المعنى على النظريات العنصرية السائدة في عصره ويرفض نظريات ضعف الأدمغة والعقول، ويسخر من المسعودي وكلامه في تحليل أسباب «خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم» ويتهمه بنقل أفكاره عن آراء جالينوس ويعقوب بن إسحق الكندي . ويتمسك ابن خلدون بنظرياته الجغرافية عن البيئات والمناخ والهواء ويغلّبها على نظريات السلالات والعقول والأدمغة لأن كلام الأخيرة «لا محصِّل له ولا برهان فيه» .

حتى يؤكد أن نظريته برهانية ملموسة ينتقل إلى شرح مقدمته الخامسة في موضوع الجغرافيا فيبدأ بالحديث عن اختلاف أحوال العمران في كل جزء من أجزاء الأقاليم. فالإقليم الواحد ليس موحداً بالضرورة في عمرانه . فوحدة المناخ والهواء (الاعتدال) لا تعني وحدة عمرانية أو وحدة متشابهة في السلوك والعادات والتقاليد . كذلك ليست أجزاء كل إقليم متطابقة في المناخ والأحوال والسكان والمعاش ، إذ ليس في داخل كل الأقاليم المعتدلة «يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش» .

هنا يضيف ابن خلدون إلى عناصر البيئة والمناخ والهواء عناصر الغذاء وتأثير نوعية الأطعمة على السكان ، إذ «إن كثرة الأغذية وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بعد اقطارها في غير نسبة، ويتبع ذلك انكساف الألوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم . وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها الرديئة ، فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة» .

يصنف صاحب المقدمة الشعوب ويوزعها بحسب طعامها وعناصر موادها الغذائية. فهناك شعوب بليدة وشعوب ذكية . كذلك «نجد جسوم أهل الأمصار ألطف من جسوم أهل البادية المخشنين في العيش» . وإذا حصلت مجاعة يموت أهل الشبع قبل أهل التقشف لأن «الهالكون في المجاعات إنما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق» . فعنده المسألة مسألة النفس إذا ألفت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التلون» (.»عادة وهي سابقة لأن فالزيادة في الطعام .ويفضل، والحال هكذا، الجوع (التقشف) على الإكثار من الأغذية والأكل تزيد من الرطوبات الفاسدة والمختلطة «المخلة بالجسم والعقل»

الفصل الثالث عشر

الهُوية وثنائية دجلة والفرات

ثمة خاصية واضحة في هوية العراق، موجودة أساساً في تكوينه وتفاصيل حياته بكل تجلياتها المادية السكانية والمعنوية الثقافية الحضارية، ألا وهي (الثنائية)!
يبدو إن هنالك ظروفاً بيئية داخلية وجغرافية خارجية حتمت هذه الثنائية العراقية. أول هذه الظروف وأكبرها تتمثل بثنائية (دجلة والفرات). لو قارنا العراق مع مصر، فأن تمركز مصر حول (النيل) جعلها متوحدة ومنطوية على ذاتها، سكانياً وحضارياً. أما العراق، فأن هذين النهرين الخالدين جعلاه ثنائياً ومنقسماً على ذاته سكانياً وحضارياً. وهذا الانقسام الثنائي، تناقضي وتكاملي بنفس الوقت، أو حسب الظروف. فان التناقض يستفحل في فترات الضعف والانحطاط، أما التكامل فيشتد في فترات الاستقرار والازدهار.
إن هذه الثنائية الداخلية النهرينية، قد تعززت بثنائية الموقع الجغرافي للعراق ، بين عالمين مختلفين كثيراً[14]:

ـ عالم شرق نهر دجلة: الآسيوي ـ الآري ـ التركستاني ـ الهندي ـ القفقاسي، حيث جبال زاغاروس والهضبة الايرانية الممتدة عبر هضاب افغانستان وآسيا الوسطى حتى الهند والصين. وأيضاً عبر سواحل الخليج حيث العلاقات البحرية مع العالم الهندي. كذلك عبر أعالي دجلة حيث الاناضول وجبال القفقاس.
ـ عالم غرب نهر الفرات: العربي ـ السامي ـ البحر متوسطي، حيث بادية الشام المرتبطة ببوادي الجزيرة العربية، وكذلك أعالي الفرات الممتدة غربا داخل الشام وسواحل البحر المتوسط.
وهذا الانقسام الجغرافي في المحيط، له امتداده في داخل العراق، فأنه منقسم أيضاً الى شمال وشرق جبلي وشبه جبلي، ثم جنوب وغرب سهلي وشبه صحراوي.
حضور الثنائية
هذه الثنائية (السامية ـ الآسيوية) ملحوظة في التكوين العرقي والثقافي للعراقيين. فهناك العرب والسريان (ساميون)، وهنالك الاكراد والتركمان (آسيويون). ثم هناك الثنائية الدينية ـ المذهبية، بين الشيعة والسنة.
يمكن مثلاً ملاحظة الناحية الثقافية الحضارية، حيث جمع العراقيين على مدى التاريخ، وبعبقرية بين الروحين الآسيوية والسامية. يكفي أن ننظر الى الغناء العراقي، فأنه يجمع بين الصوتين الآسيوي والسامي. حتى الطبخ العراقي فأنه يجمع بين هاتين الثقافتين. حتى أشكال العراقيين فأنها تجمع هذه الخواص البيئية المختلفة. على هذا المنوال يمكننا أن نشاهد كل الجوانب المادية والثقافية والبشرية والحضارية في الماضي والحاضر.
أما في التاريخ الحضاري فان هذه الثنائية الحضارية تكاد أن تكون ملحوظة حتى في العراق القديم، بين الآشوريين في الشمال، والبابليين في الوسط والجنوب. فرغم وجود الثقافة واللغة الواحدة والديانة الواحدة، إلاّ أن الآشوريين كانوا يقدسون أيضاً إلههم الخاص (آشور ـ الثور) رمز القوة والفحولة، بما يخالف البابليين الذين كانوا يميلون أكثر الى (تموز) رمز التضحية والفداء من أجل الخصوبة والحياة.
وبعد أن اعتنق العراقيون المسيحية، انقسموا أيضاً بين (نساطرة) في الوسط والجنوب و(يعاقبة) في

الشمال وبعض الوسط.
على هذا الاساس التنوعي في الجغرافية الخارجية والموضع الداخلي، فأن البيئة (الاقوامية ـ الثقافية) العراقية قد انقسمت الى نوعين مختلفين أكثر وضوحاً، تجمع ما بين (الموضع والموقع)، ألا وهي ثنائية (دجلة والفرات). آخذين بنظر الاعتبار ان هذا الانقسام البيئي الثنائي مصحوب أيضاً بأنقسام ثقافي ـ لغوي.

بيئة دجلة:

وتشتمل على كل المحافظات الواقعة مباشرة على نهر دجلة (نينوى وصلاح الدين وبغداد وواسط وميسان)، كذلك المحافظات الواقعة شرق دجلة (دهوك وأربيل والسليمانية وكركوك وديالى).
وتتميز هذه البيئة جغرافياً وطبيعياً وسكانياً بالخصوصيات التالية:
ـ من الناحية الجغرافية الخارجية فانها منفتحة على أكبر الهضاب الجبلية في المنطقة: من الشرق حيث الهضبة الايرانية الممتدة حتى هضاب أفغانستان وآسيا الوسطى. أما من الشمال فأن دجلة يصب من جبال (طوروس) المرتبطة بجبال القفقاس.
ـ من ناحية الطبيعة الداخلية فانها متنوعة التضاريس، حيث تكثر الجبال والمرتفعات في شمالها وشرقها وخصوصاً في المناطق المحاذية لأيران (جبال زاغاروس) وتركيا (جبال طورس). وتحاذي الجبال بمسافات قريبة امتداد دجلة حتى مصبه في شط العرب. وتتكاثر الاهوار الكبرى والانهار (مثل الكارون) في الجنوب.
ـ أما من الناحية السكانية، فأن الخصوصية الكبرى الملحوظة، هي التنوع السكاني الكبير جداً من النواحي اللغوية والدينية والمذهبية. بل يمكن القول ان جميع الفئات العراقية المختلفة لغوياً ودينياً تعيش على أو شرق دجلة: (عرب، أكراد، تركمان، سريان " كلدان وآثوريين"، يزيدية، شبك، فيلية، أرمن.. الخ)..
بينما الفرات يجلب الانتباه بأن جميع سكانه، بما فيه القسم السوري، هم (عرب مسلمين)!
إن موقع نهر دجلة المحاذي لأكبر السلاسل الجبلية في الشرق الاوسط، وكذلك موقعه المنفتح على أكبر هضاب آسيا، جعله مكانا دائماً لاستقبال الموجات الاقوامية التالية:
ـ الموجات الكردية، وهي أكبر الموجات الدائمة لأنها الاقرب ولأنها تأتي من جبال زاغاروس المحاذية.
ـ الموجات الآرية القادمة خصوصاً من الهضبة الأيرانية.
ـ الموجات التركستانية القادمة من هضاب آسيا الوسطى.
ـ الموجات القفقاسية والاناضولية القادمة من جبال طوروس والقفقاس.
كل هذا جعل بيئة دجلة متنوعة بشكل كبير من الناحية الاقوامية واللغوية، وخصوصاً في المنطقة الواقعة شمال شرق دجلة (دهوك وأربيل وكركوك والسليمانية وديالى) وهي المحاذية مباشرة للجبال والهضاب المذكورة. وهي متنوعة لغوياً حيث تسود اللغات الكردية (السورانية والبهدنانية والخانقينية) وكذلك التركمانية والسريانية بالاضافة الى العربية.
أما مناطق ضفاف دجلة (نينوى وتكريت وسامراء وبغداد والكوت والعمارة) فأن موقعها البعيد نسبياً عن عن الحدود الجبلية وموضعها السهلي، جعلها أكثر قدرة على الامتزاج السكاني والثقافي وسيطرة لغة واحدة طيلة التاريخ: الأكدية، ثم الآرامية ثم العربية. لكن هذه الانسجام الاقوامي اللغوي، لا ينفي حقيقة ان الاصول السكانية لهؤلاء السكان، بما فيهم سكان الاهوار، متأثرة كثيراً بالعناصر والقفقاسية والكردية والآرية والتركستانية..
إن أهم ميزة ثقافية ـ لغوية لهذه البيئة هي (التنوع) حتى في داخل المجموعة الثقافية والمدينة الواحدة. فلو أخذنا الاكراد مثلاً، فهنالك اللغات السورانية والبهدنانية والخانقينية. لو أخذنا (مدينة أربيل) فأنها كانت تاريخياً بغالبية (سريانية) ثم في القرون الأخيرة أصبحت مركزاً لوجود تركماني كثيف، ثم أخيراً

منذ بضعة أجيال أصبحت بغالبية كردية.
إن محافظة (كركوك) تعتبر أيضاً أفضل نموذج لهذا التنوع الكبير في (بيئة شمال شرق دجلة)، حيث التعايش التركماني ـ الكردي ـ العربي ـ السرياني ـ الارمني. كذلك العاصمة (بغداد) فأن تنوعها الكبير لا يعود فقط لأنها عاصمة الوطن، بل أيضاً لأنها تقع على دجلة.
من الناحية التاريخية الحضارية فأن (نينوى) تعتبر مركزاً حضارياً عراقياً بخصوصية (دجلوية)، حيث شكلت مركزاً جامعاً لكل التنوعات الاقوامية والثقافية لبيئة شمال دجلة، مع سيادة الثقافة السامية (الاكدية بلهجتها الآشورية). خلال آلاف الاعوام ظلت (نينوى) الآشورية، في حالة تنافس سياسي وتكامل حضاري مع (بابل) التي مثلت الحضارة العراقية بخصوصيتها (الفراتية).
ليس صدفة ان شمال العراق أجمعه، بقي في ظل الدولة العثمانية، تابعاً ادارياً وثقافياً واقتصادياً الى الموصل. ان مركزية الموصل بقيت بالنسبة الى شمال دجلة حيث أهميتها الاقتصادية والتجارية ودورها الكبير والمؤثر على أصقاع شرق دجلة المتنوعة والمختلطة لأقوام عربية ريفية وشبكية ويزيدية وكلدانية وسريانية وكردية بهدينانية وتركمانية، وما يتفرع من كل هذه الاصول من ثقافات تجد ألوانها شاخصة في الموصل التي تعتبر متحفاً لثقافات لا حصر لها أبداً.

بيئة الفرات:

وتشتمل على المحافظات الواقعة على نهر الفرات أو قربه : (الانبار، كربلاء، النجف، بابل، القادسية، المثنى، ذي قار). وهي بيئة مختلفة تماماً عن بيئة دجلة، من حيث طبيعة الموقع والموضع، وبالتالي من حيث التكوين السكاني واللغوي.
من ناحية الموضع، فأن بيئة الفرات شبه صحراوية وسهلية منفتحة. وهي من ناحية الموقع، فأنها متصلة من الجنوب الغربي ببادية الشام الممتدة جنوباً الى بوادي الجزيرة العربية، أما من الشمال الغربي فأنها تتصل في نواحي سوريا حتى ضفاف البحر المتوسط.
لهذا فأن بيئة الفرات ظلت دائماً من الناحية الاقوامية والثقافية، بيئة (سامية بحر متوسطية)، تسودها دائماً وحدة لغوية سامية (أكدية ثم آرامية ثم عربية)، مع تأثير واضح بالقبائل الرعوية وكذلك ثقافة الشام والبحر المتوسط والجزيرة العربية.
من الناحية التاريخية الحضارية فأن (بابل) تعتبر مركزاً حضارياً عراقياً بخصوصية (فراتية)، حيث شكلت مركزاً جامعاً لكل التنوعات الاقوامية والثقافية لبيئة الفرات، حيث سادت الثقافة السامية (الاكدية بلهجتها البابلية). خلال آلاف الاعوام ظلت (بابل)، في حالة تنافس سياسي وتكامل حضاري مع (نينوى) التي مثلت الحضارة العراقية بخصوصيتها (الدجلوية).
الثقافة (النهرانية) الجامعة
إن الثقافة العراقية منذ فجر التاريخ وحتى الآن، هي ملتقى هاتين البيئتين المختلفتين المتكاملتين، أقوامياً ولغوياً. إن هذه (الثنائية) هي نوع من (القدر) الجغرافي التاريخي الذي يميز العراق منذ الازل:
ـ بيئة دجلة الآسيوية الجبلية
ـ بيئة الفرات السهلية شبه الصحراوية البحر متوسطية
هنالك ثلاث مدن رئيسية جمعت بين هاتين البيئتين المتناقضتين المتكاملتين:

نينوى وبغداد والبصرة:

إن (بغداد) تعتبر أفضل مثال على هذه الثقافة النهرانية الجامعة لبيئتي دجلة والفرات. رغم ان بغداد تقع

على نهر دجلة، إلاّ أنها تتميز بناحيتين:
ـ انها تقع في أقرب نقطة يقترب فيها النهران، وهذا ما جعلها فعلاً ملتقى لهذين البيئتين.
ـ انها تقع في وسط بلاد النهرين، بين الشمال والجنوب.
إن العبقرية العراقية (العباسية) هي التي اختارت (بغداد) في هذا الموقع الوسطي الجامع بين الشمال والجنوب، ودجلة والفرات، من أجل تجنب الخطأ الكبير الذي وقع فيه أسلافهم، عندما ظلوا مشتتين بين مركزين متنافسين (نينوى) و(بابل).
إن بغداد منذ تأسيسها وحتى الآن، ظلت تعبّر بصورة مكثفة عن التكوين الاقوامي والثقافي لبيئة دجلة، حيث يمتزج فيها العربي مع الكردي مع التركماني مع السرياني مع الارمني مع الصابئي، كذلك هي ملتقى جميع الاديان والمذاهب العراقية.
رغم ان ثقافات عالم مابين النهرين دجلة والفرات متنوعة وشاملة للبيئتين، إلاّ أنها ظلت عموماً (سامية ـ عربية) لكونها أرض سهلية (تسهل) عملية التمازج وتفرض على الجماعات الجبلية أن تفقد قولتها الثقافية وتمتزج بالثقافة السهلية (السامية ـ العربية).

أما (البصرة) فأن لها خصوصيتها العراقية الشمولية، من النواحي السكانية والثقافية. فهي جامعة للنهرين في نهر عراقي عظيم ثالث هو شط العرب. ثم ان البصرة، من دون المدن العراقية، جمعت في موقعها بين مختلف المؤثرات الجغرافية المحيطة: بيئة البادية الممتدة ناحية الغرب حيث الشام والجنوب حيث الجزيرة العربية. أما من الشرق فبيئة ايران وجبال زاغاروس القريبة ناحية الاحواز. يضاف الى هذا جغرافية جديدة خاصة بالبصرة، ألا وهو الخليج العربي الممتد حتى المحيط الهندي وجنوب آسيا. ومن هذا الخليج ارتبطت البصرة بالسواحل العربية والسواحل الايرانية والهندية، بل حتى مع السواحل الافريقية. كل التنوع الجغرافي البيئي، جعل البصرة مركزاً حضارياً وسكانياً كبيراً ومتميزاً له خصوصيته الجامعة الشمولية التي تجتمع فيها المؤثرات السامية ـ العربية، والايرانية والهندية والافريقية.

لماذا بقي العراق دائما بلغة سامية ـ عربية؟

منذ فجر التاريخ وحتى الآن، رغم كل الفترات التي سيطرت بها الدول والسلالات الآسيوية (الايرانية ـ التركستانية ـ القفقاسية) على العراق، ورغم الحضور الفعلي للجماعات الآسيوية في ثنايا الشعب العراقي، إلاّ أنه ظل دائماً (سامياً ـ عربياً) من النواحي الحضارية واللغوية. يجب التوضيح، إننا مع القائلين بأن (اللغة السومرية) لا تمثل شعباً، بل هي لغة اصطنعها الكهنة الاكديون (راجع تفاصيل هذه الفرضية في ملف اللغات العراقية القديمة من موسوعة , سليم مطر .اللغة العراقية.

هذه الهيمنة الثقافية السامية لا تعود، كما يظن للوهلة الاولى، الى كثرتهم العددية، بل الى السبب التالي المختلف نوعاً ما:
ـ ان الجماعات الآسيوية لم تكن متجانسة وموحدة حضارياً ولغوياً، مثلما هي الجماعات السامية.
نعم ان الجماعات الآسيوية ظلت دائما مختلفة الاصول والثقافات، آريون، أكراد، أتراك، قفقاس (أرمن وشركس وغيرهم). بينما الجماعات السامية، على الاقل خلال كل حقبة طويلة من الزمن، موحدة ثقافياً: الاكدية، ثم الآرامية، ثم العربية. بالاضافة الى ان هذه اللغات مكملة لبعضها البعض.

الفصل الرابع عشر

لغز التمرد العراقي في ظل الدولة

الدولة حاضنة المجتمع وراعية للمصالح العامة. وللدولة حق عام لايحق لاحد التنازل عنه.

الدولة الصلدة والدولة المرنة (15)

- **لكل دولة فلسفة / سياسة تشكل بنيتها بالعمق وعلى أساس من هذه البنية يمكن الحديث عن تطور أوركود أو فشل هذه الدولة أو تلك ، فالبنية الذاتية للدولة والتي تشكل جوهرها هي التي تقبل أو ترفض الإصلاح أو التكيف أو التطور استناد اً الى أسس ومعايير الدولة فلسفياً وقيمياً والتي تتبلو ر بدورها كنظام سياسي يتشكل على وفق من هذه القيم والمعايير والأسس ثم يترجم النظام السياسي بنية النظام .كسياسات وأداء واستجابة لاشتراطات وتحديات البقاء والتطور لنظام الدولة السياسي للدولة إنما هو بنية تقوم على فلسفة تنتج عنها سياسة ، وهو أيضاً جملة أسس ينتج عنها أداء ، والبنية والأسس متلازمتان لا انفصام بينهما في أصل نشوء الدولة وفي حركتها تطوراً أو ركوداً وفشلا ، فمثلاً يمكن للنظام السياسي الديمقراطي التكيف والتطور والاستجابة للتحديات بحكم بنيته المرنة القادرة على تصحيح الأخطاء واحتواء التناقضات وأسسه القادرة على مجاراة التطور التاريخي للمجتمعات ، في حين ترفض بنية النظام الدكتاتوري وأسسه أية امكانية للإصلاح أو التطور بحكم الطبيعة الصلدة المتكلسة للنظام ، ولا يمكن تحقيق والتطور لفعل الدولة المأسورة دكتاتورياً إلاّ بتغيير بنية النظام ذاتها والأسس التي قام عليها ذاته ينطبق على النظام السياسي التوافقي القائم على أساس من فكرة المكونات العرقطائفية فهو لا يشذ عن هذه القاعدة ، فأي حديث عن اصلاح النظام التوافقي العرقطائفي هو حديث لا حظ له من التطبيق دون تغيير جوهري في بنية النظام السياسي القائم وأسسه المعتمدة. جوهر صلد كما أنَّ الأنظمة الثيوقراطية والأبوية والدكتاتورية والشمولية أنظمة صلدة متصلبة بطبيعتها فإنَّ الأنظمة السياسية التوافقية العرقطائفية أنظمة صلدة بطبعها أيضاً، إنها أنظمة ذات جوهر راكد وقوى سياسية سكونية تفتقد شروط التطور الذاتي المستوعب للتحولات في مسيرة الدولة وتصد من القدرة الاستيعابية التي تتطلبها الدولة ككيان حيوي ينفعل ويتفاعل على طول التاريخ . الدولة كيان حيوي الدولة هي امبراطورية قوانين ومملكة مؤسسات وهرم سياقات تعبر عن الإرادة العامة لمجموع المواطنين وهي مظهر صير ورتهم التاريخية التي تتناسب ووعيهم ودرجة تطورهم ونموذج حاجاتهم المتحوّلة والمتنوعة سياسياً واقتصادياً وثقافياً وتنموياً. على هذا الأساس فالدولة المؤسسة القانونية الضابطة والمعبرة عن جمهورها هي كيان شرعي حيوي وفعّال ويجب ألاّ تعرف الخلل في**

شرعيتها أو السكون في حركتها أو الثبات في تطورها ، ومتى ما فقدت الدولة الشرعية أو شهدت الركود فالنتيجة الحتمية هي الإنفصام والجمود ثم الفشل فالفناء ، فالتسلط يحتاج الى الشرعية على طول الخط، والتطور التاريخي يلزم الدولة بتطوير قدراتها وإدارتها وسياساتها ، والتحولات الجوهرية بمستوى مجتمعات الدولة يحتم على نظام الدولة مجاراته والتعبير عنه كأداء مؤسسي . حيوية الدولة هنا لا تنتج إلاّ على أساس من الشرعية ومدى تعبير هذه الشرعية عن جمهورها، فالدولة الفاقدة للشرعية لا يمكن أن تعبر أو أن تتلاءم مع إرادة مواطنيها فتكون فاقدة لعناصر الانتماء والولاء والتفاعل وبالتالي فاقدة لشرعية التمثيل فتكون مخالفة لإرادة المواطنين فمعزولة فراكدة فساكنة فسلبية. أيضاً، حيوية الدولة تتجسد بقدرة نظام الدولة السياسي الشرعي على التكيف واستيعاب التطورات والتحديات، والتكيف لا ينتج إلا إذا كانت بنية الدولة بنية مرنة ذات جوهر حي ومتفاعل وحرك قادر بذاته على تصحيح الأخطاء واستيعاب التحولات والتكيف مع التطور التاريخي للوعي الشعبي وحاجاته ولفعل الدولة في تجلياته وتطبيقاته المتنوعة. الدولة كيان حيوي ينمو ويتطور في علاقة تبادلية تضامنية تكاملية مع جمهورها على أساس من بُعد الشرعية وبُعد الوظيفة وبُعد المرونة ووفق فلسفة المواطنة الفعالة والديمقراطية التمثيلية والمدنية المتطورة ، وهي ككائن حيوي مؤسسي يزدهر بالحركة والتفاعل والديناميكية الذي تنتجه التعددية المضمونة بسيادة القانون والحريات العامة فالدولة على هذا الأساس مشروع استجابة دائم لتحديات دائمة لا ..والمدعوم بالتنمية المستدامة، تعرف السكون كما تعرفه الأنظمة السكونية الصلدة . الأنظمة الصلدة الذي يصيب تطور الدولة بمقتل هو بنيتها الصلدة ، فالدولة التي تتلبس الشرعية زوراً وتتكلس على جوه و يعارض أي تطور تعكسه إرادة المواطنين أو حاجات الدولة المتنوعة أو تجدد التحولات أو الاستجابة المباشرة للتحديات . مثل هذه الدولة لا يمكنها البقاء فضلاً امكانية التطور. الأنظمة السياسية الصلدة هي بنية وكتلة، فهي تعبير عن كل بنية تقليدية فاقدة لشرعية السلطة وممارسة الحكم، وهي تعبير عن كل كتلة سياسية من حزب أو مؤسسة أو نخبة متحجرة وقفية ترفض التطور انطلاقاً من فلسفتها الآيديولوجية الرافضة للتعددية أو استناداً الى احتكارها للتمثيل الشرعي أو انطلاقاً من الحفاظ على مصالحها التي تتهدد بالتغيير. على ذلك فالأنظمة السياسية الصلدة هي أنظمة سكونية تحافظ على الواقع ساكناً راكداً كما ه و، وقبال كل تحدٍ تناور وتلتف وتدور في ذات المربع دون المغامرة بالتغيير الذي تطلبه الجماهير أو تتطلبه مسيرة الدولة أو تبتغيه حركة التطور التاريخي ، مثال ذلك الأنظمة الثيوقراطية والأبوية والدكتاتورية والشمولية المتلبسة للشرعية بفعل التوارث أ و الإدعاء الثوري أو الآيديولوجي للحكم ، إنها أنظمة سياسية سكونية ذات بنية صلدة متمحور ة على فلسفة الاحتكار للدولة وعلى حملها أمة الدولة ودولة الأمة على رؤية ونسق وسكة محددة لا تغيير لها، وكل تغيير هو تهديد لكيانها ووجودها ومصالحها، لذا هي تعارضه وتقمعه، وإذا ما شعرت بقوة التهديد فإنها ستناور لهدف إفراغ التغيير من محتواه أو لكسب الوقت بغية تفكيكه. أنظمة فاسدة غالباً ما تكون الأنظمة الصلدة المتكلسة أنظمة فاسدة ، فكما هي فاسدة على مستوى التمثيل والشرعية فهي فاسدة أيضاً على مستوى الأداء ومستوى النزاهة الطهورية ، هي أقرب الى مقاطعات عائلية أو حزبية أو نخبوية تملك وتتحكم وتدير السلطة والثروة بعقلية الامتياز لا بعقلية المسؤولية، فالدولة ضيعتها والجمهور عبيدها والثروات خاصتها. الأنظمة السكونية الصلدة وإن تمظهرت بسلطات ومؤسسات وأحزاب ونخب وآيديولوجيات وادعاءات. إلاّ أنها ككل كتلة تعمل خارج إطار التاريخ التطوري للأمة السياسية التي هي الدولة، وهي كتلة منفعة تجهد لبقاء المُلك بيدها وتسعى لبقاء الواقع كما هو ساكناً لضمان بقاء الامتياز، امتياز السلطة والثروة. أنظمة كهذه لا يمكنها التطور، طبيعتها تأبى ذلك، وإذا ما حاولت التطور فإنها ستنهار، لذا فالحل يتحقق بإزالتها كفلسفة ونظام وثقافة ونهج، بدليل أننا لم نشهد نظاماً أبوياً أو ثيوقراطياً أو شمولياً أو آيديولوجياً ثورياً يتطور من داخله بما يتناسب وحركة التطور التاريخي للمجتمعات والدول، بل رأيناه ينهار، والسبب يكمن في بنيته وطبيعته. إنَّ الأنظمة السكونية الصلدة أنظمة متكلسة وفاسدة بالنتيجة، وهي تُزال ولا تصلح. النظام التوافقي النظام السياسي التوافقي نظام سكوني صلد بطبيعته يأبى التطور وعاجز عن الاستجابة للتحديات وراكد يرفض التغيير وهو فاسد بالضرورة، أقصد بالتوافق هنا التوافق العرقطائفي المحاصصي الذي يقوم على وفق مبدأ

سياسي يتمحور حول تقاسم الثروة والسلطة والسيادة بين مكونات الدولة العرقية الطائفية الإثنية، ولا أريد به التوافق السياسي ، فالتوافق السياسي طبيعي ومشروع في عرف الدولة. سكونية النظام التوافقي العرقطائفي وركوده ينتج عن أمرين يخلق أحدهما الآخر ويحرسه، وهما: الانقسام والتوازن، انقسام أمة الدولة الى مكونات والتوازن بين سلطات المكونات ذات الهوية السياسية الفرعية الناجزة، فحين يقيم النظام التوافقي العرقطائفي بنيته على أساس من مبدأ المكوّن – على حساب المواطنة – في الاعتراف والحماية والمصلحة والسيادة فإنه يؤسس لانقسام أمة الدولة الوطنية ويبقيها أمماً عرقطائفية متمحورة حول هوياتها الفرعية وقواها العرقطائفية وسلطاتها المعبرة عن مصالحها، فتنتج لدينا صيغة توازن الأمم الفرعية داخل أمة الدولة ، فلكل أمة عرقية أو طائفية أو إثنية فرعية هويتها ومصالحها وسلطاتها وقواها السياسية التي تعبر عنها، وهو ما ينتج التوازن السلبي في سلطات الأمم الفرعية التي يسلّحها النظام التوافقي بالفيتو الخفي أو المعلن لتحقيق الشراكة والتوازن، الشراكة التي تتجسد من خلال نظام المحاصصة العرقطائفي الحزبي الذي يبتلع الدولة، والتوازن الذي يصادر مبدأ الحسم لإدارة فعل الدولة. النظام السياسي التوافقي العرقطائفي نظام طوائف سياسية متساوية الاعتراف والقوة تشل إحداها الأخرى لتحقيق التوازن وهذا ما ينتج السكونية السياسية العقيمة، وهو أيضاً نظام التماهي بين السلطة والطائفة والحزب وهذا ما يخلق الإقطاعيات السياسية المنتفعة من النظام (سلطة فتحارب التغيير. إنه نظام دويلات مقنّع لا يمكن المراهنة على تطوره كدولة، ونظام أمم متقوقعة (وثروة لا يمكن المراهنة على تطورها كأمة وطنية ، وهو نظام تتجسده وتتقمصه قوى سياسية عرقطائفية لا يمكن المراهنة على تطورها كقوى وطنية مدنية،.. والسبب كل السبب يكمن في بنية النظام العرقطائفي القائم على أساس من فكرة المكوّن السيادي على حساب المواطنة الديمقراطية،.. لذا فهو نظام سكوني صلد يأبى التطور ذاتياً . الدولة عبارة عن مؤسسة سياسية جامعة وسلطات مدنية محايدة، ومتى ما افترستها الهويات والسلطات لأممها الفرعية فستموت، وموتها هنا هو موت مشروعها الكلي الجامع، عندها ستنوء بنفسها فتركد مسيرتها ويتوقف تطورها وتشهد السكون المميت،.. فلا هي دولة متماسكة تستند الى أمة سياسية واحدة وسلطات تضامنية تدير فعل الدولة، ولا هي مقسمة ناجزة التقسيم على وفق أقيسة هوياتها العرقية الطائفية الإثنية فتريح وتستريح. لا يمكن للدولة البقاء فضلاً عن التطور إلاّ إذا كانت ذات طبيعة مرنة تستجيب لتطور المجتمعات الذي تفرضه حركة التاريخ.

الدين والدولة تاريخا وحاضرا :

من اهم ما يجب ان يعمله العراقي – البابلي –المتدين هو ان يشترك في طقوس المواكب الطويلة . كمواكب الكهنة التي كان ينقلون فيها صورة مردوخ من هيكل الى هيكل , ويمثلون فيها مسرحية موته وبعثه المقدسة , او ام يحضر هذه الاحتفالات وهو خاشع, وان يطلي الاصنام بالزيوت العطرة , ويحرق البخور بين يديها و ويلبسها احسن الثياب واغلاها , او يزينها بالجواهر , وان يقدم عرض ابنته العذاء في احتفال عشتار العظيم , وان يقدم الطعام والشراب للالهة , وان يكون كريما مضيافا للكهنة[16] .

الوجه الثاني للطقوس هو وجه مؤدلج لصالح رجل الدين - وهو الكهنوت وحلفه , مع السياسي وليس لغايات دينية طاهرة ومقدسة . فكان الكهنة يجنون ارباحا مادية هائلة جعلت منهم طبقة مترفه على حساب عامة الشعب . اما السلاطين فكانوا يجنون الولاء المطلق من المشاركين اثناء الطقوس وهذا يساعد على توطيد دعائم سلطانهم لفترات طويلة. لذا نرى الدين عند البابليين مثلاو لم يؤدي الى تغير سلوكي مهم في الحياة الاجتماعية[17]

كان الدين عند البابلين ومازال عند معظم العراقيين من تاسلم من العرب في القرن الواحد والعشرين بانهم جميعا يهتمون بمايعنيهم من مراسم الطقوس الدينية اي كانت حجا او مراسيم اخرى دينية ومذهبية هي في كيفية اداء الطقوس او الماسم بشكلها الصحيح و بما فيها تادية القرابين اللائقة وتلاوات الصوات والادعية المناسبة . لكن في وسعه ان يفقأ عين عدوه ويقطع ايدي الاسرى وارجلهم ويشوي اجسادهم حرقا وهم احياء . وباسم الجلالة ينحر من يعبد الجليل الاعلى.

فالشخصية العراقية بذاتها وكينونتها , تعيش في فضاء الثنائيات المتضادة بين المقدس والمدنس اوبين تقدسي الاخرة و وبين فساد الدنيا . كذلك بين الحرب والحب وبين الايديولوجيا واليوتوبيا. حتى اذا وصلنا عصر الخلفاء الراشدين وعصر الامام علي وذريته تحديدا. نرى الشخصية العراقية في عواطف وانفعالات متناقضة وقيم متصارعة. فقد احبوا عليا وذريته حبا جما , لكنهم انقلبوا عليهم واعلنوا الحرب ضدهم . ونعتقد ان الطقوس الاسطورية \ الدينية على اذكاء هذا التناقض بين القيم الدينية المقدسة والدنيوية المدنسة , وكم هي واسعة وكثيرة.

ولولع العراقيين في بناء واعادة بناء المعابد المهمة المقدسة . وهو ما حدث في اسطورة الكاهن النداب واسمه : كالو . فلدى تداعي اي معبد مخصص لاله , كان ينتج عنه في اعتقاد السومريين والاكديين هجر الاله لمعبده وبالتالي هجره للمدينة التي هو حاميها , مايستوجب الندب والنواح من قبل المكلف بمرافقة طقس الترميم او اعادة البناء وتلاوة الصلاة الملائمة لمثل هذه المناسبة. والنداب الكالو هو الذي يتدخل لاستخراج آجرة اساس المعبد الجديد . وعند ذلك كان على " الكالو" تهدئة غضب الالهة بتلاوة الصلاة , ترافقها الآت النقر.

الصراع بين بيئة المكان والدولة (18)

حركات وانتفاضات وثورات احتجاجية كان معظمها على مقربة من نهر الفرات في المدن المحاذية والمتاخمة للفرات وليس لنهر دجلة. ففي زمن الخلافة الراشدة والمعارك ضد الفرس بقيادة خالد بن الوليد والمثنى وسعد بن ابي وقاص مرورا بحروب الامام علي ومن ثم مقتل ابنه الحسين صعودا الى ثورات التوابين والمختار وزيد بن علي وحركة ابن الجارود والزنج في البصرة , ثم حركة الشيباني والمطرفبن مغيرة وثورة ابن الاشعث وغيرها في عهد الامويين . كذلك هي الثورات التي حصلت في عهد العباسيين , فكانت فراتية كثورة ابي السرايا ويحيى بن عمر والقرامطة وثورات الزيدية.

وفي العصر الحديث فان التمرد سيكون فراتي المنبع ايضا, كثورة العشرين وظهور حزب الدعوة (ولو تجاوزنا التمر د الديني فنشهد ظهو ر الاحزاب اليسارية والقومية من اصلها الفراتي جميعها مناؤه للدولة) . كما كانت الانتفاضات في صفر والشعبانية , والحركات الاخرى . كما دخل تنظيم القاعدة ليؤسس تنظيمه الارهابي من غرب الفرات , ليقمع من قبل العشائر الفراتية في الفلوجة والانبار. ثم عاود مرة اخرى ليتسع الى محافظات اخرى ومنها الموصل , بكل ماتحمل من ارث حضاري .اضافة لتكريت صلاح الدين التي نعرف ماهيتها العشائرية المؤدلجة . باجندات تعدت الامكنة وحواضنها ومازال القتال جاريا لطرد دواعش العصر من العراق. ان الفرات يؤثر بالكوفة ما جعلها تؤثر به بشكل متبادل . لقد اثر الفرات –الطبيعة بالكوفة فجعل منها موطنا للاهواء والنحل كما

يرى ابن وغرب الفرات . شرق المناطق منها قاعدة عسكرية متميزة للسيطرة. واصبحت الكوفة بفضل الفرات مركزا تجاريا مرموقا يربط الشرق بالغرب . يقول الامام علي بن ابي طالب : الكوفة كنز الايمان وحجة الاسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث شاء. ويجري سفيان بن عيينة المقارنة التالية : خذوا المناسك عن اهل مكة وخذوا القراءة من اهل المدينة وخذوا الحلال والحرام عن اهل الكوفة : فالمناسك والقراءة لاتحتاج الى الممارسات العقلية كما عليه فقه الحلال والحرام . يعود ذلك الى ان الكوفة قد احتضنت المدرستين الفقهيتين الرئيسيتين اللتين ميزتا العالم الاسلامي وهما مدرسة الامام الصادق ومدرسة الامام ابي حنيفة

لكن تدين اهل الكوفة ادى بهم الى ميول عقلية جدلية تنم عن نزعة شكية وشخصية متمردة, ولديهم اعتداد بعقولهم الى حد الاحتجاج ضد الدولة, يقول فيهم عمر : اعضل بي اهل الكوفة,مايرضون بامير,ولايرضاهم امير [19] ويقول ايضا:اعياني اهل الكوفة ,ان استعملت عليهم ليناً استضعفوه, وان استعملت عليهم شديداً شكوه! لوددت اني وجدت رجلا قويا امينا استعملته عليهم.

وبسبب المدنية العراقية القديمة,فقد شهد حوض الفرات بالذات حراكاً بشرياً بشكل امواج من الهجرة انطلقت من البادية الحجازية الى هذه المنطقة. يقول علي الوردي: يقع العراق على حافة منبع فياض من منابع البداوة ,وهو منبع الجزيرة العربية.فكان العراق منذ بداية تاريخه حتى يومنا هذا يتلقى الموجات البدوية واحدة بعد الاخرى. فكان بعض تلك الموجات ياتيه عن طريق الفتح العسكري, والبعض الاخر منها ياتيه عن طريق التسلل التدريجي. وبسبب ذلك يقع المجتمع العراقي بين نظامين متناقضين للقيم الاجتماعية: قيم البداوة الاتية من الصحراء المجاورة, وقيم الحضارة المنبعثة من تراثه الحضاري القديم وهو يخالف الاراء السابقة التي قالت بمدينة الجزيرة وعقلانيتها. الوردي مصدر.

من الواضح اننا نفهم وجود نهري دجلة والفرات كآلية لتوليد الحضارة \ المدنية والتحضر \ زيادة سكان المدن. وهذه المدنية التي نشأت على طول اليابسة الممتدة على ذراعي دجلة والفرات كانت تتصارع مع آلية اخرى لتوليد العنف وهي البادية. لذا فان العراقي الاول كان الاول في اختراع الدولة كلازمة صراعية لضبط العنف مع مجتمع اخذ البادية يبوستها \ خشونتها ويمجد ويعتز بقيم الغزو والنهب والعدوان حتة لو كانت مع الاخ او الجار القريب.

لقد تطورت التجمعات البدائية القديمة في صراعها مع السلطة حتى وصلت الى نسق اجتماعي اكثر تعقيدا هو العشيرة التي تربط الفرد بجماعته من خلال الدم \ اللحمة اي برابطة الانتماء , بينما اخذت السلطة بالتعقيد من جهة اخرى لمجرد الزعامة اي الئاسة وقيادة المجاميع للغزو الى الوازع " حسب تعبير ابن خلدون" اي كظرف العنف بين الافراد بسبب التنافس المستمر على الملكية او امتلاك الاشياء كالارض والغذاء ومن ثم اخذ التطور الى تقنين علاقة الحاكم بالمحكوم لاجل سحب الفرد من انتماءه الى ولائه لشخص الحاكم. بينما اخذت العشيرة بالتكون والنمو والتطور في مناطق الاطراف الريفية والبدوية منسجمة مع الطبيعة بشكل يتناغم والقيم التي تعارفت عليها فان الدولة نمت وتطورت في المركز الحضري حيث ابتدأت المحاولات المتعثرة الول لمعاملة الفرد كمواطن له حقوق وعليه واجبات , اي تقنين علاقته بالدولة وبالتالي تحديد حريته.

التسلط والتمرد:

بذل الحاكم على مر التاريخ جهودا مضنية لاجل اخضاع الفرد العراقي لمرجعية الدولة وترويض مرجعية العشيرة. وانصبت تلك الجهود بشكل اغراءات مادية احيانا وبالقمع احيانا اخرى.واستخدمت الدولة الحديثة تكتيكا اخر حاولت فيه سحب الفرد من انتماءه لعشيرته. اذ انها ضربت الرابطة بين الفرد والعشيرة من خلال السوق اولا والعسكرتارية ثانيا. فالتجارة والاقتصاد لاتعرف دينا او عشيرة , اتخذت منها الدولة عاملا للتحكم بولاء الفرد, فبدلا من الالتجاء للعشيرة لاغراض العون والحماية اصبح يلتجئ الى الدولة كمحتكر اول للسوق.

عجز العراقي عن مناوءة تسلط الدولة كما عجز عن كسبها لصالحه فكرهها وكرهته. وهي بالمقابل عجزت عن كسب وده بسبب شخصيته العصية مايفسر الثورات وحركات التمرد الكثيرة ضدها.وتحول هذا العجز والكراهية بين الطرفين الى اخضاع وتسلط من قبل الحاكم وخضوع وامتثال من قبل المحكوم. وكانت الاسطورة واحدة من وسائل الهروب من الظلم الاجتماعي من جهة واداة ثقافية لمعارضة السلطة من جهة اخرى لكتها كانت وسيلة لتزييف الوعي من جهة ثالثة.

ما ان تبدأ الدولة بشكل سطوة " عادة ماتعلن عن نوايا طيبة واهداف ذا شعارات معروفة كالعدل والحرية" حتى تحولها الى طغيان وتسلط . وهذا بدوره يمثل تحولا من سطوة الطبيعة الى سطوة القانون التي سيكون مقرها في المدينة, فمشكلة العراقي هي هذه المخاضات والولاءات لايجلد المجتمع المديني الذي يظل في تصارع مع قيم الطبيعة ذات الجذور الريفية والبدوية.فاعتاد العراقي من ازمان بعيدة يهول بل ويعملق الاشياء البسيطة والظواهر الصغيرة ويخاف منها ويتحسب لها. فقد نصف العراقي بانه يتمتع بعقل متحسب بسبب الخوف المزمن من طغيان الطبيعة ومن طغيان الحاكم.

لم تنتهي الدولة من مشكلة الشخصية العراقية خاصة في جزئها الامتدادي المتمرد , حيث بقيت الاجزاء الصحراوية والريفية ذات طبيعة نقية تشكل العناصر الاولية لمادة العراق .بقيت هذه الاجزاء الخام عصية على تسلط الدولة متخذه من سطوة الدين عقيدة \ ولاء وسلطة العشيرة حماية \ انتماء.

ذكرنا سابقا ان اغلب الحركات المتمردة ضد الدولة العراقية ذات الاساس الديني تمت على المناطق المحاذية او المحيطة بنهر الفرات اي من الجانب الغربي نزولا الى الجنوب العراقي. ومن خلال رؤية ساسيولوجية دقيقة نرى بان هذه المنطقة على الرغم من حضريتها القديمة, فانها شهدت مدا بدويا من الجزيرة العربية على وجه الخصوص, اقتحم الحضارة ليصوغ تشكيلة ثنائية يوتوبية \ معرفية \دينية من جهة ومتمردة احتجاجية من جهة اخرى , لاتدع مجالا لتسلط الدولة التي تعتبر كيانا غريبا عن الطبيعة بينما تبقى الدولة الحقيقية هي دولة المثالية العليا. لذا اجتمعت في هذه المنطقة والكوفة تحديدا المثال والقتال. والسلطة الواجب اتباعها والولاء لها والرجوع اليها هي سلطة العشيرة وزعيمها واتباع توجيهات رجال الدين.

ان مايميز الفراتيين بصورة عامة هو كثرة السلاح لديهم وانقيادهم للزعماء من العلماء وشيوخ العشائر. وهذا ادى بهم الى التضحية والفداء عند صدور اوامر من زعمائهم. لانهم مازالوا على الفطرة ويعولون على العصبيتين الدينية والقبلية. وهاتين الميزتين نشيران ايضا الى ذات الثنائية في المثال والقتال الفراتية.

في الواقع ان مرجعية الدولة بالنسبة للفرد العراقي كانت تتسم بالصيغة الاكراهية بينما تطغي على مرجعية الدين الهيبة والنجذاب الروحي التي هي استمرا لسطوة الالهة وتبقى المباشرة ميزة لسلطة العشيرة.

وفي نظرنا ان مابعد 2003 فان ماتراه من احتجاجات وهتافات على منصات ماكان تسمى بمنصات العزة والكرامة. ماهي الا التطرف الخليط بين ضياع القبيلة والعشيرة ضمن ضياع روحية المرجعية الدينية لنها منذ ازمان طويلة تفتقر لمرجعيات مثالية كالتي تشهدها وقائع الفراتيين. فتبددت هويات وتداخلت مع اخرى لاتنتمي لواقع اهلها الحقيقيون الذين كانت علاقاتهم مع الدولة علاقات الاب والابن المطيع مع حكام يميزون انفسهم عن الغير.وبهذا اضاعوا هوياتهم المعروفة , وسادت هويات عامة خنقت نفسها وخندقت هويات الاخرين , دفاعا عن النفس . كل ذلك يرجع لضياع الدولة , دولة القانون والمجتمع.

يحق لنا ان نتسائل : لماذا لم يتمرد العراقي الساكن على نهر دجلة بمقدار تمرد الساكن على الفرات ؟

ان دجلة لايهدأ وكثير الفيضان, كثير التقلب. ومن الناحية اليكولوجية شغلت فيضانات دجلة ساكنيه بكيفية ايجاد السبل لدرء مخاطره, فلم ينشغل عقل الفرد بالدولة قدر انشغاله بمواجهة الطبيعة.

مايؤيد ذلك ان الفرات اطول من دجلة بمقدار مرة ونصف ولذا يكون دجلة اسرع من الفرات, ويتخذ دجلة بسبب سرعة تياره والارتفاع والهبوط السريعين لمياهه في موسم الامطار طابع الجدول الجبلي الحقيقي الذي يستبعد ان تكون الملاحة ضد التيار ممكنة الا في الاماكن التي تخلو من المنعطفات الشديدة, رغم غزارة مياهه مقارنة بمياه الفرات. يمتاز الفرات بهدوئه وببطئه في ارتفاعه وهبوطه , وهذا ما يجعله اكثر ثباتا من نهر دجلة.وتعليل ذلك ان المنطقة التي يتغذى منها الفرات بالمياه ابعد منها في نهر دجلة. قد تنعكس شخصيات السكان على مدى سلوكيات الفوارق بين دجلة والفرات . ويمكن ان نتناول سوسيولوجيا سكان الانهر ومحاذاتها على الشخصيةالرافدينية والنيلية, في معظم مناحي التعامل بين المجتمع كسلوك بيني وبين ماهية سلوكيات الطبيعة بشكلها الاعم وبين خصوصيتها على دجلة وعلى الفرات وعلى النيل . ومكامن التباين: كلما ابتعدت او اقتربت عن البادية وعن متخامتها للمدينة. و القرب من سلطة القانون او بعدها عنه. وهو ماسنتناوله ايضا في الشخصية الجبلية لاحقا.

يعزو سوسة اسباب استيطان السومريين والاكديين على نهر الفرات دون دجلة, لسهولة انشاء جداول الري عليه ولانه يجري بين ضفاف منخفضة وانحدارات قليلة بخلاف الحال في دجلة . الامر الذي يساعد في السيطرة عليه واستغلال مياهه في الري والزراعة بسهوله. فضلا عن وفرة المياه في هذه المنطقة على طول مواسم السنة, حيث تتجمع المياه من كل صوب فتنتشر في السهل المنبسط باعماق ضئيلة مما يسهل استغلالها في الري والزراعة دون عناء. اما دجلة فلم تكن تتوفر فيه عوامل التنمية الزراعية بسبب ارتفاع مستوى الاراضي عن مستوى مياهه وازدياد هذا الارتفاع كلما ابتعدت الاراضي عنه مصدر .

قد يحق لنا ان نستنتج ان ساكني دجلة اكثر عقلانية ومهادنة للدولة من ساكني الفرات ذوي القيم الامتدادية والعقلية.والعقلية والايديولوجية والسياسة متفوقة في دجلة بينما يتفوق العقل واليوتوبيا والدين في الفرات.مع الاليوتوبيا يولد التمرد والاحتجاج , ومع الايديولوجيا تولد السياسة .

هدوء الفرات ادى الى هيجان سكانه وتمردهم على الدولة. وهيجان دجلة ادى الى هدوء سكانه , ومن ثم ادلجتهم للدولة. فيمكن القول ان القلق والنبض العراقي فراتي وليس دجلي. لان السياسة تبني على دجلة بينما الدين على الفرات. ومع الدين يولد التمرد والاحتجاج على السياسة.

ومن خلال رؤية جغرافية نلاحظ ان البادية تنحصر في الجزء المتاخم لنهر الفرات والذي يكون تماس مع بادية الحجاز. وهذه البيئة التي تشمل عدة مناطق من الانبار والنجف , وما سواها ساعدت في تكوين سلوك انسان متمرد على السلطة , بسبب رغبته في ان يكون سيدا لنفسه , ولايقبل سلطة عدا سلطة العشيرة وسلطة رجل الدين.وان كان هذا الامر قديما , فهو موجود ايضا في العصور الحديثة ابتداء من الدولة العثمانية.

انصرف الدجليون نحو القيم الحضرية والاهتمام بالعمران البشري \ الاجتماع والمادي بانشاء وتطوير المدن والاستقرار فيها وتاسيس الحكم . فمدن دجلة هي مدن العقلانية .بينما اتجه الفراتيون نحو القيم الدينية \اليوتوبيا والقيم البدوية \التمرد. وظل افق تفكيرهم ممتدا مع الافق الطبيعي مما فسح المجال للابداع الفني والادبي والعلمي. فمدن الفرات هي بلا شك مدن التفكير والابداع والجمال وسحر الماضي. باختصار هذا الواقع اصطدم بمحاولات الاختزال والتهميش والتضييق من قبل الدولة , الامر الذي انتج عقلا متمردا يفكر دائما بالاطاحة بالدولة كسلطة قهرية.فظلت مرجعية العقل الفراتي عشائرية – دينية لم ترضخ كثيرا للتسلط . من منطلق المظلومية والتهميش(لانريد الخوض في ذلك لانه لايخدم موضوع كتابنا) بينما خضع عقل انسان دجلة وسلوكه لمرجعية الدولة المتسلطة. ولا يغيب علينا ان دجلة والفرات \الايديولوجيا واليوتوبيا يشتبكان معا في البصرة دون غيرها. نفس المصدر (18).

الفصل الخامس عشر

الجينات والسلوك المجتمعي

ماتوصل اليه الالف وستمائة عالم من مختلف انحاء المعمورة حول خارطة الجينوم الوراثي للانسان بتصنيف وترميز اسرار الثمانون الف جين والثلاثة مليار وحدة والمائة ترليون تفكيك الخريطة واكتشاف اسرارها يعادل مائتان كتاب بحجم خمسمائة صفحة لكل كتاب.

مصطلح جينوم تعني الدلالة العلمية للحقيقة الوراثية البشرية القابعة داخل نواة الخلية وهي التي تعطي جميع الصفات والخصائص الجسمية الظاهرة وتعطي الصفات الباطنية لكينونة الانسان و سلوكه الخلقي .

لايوجد جين واحد يمتلك التاثير على اخلاق الفرد عموما والعراقي تحديدا, مالم يتناغم مع جين او اكثر، اضافة الى التاثير البيئي جغرافيا وسياسيا على الفرد والمجتمع، مما يؤكد: انه ليست هنالك أخلاق مثلى دائمة لاتتغير، بل هنالك تغيرات اجتماعية تؤدي الى تغيرات أخلاقية في مجمل السلوك الظاهر والباطن.

تحديد الجينات الوراثية وتاثير البيئة الطبيعية والسياسية على الفرد العراقي مما يجعله مختلفا عن غيره هو ما بحثناه في فصول كتابنا هذا. وما تم نشره في دراسات ومقالات منشورة منذ سنوات. التزاوج بين علم الاجتماع وعلم البايولوجيا الحديثة في التكوين الجيني على وجه التحديد هو لب الموضوع المراد بحثه هنا.. وساختار بشكل نخبوي بعضا من الجينات مع التي تلبي استنتاجات بحثنا في الربط بين المكان والموروث الجيني للفرد ومدى تاثير ذلك في الانثروبولوجيا , علم الانسان والمجتمع.

ادناه بعضا من الجينات التي تلعب دورا اساسيا في السلوك البشري , وممكن ان تتحسن او قد تضمحل , ان كانت البيئة الاجتماعية تتسم بالتسامح والمحبة والاخلاق الحميدة و بمنظومات قيم تحترم الاخرين. والعكس صحيح ان كانت البيئة الاجتماعية اي الثقافة المجتمعية السائدة , هي بيئة سيئة لاتنتمي لمنظومات القيم الاخلاقية , متوحشة مع الاخرين رافضة التعايش معها . فهؤلاء تنمو جيناتهم السيئة فتتكون لديهم مانسمية بالشخصيات الهدمية العنفية التي تهدم ذاتها لكي تهدم الاخرين معها. سنتناول بعضا من الجينات التي تؤثر بعد تناغمها مع محفزات بايولوجية وبيئية من ثقافة المكان . فتؤثر على السلوك بشكل مباشر مما ينتج شخصيات مركبة تتعدى الازدواجية التي تناولها الاخرون:

اولا :

جينات الكذب [20]:

أهم العوامل الفعالة في علم الانسان وسلوكة واعماله او علم الجماعات البشرية وسلوكها لابد ان يدرس بطرق علمية بمنظور معرفي، سنحاول تناول ذلك في موضوعنا المنوه عنه. كجزء من جينات تصنعها البيئة وجين الكذب مدخلا لذلك.

ولان الجغرافية في العراق متنوعة بين الجبال والبادية الصحراوية والريف والاهوار والمدن الحضرية والمدن الدينية. لابد لهذه المتغيرات من سكان او مجتمعات مختلفة الثقافات الاجتماعية ومن هنا ينشاء افراد وجماعات بسلوك وشخصيات مختلفة تحمل موروثها معها . واي تكن المعلومات الاحصائية عن الافراد او الجماعات فهي معلومات لتلكم الجماعات كعينات لاتمثل كل سكان المنطقة او الشعب فليست الاحصاءات هي لشعب بل لمجموعات من شعب، وهذا يعني ان الشخصية هي ليست واحدة بل شخصيات متعددة، حسب مكانها الجغرافي .

لكل مكان وبيئة عادات وتقاليد، ملبس ومأكل وموسيقى وغناء، لهجات ولغات معتقدات وقوميات وهويات بانتماءات تختلف بمكانها وسكانها رغم الامكنة المتنوعة الا انها في مكان اعم واوسع هي ارض الوطن الواحد الذي تتقوى به جميع الانتماءات الجزئية والمكانية.

ومن خلال البحوث النظرية والمختبرية اتضح ان للبيئة المكانية اي الجغرافية الثقافية التي تشمل الايكولوجيا الجامعة وهي دراسة المحيط الحيوي بما يعيش عليه وفيه من كائنات حية، لها الدور المهم في السلوك المكتسب المنتمي لطبيعة المكان اضافة لاهمية البايولوجيا ..اي مايحمل الانسان من صفات وراثية .

جين الكذب الخّلقي

الكذب الولادي او الكذب الخلقي [2] Congenital Lying

الكذاب بالولادة هو ذلك الشخص الذي لايستطيع قول الحقيقة وسببه الرئيسي هو خلل وراثي مبرمج جينياً، وعندما يسئلون : هل تعلم بانك تكذب يجيب بثقة, لا , لانه يعلم بانه يكذب، معنوياتهم عالية، ويصنف مجتمعيا بالعيب الاخلاقي كون حملة هذا الجين من المحتالين في تعاملهم مع الاخرين وفي الاغلب يعانون من هفوات اخلاقية منذ المراحل الطفولية في الغش والخداع وعادة يوضعون بالسجن باحكام مخففة معتقدين ان البيئة

والتربية العائلية لها الدور المؤثر على سلوكهم هذا، مستبعدين الاسباب الوراثية الولادية عليهم.

الباحثون في علم البايولوجيا اكدوا ان المصابين بالكذب الوراثي يعود لسبب فريد يمتازون به بنمط عصبي غير معتاد في ادمغتهم ناتج عن خلل او تلف وراثي في الدماغ وهو نموذج شاذ بايولوجيا .

الكذب المكتسب بيئياً

ماذا نعني بالبيئة او النشاءة التي نكتسبها من المكان الذي نعيش فيه؟

البيئة هي المكان الجغرافي الذي تتعايش فيه الكائنات البشرية وغيرها من عادات وتقاليد ، معتقد ديني واعراف عشائرية، لغات ولهجات، أفراح واحزان، طقوس وشعائر، تاريخ واساطير،مناخ وانهار،، جغرافية وتضاريس ،ارض متنوعة زراعية ،صحراوية، جبلية او مدينية . كل هذا وغيره يمثل البيئة التي نعيش فيها.

ليس للوراثة او مانحمله من صفات موروثة جينيا تاثير مباشر بمفردها على سلوكنا مالم يكن للبيئة دور فاعل ومهم على السلوك العام للفرد وللجماعة.. فضوابط بعض منظومات القيم المجتمعية ترشق وتهذب السلوك، واخرى تصنع السلوك السئ.

3ref. جين الكذب الصناعي :(Synthesis Gene)

طبيعة النظم الاجتماعية التي تعج بالاستبدادات السياسية والعقائدية والمجتمعية واحادية الفكر الشمولي وفقدان لمنهجية الاقتصاد المتحرك والمتجدد، واعتماد المواطن على جهده وعلاقاته لحماية عائلته ووجوده، يكون الاغتراب واضحا بين المواطنين والدولة الفاقدة لكيانها كدولة تحمي المجتمع... من كل ذلك ولظروف اخرى متراكمة من افرازات الحروب وتاثيرها على تفكك النسيج المجتمعي وعدم وجود الضمان الاجتماعي وفساد الساسة .هذه التراكمات شكلت فوارق طبقية اغلبيتها من البطالة التي لاتملك رصيدا مجتمعيا يضعها بين الطبقات ذات الفورة المفاجئة.[1]

بهذه التناقضات وتسليط الاعلام على مؤثرات لاتنمي وعي المجتمع بشكل علمي وسايكولوجي بل تعمق بهرجة الحياة الترفة الحالمة والتي لها تاثير مباشرلسلوك جمعي يمتاز حاملوه بشبوب عواطف تضخيم الانا الكاذب.

فيتعاظم النفاق الاجتماعي وتسويق الذات[1] لغرض الكسب بغض النظرعن اخلاقية الاسلوب الترويجي للشخصية اينما تكون . وبهذه التناقضات تنشاء ما يسمى بالشخصية الازدواجية وهي اسلوب وسمات يتمتع بها الفرد كمنتج طبيعي يتعدى الازدواجيات الى اكثر من ثنائيات سلوكية من خلال هذا الخضم المتناثر من المتضادات التي افرزتها الانظمة الحاكمة

وترعرعت بحواضن مجتمعية مؤهلة لتكون متضادة فيما بينها باكثر من ازدواجية مركبة ومتداخله .... في هكذا بيئة تمتاز بها البيئة العراقية التي يمكن ان تنسف مفاهيم علم الاجتماع السائدة منذ ان وضعها المرحوم علي الوردي الى ما يمكن ان يصاغ بطريقة مختلفة من واقع جديد تعدى الازدواجية الى شخصيات مركبة متعددة تختلف من مكان الى اخر داخل الوطن الواحد[1] .... فاصبحت صناعة الكذب والتحايل والغش والتزوير سمات افراد وجماعات وهويات ومؤسسات باساليب لايردعها قانون لان شيوع هذه الممارسات اصبحت تتعامل مع اصحابها قبليا عن طريق المقايضات وعلى حساب المصلحة العليا والحق العام الضائع.

خداع الذات (Self deception)

هو نوع من الاوهام الكاذبة في شيوع خداع الوعي، وتعاظم الاوهام تقود الى البهرجة والابهة الكاذبة، التي تحتضنها جماعات لها مصلحة بذلك لتكون حماسا عاطفيا يسوده العنف لاجبار الاخرين لتقبل هذا النهج من الخداع . ونتيجة لذلك تترسخ نرجسيات مجروحة تتناقض مع الواقع العام فمثلا:

يريد الانسان ان يكون كبيراً ويرى نفسه صغيرا، يريد ان يكون سعيدا ويرى نفسه بائسا او يريد ان يرى نفسه كاملا لكنه مليئا بالنواقص، يريد ان يكون موضوعا للحب والتقدير من قبل الناس ويرى ان عيوبه لاتستحق الا الاحتقار والازدراء.هذا المأزق الذي يجد نفسه فيه يولد لدى الفرد الشهوة الى الظلم والاجرام ويولد لديه حقدا مميتا لهذه الحقائق ومعظم هؤلاء عادة يلتحقون بجماعة او بحركة متطرفة بهدف اجراء التغير واهمين بامل تغير مفاجئ لظروف حياتهم، فيتحول ذلك الى سلوك محبط يؤدي الى الشعور بالفشل ويتسم حاملوه بجلد الذات والتلذذ فيه، لينسى بؤس حاضره باستذكار جثث الماضي.

ومن هذه القناعات يسود تضخيم الذات الكاذب وعملقة الماضي كجزء من بطولات وهمية لاتملك سوى عواطف تنشاء من المحيط البيئي، وبدورها تصنع جينات مكتسبة تمثل السلوك المضطرب (مرض البانورايا).

وهنالك جينات يمكن اكتسابها او صناعتها مجتمعيا من خلال التكرار وتنميط الثقافة بما يخدم السلطات الاستبدادية بكل انواعها لبناء عماء الوعي لقطيع ممن يحملون شبوب العواطف العنصرية والاقصائية .

يمتاز الساسة بالكذب المركب غشا وتزويرا وتحايلا واستسهالا في سرقة المال العام وكما اعتدنا بان الساسة بانانيهم وتفضيل مصالحم على مصالح الاخرين, ليكونوا اسوء نموذج اخلاقي يسئ لشرف المسؤولية والامانة والاخلاص وبهذا اضاعوا المحتوى الانساني لكل معاني الاخلاق.

ثانيا:

جين الطمع [21]:

الرمز العلمي :(FTO gene)

الطمع وسلوك الاستحواذ , عادة مايكون خلل هرموني سببه جين الطمع والشراهة في الجينيوم الرمزي اعلاه. وعادة ماتكون مجتمعاتنا , هي المعنية في الولائم المترفه والمبذرة في كمية وانواع الطعام والثريد. واحد اسباب السمنة في اي مجتمع كان هو بسبب جين الطمع والشراهة.

الدراسات الاحصائية بينت ان هنالك نسب من العينات تؤكد ان البعض يعتبر الطمع سمة ثقافية . والاخر يعتبر ان الثقافة بدون طمع لاتعتبر ثقافة برجوازية تميز اصحابها عن غيرهم اجتماعيا.ومن الخطير ان البعض وهم ليسوا تزامن جين الطمع لديهم ليصبح عادة . لاتقل عن عادة الادمان على التدخين او غيرها من العادات الاجتماعية. وما يثير اهتمامنا هو ان جين الطمع ترافق بشكل متلاصق مع الاستحواذ على مايمتلكه الغير , طمعا يقترب من السرقة العلنية او الخفية. واكثر البدناء , اصحاب السمنة الجسدية , هم طماعون لايبالون بالغير بل تسري الانانية , كجين صناعي مكتسب بيئيا.

ثالثا :

جين الادلجة والتادلج [22] :

الرمز العلمي :(DRD4 with 7R and D4)

لمصطلح الايديولوجيا في اللغة وتعريبها على قواعد الصرف العربي الى: أدلوجة وأدلج يؤدلج ومؤدلج وأداليج وأدلوجات ...

فالعقيدة اي كانت فهي ايديولوجيا ومعتنقها مؤدلج ويحمل بداخله رقيب لايقل عن رقيب الامن السري، والاداليج هي التي تشكل الوجدان القمعي وتحجيم حرية الضمير الاخلاقي في الفرد.

في الانثروبولوجيا البايولوجية توسع علم الوراثة والتسلسل الجيني في الانسان وسلوكه واخلاقة،، ولم يتطرق اليه باحث في علم الاجتماع او السايكولوجيا ليبحث اهمية التاثير الجيني على اخلاق المجتمع (1) من جهة وتاثير ارتهان العقل في اداليج المعتقدات.

هنالك ثلاث انواع للعقل المؤدلج احادياً وهي كما يلي:

اولا: التأدلج عن طريق الثقافة الشفاهية او المقروءة صحفياً، التي تشكل لديه يقينيات يصعب تغيرها .

ثانيا: أدلوجة الاكتساب العاطفي المنفعل كمنتج بيئي موروث عقائديا من الاهل والاقرباء او الاصدقاء وظلت عالقة في الذهن، لارتباطه بذكريات جميلة حميمية عاطفية.وعادة تغلب عليه الفوضوية النقابية والسطحية في المفاهيم.

ثالثا: المؤدلج المحبط، سرعان مافعل(بفتح الفاء والعين) عقله ومعرفته للواقع. وتبين عقم اليقينيات التي كان ينتمي اليها، وظل يتارجح بين نقدها والتباهي بماضيه العقائدي الزاهر انذاك.

ان كل فكر او عقيدة لاتنبع من واقعها كحاجة ومتطلبات مجتمعية لها. او نص ديني محتكر التأويل والتفسير , تصنف حسب رئينا بانها ادلجة احادية يقينية ترفض الاخر، فيتساوى هنا المؤدلج العلماني مع المؤدلج الديني.الذين لربما اسائا للعقيدة او الايديوجيا التي ينتمون اليها.

جينات العقل المؤدلج :

علميا ليس هنالك جين يعمل لوحده مالم يتناغم مع جين او اكثر، ورغم ذلك ان بعض الجينات تحفز هرمونات معينة لتؤدي وظيفتها بايعاز جيني محدد ومنظم. ولا يفوتنا ان التأثير البيئي المجتمعي على العقيدة له دور فاعل سنوضحه ادناه:

جين الادلجة يؤثر على المؤدلج اما بتشدده وعناده وذلك عندما ينظم افراز الهرمون بالدماغ وتحديد كمية الدوبامين على الفرد في بيئته الاجتماعية التي يعيشها ويتفاعل معها وينعكس على تعامله الاجتماعي الجمعي سلبا او ايجابا. بمعنى اخر يتناسب التسامح وفهم الاخر طرديا مع كمية الدوبامين والبروتين والعكس صحيح .

البيئة الاجتماعية وشعور المؤدلج ان يقينياته باتت غير نافعه بنشوء وعي مجتمعي اخر.. يضطرب جين المزاج ليؤثر على سلوك المؤدلج في ثانيا اعلاه ويعكس اما تغير مفاجئ مضطرب مع بيئته الرافضة ليقينياته او ينفعل عاطفيا ويتحول الى شخص فوضوي لايعرف مايريد وتتارجح فوضويته اللامنضبطة بين العنف ضد الاخر، او يسلك سلوك التجريح المهين في معتقد الاخر.

اضطراب المؤدلج يعتمد بشكل قوي على صحة وسلامة جين المزاج وجين الادلجة المتناغميين مع البيئة المجتمعية التي تتعامل مع المؤدلج كفرد بغض النظرعما يحمل من افكار بل اصبح الهم المجتمعي هو كيف يتصرف المؤدلج ومايقدمه لمجتمعه الذي بات لايعنيه الفكر اي فكر حتى الديني منه ... فالجميع فقد مصداقيته التي كانت شعارات ملئتها اتربة الخراب. وهذا ما يؤرق المؤدلج فيجعله حسودا غيورا لايرضى الا على نفسه تسود تصرفاته الانا الحتمية وسببه جين المزاج الذي شكل احباطا كبديل للفرح والبهجة ..فيتحول الى نرجسي مجروح يحاول عبثا ان يثبت سلامة انويته المنفعلة عاطفيا .

رابعا:

جين المزاج[23] :

الرمز العلمي: Mood gene (5- HTTLPR,HTT-5)

للبيئة ومحيط العمل والجو العام مت التعامل المجتمعي في سوق العمل اي كان . يعتبر محفزا لجين المزاج . قد يتعكر او يتحسن المزاج حسب تلك الظروف المعاشة . حتى الضوضاء وزحمة المرور ودرجات الحرارة المرتفعة في بلداننا تؤثر بشكل مباشر على رد الفعل وسرعة الانفعالات الغير منضبطة بسبب ذلك اضافة لجينات المزاج. حتى التهميش السياسي والاستبداد السلطوي اي كان مصدره هو عامل يستفز جيناتنا المزاجية , لتعطي احيانا كثيرة ردة فعل , مايمكن ان نسميها بالعواطف الشرسة.

خامسا:

جين السلوك العدائي في المجتمع[24] :

الرمز العلمي: MAOA, MAOA-L

من خلال الابحاث الميدانية والمختبرية حول جين سلوك العنف بانواعه المتعددة . ومنها بل واهمها هي جين السلوك المعادي للمجتمع. والذي يتحول من خلال البيئة والمحيط بمؤثراته السلبية , كعدم انسجام العائلة, وضغوط الحياة المعاشية , وعدم توفر فرص الحياة العادية والامنة . يتأصل هذا الجين ويتسع بي الناس . في امكن عدة من مناطقنا وافريقيا واوربا وبقية بقاع الارض . واشارت الدراسة الميدانية ان حوالي 40% من السكان مصابون بهذا الجين , ولكن بنسب متفاوته جدا . تعتمد على النشأة والتربية والثقافة المجتمعية والجغرافية. ويحاول الباحثو ن تحجيم العنف الفعلي واستخداماته ضد الاخرين بالمجتمع.

ان احد عناصر تنمية وتقوية واتساع العنف الجيني هو تناغم بين جينات وهرمونات اخرى كالقلق والخوف وبقية الامراض كانفصام الشخصية وغيرها. الانعزال عن الحياة الاجتماعية لكثير من الافراد, وتحشيدهم بمعلومات يقينية لاتقبل الحوار والجدال مع الاخرين . هي مانراه من اسائات لجميع المعتقدات المتسامحة في مبادئها . الا ان هنالك اطراف اما نها تعاني من حياة اقتصادية خانقة يحتضنها من له اهداف . او اطراف اخرى تهويلية في ماتعتقد من عقائد كفصيل افضل من غيره وعلى الاخرين اما ان ينصاعوا لمعتقده او تكون وسيلتهم العنف ضد المجتمع او الاخر اي كان .

سادسا :

جين الكآ بة والحزن[25] .

الرمز العلمي: 5-HTT

تناغم جين المزاج عندما يتعكر باسباب ذكرناها اعلاه تتناغم هرمومنيا وخلال الناقل العصبي , يتعاظم المزاج ليكون الحزن والكآبة هي السلوك المؤثر في الانفعالات وردود الافعال الغير منضبطة . اي وهذا مانلمسه في التناقض السلوكي بين عواطف جياشة متسامحة وفجأة تتحول الى عواطف شرسة هدمية عندما يكون السوء البيئي محفزا لجين المزاج ليتناغم بايو لوجيا في الجينيوم البشري ليكون الحزن مشاعا في مناطق دون اخرى .

في ساسيولوجيا المجتمع يمكن ان يكون المزاج والحزن وتناغمهمامع جين العنف المجتمعي كلها تلعب دورا اساسيا وجوهريا في السلوك من منظور علمي بحثي . يميز مجتمع دون اخر . التعليم وثقافة المجتمع وطبيعة المكان الجغرافي هي مؤثرات , لها دور فاعل في تشخيص ومعالجة الازمات التي تعرقل شيوع الامن المجتمعي من نوازع تقترب لامراض مزمنة تصيب المجتمع . وفي العراق ماعاناه المجتمع العراقي من كوارث الحروب الخارجية والاحتلال ودخول داعش و حواضنها . هو احد النقاط الضعيفة في بنية المجتمع العراقي.

سابعا :

جين الشراسة والقساوة[26] :

الرمز العلمي: AVPR1a

عندما نرث هذا الجين فهو يتناغم مع الطبيعة والبيئة المعاشة . وعادة مايتحول هذا الجين (من خلال الدراسات العملية , على الجينيوم البشري) وجد انه يتحول عند الزعماء والقادة الذين يحملون هذا الجين الى حكام , ديكتاتورين , قساة وشرسون , كما في صدام وموسليني وهتلر . وبعض من لم تكتشف فحوصاتهم البايولوجية. ومن الغريب ان هؤلاء يتصفون بالكرم والسخاء , عندما يرغبون بذلك ومن خلال النقاشات البينية مع المختصين اعلموني بان هذا الجين ينقل من الام ولكن لاتحمله ولا

تتصف بصفاته, بل هي ناقلته لاحاملته .

يمكن ان نتصور حجم الكارثة الاجتماعية , عندما تلتقي هذه الجينات الوارده في اعلاة بمجاميع من الافراد داخل المجتمع . وقد يتسلمون مهام حكومية او امنية او يشتغلون في مواقع سياسية قيادية!! كم ستكون العواقب الوخيمة التي يتركونها ضمن الروابط الاجتماعية داخل المجتمع . من الخوف والقلق وتوقع الانفعالات المفاجئة ضد الاحرين.اضف لذلك ان جين الدكتاتورية يتناغم سوية مع جين الشراسة والقساوة.

لذلك تسعى دوائر الابحاث العلمية للتعرف على سايكولوجية الافراد وحالاتهم النفسية والاضطرابات المفاجئة من خلال تذبذب العواطف الغير منضطة بين الاشخاص ضمن اطار اعمالهم المهنية او في العلاقات العامة في الاماكن الحساسة . ان اهمية تقيم بل وتقليل تاثير السلوك الجيني السلبي الموروث . وذلك من خلال تحسين البيئة المعاشة وتاهيل الثقافة المجتمعية لكي يسودها التسامح وحب الاخر وتعميق منظومة القيم الاخلاقية في المجتمع.

وعندما يكون جين الريادة اي القيادة كما ورد في كتاب : صناعة القادة . (راجع المصدر ضمن موقع المؤلف) . هو الاخر يسمح ان يتصدر الفرد بمايملك من كارزما تؤهله للقيادة . وثقافة المكان ومدى صناعة الوعي الاستبدادي او التسامحي في مجمل التاثيرات الاجتماعية . النزاعات وكيفية حلها ضمن اطر الانضباط القانوني, او اتباع اساليب الفصل العشائري كخيار يضاف لخيار العنف ورفض الراي الاخر . من منطلق الاستقواء بالمكان او الاصولية القبائلية.

الفصل السادس عشر

الجغرافيا الثقافية وسلوك المجتمع

البيئة المكانية وطبيعتها كجغرافية بها تنوع طبيعي كالجبال والسهول والانهر والمدن بانواعها والبوادي والصحاري والريف ومدن الموانئ وتعدد الثقافات الاجتماعية من خلال المدن او المواقع السياحة بانواعها الترفيهية او الدينية . كل هذا التنوع الجغرافي له تاثير مباشر على طبيعة السكان وسلوك افراده كشخصيات لها صفاتها . اضافة لما تقدم من فصول حول الامكنة والمناخ , بعضا مما نراه مكملا برؤية اخرى , سنتناول نموذجا للجغرافية العراقية باماكنها التي تشكل الاغلب في التنوع كمكان وكمجتمع . في جميع المناطق تتسم القيم الاخلاقية العالية بالكرم والجود. والمروءة وهي السواد الاعظم للاعم من السكان اينما عاشوا او رحلوا. والعواطف الجياشة احد اهم الصفات التي يتمتعون بها كصفات انسانية قد تختلف شدتها بين مكان واخر .

الجغرافيا الثقافية هي احد فروع الجغرافيا البشرية والتي تهتم في معرفة ودراسة المؤثرات الثقافية والاعراف باختلافاتها وتنوعاتها وعلاقاتها بالمناطق والاماكن.من حيث اللغة والمعتقد والعادات والتقاليد ومايصاحبها من موروث ومدى اختلافاتها من مكان الى آخر. ومدى تاثر البشر وكيفية تعامله مع طبيعة المكان.

لايحق لاي كاتب او باحث في العلوم الاجتماعية والجغرافية او العامة. ان يصنف سكان الامكنة المختلفة تصنيفا عرقيا او مذهبيا ويبنى من تلكم الانتماءات اختلاف السلوك بين بني البشر. بل الاهم ان لاتكون رؤياه من منطلقات ضدية ,لاتنتمي لمصداقية الباحث في رسم اطر مايريد ان يبحثه في مثل هكذا مواضيع حساسة . ومن البديهيات , ان جميع البشر متساون في حق العيش والمعتقد وتحقيق الاماني والاهداف التي يسعى اليها ويضحي من اجل تحقيقها كسكان او شعب يمتلك مقومات تقرير مصيره.

ولابد من الاشارة اليه: ان ماسنتناوله في بحثنا ,بعيدا عن التعميم , بل هو تشخيص لما هو شائع في الشخصيات التي تناولناها ,ولاتخلو اي شخصية مكانية من النبل الراقي والاخلاق السامية والكرم الذي تتميز فيه وضمن منظومات القيم الايمانية في المروءة والشهامة. لكننا نقر بانها تنحسر بمرور الزمن وتتغير المفاهيم بين جيل واخر, كل حسب دوافعه ومصالحه ومايطرا على المكان من تغير في ثقافته .

الامكنة وشخصياتها :

اولا : الشخصية الجبلية :

الجبال وتضاريسها وقممها تشكل بيئة لايعيشها الا اهلها. ورغم ان تنوع الجبال وبعدها عن المدن احيانا.تؤسس لحماية سكانها من خلال بعدها عن سلطة القانون. ومن خلال صعوبة المواصلات والتواصل بين قرى الجبال وبين عاصمة المرز الذي يمثل القانون والدولة, مركز السلطات الحكومية كراعي للسكان بمختلف تنواعتهم العرقية او العقائدية, والمسؤولة عن تنفيذ القوانين.

ان صناعة السلوك البيئي يعتبر جينا مكتسبا من بيئته , اي جينا صناعيا تتراكم سلوكيات الاجيال وتصبح جزءا من عاداته او من تصرفاته الشخصية على مستوى التصرف والسلوك والتعامل مع المركز –السلطة – القانون.وبذلك وبشموخ الجبال واسرارها التضاريسية والتي يصعب الوصول اليها الا لمن عاشها وتمرس على تلكم التضاريس. فيصبح الشخص الجبلي متعملق تلقائيا ظانا انه قرين مع عملقة الجبال . بالاخص ان كان ضد المركز المديني كسلطة تمثل القانون.

نتناول الموضوع من الجانب الجغرافي ومدى تاثيره انثروبولوجيا على الشخصية الجبلية في اي مكان. فهي شخصية تادلجت بجغرافيتها وتعيش فضاءات البعد عن تنفيذ القانون والخدمة العسكرية . وكثيرا

ماتصبح الجبال ملاذا امنا للخارجين عن القانون , وبؤر منفلته , عاصية وهاربة عن تنفيذ الاحكام القانونية بحق المخالفين .

بايولوجيا اعالي الجبال تقلل من نسبة الدوبامين في الدماغ وهذا بدوره يسبب الاضطراب والقلق وفقدان الثقة من الاخرين الذين لاينتمون لقبائلهم. اضافة الى البيئة والتعملق بثنائية حمل السلاح وعملقة الجبل. . فتتكون عواطف بيئية شرسة وعنيدة بما تعتقده . وتبقى عصية على كل مايقدم لها استرضاء لغرض دمجها ضمن الاطر القانونية او الدستورية . ومن خلال العواطف الاستقوائية بقوة جبالها . يستمر نشاطها التمردي لان القبائل الجبلية حتى فيما بينها تضطر بين فترة واخرى في ان تتنازع فيما بينها من اجل النفوذ على المكان والموارد. فما بالك ان تدخلت السياسة والمصالح الخارجية في تكوينة الانسجام المجتمعي بينها وبين بقية الهويات الاخرى.لانها تثقف من اجل الادلجة الجغرافية ان تجعل سكان المدن والسلطة اعداء ومتهمون في كوارث مناطقهم التي ترفض الهوية الرئيسية للمجتمع . وتتقوقع في عرقيتها الجبلية المنعزلة . مما يؤطر لتاريخ بلا حضارة . بل اسست لقبائلية التعايش والانسجام فيما بينها . ويمكن تلخيص صفات الشخصية الجبلية كما نراها:

الجبال هي بيئة مجتمعية ثقافية نكتسبها من خلال التعايش معها بما تملك من عادات وتقاليد وملبس ولغة خاصة باقوامها . وعادة ما تكون بعيدة عن مراكز المدن.فسكانها قبائل منسجمة او مختلفة حسب ماتمتلكه من وعي وعقل جمعي . بايولوجيا تمتاز عن غيرها بما يلي:

1.في اعالي الجبال تقل نسب الدوبامين الذي يؤثر على السلوك , مما يؤدي الى قلق واضطراب في التعامل مع الاخر .

2. الشخصية الجبلية عادة ما تمتلك جين العناد مصدر الذي يسبب في سلوك العواطف العدائية والشرسة احيانا.

3.الابتعاد عن سلطة القانون والمركز والاختباء بدهاليز الجبال وكهوفها يؤدي الى الغلو في قدرة الشخص ويتناغم متباهيا بشموخ الجبال مما يؤدي الى خداع الذات الوهمي مقارنة مع واقع المجتمع ككل.

4.غالبا ما تتكون شخصيات مغلقة في تواصلها القبلي , ويكون رئيس القبيلة رمزا يقترب من التقديس. لقلة الملاذات الامنة امام القانون ولبعدها عن سلطات المركز.

5. مما ورد اعلاه يمكن ان تكون الانا في الاستحواذ على مايمكن ان يكون ضمن مساحات المكان جزءا من ثقافة مكتسبة تفصل بين الدولة كعدو وبين الفرد والقبيلة كعنصر معارض ومضاد للدولة.

6.وبالنظر لطيبة وبساطة المجتمع عموما , وافتقاره للتعليم . يتم بسهولة انقياده من قبل ساسته الذين استخدموا القومية المسيسة لاغراض رموز القبائل مما يؤدي الى تضحيات من قبل غالبية المجتمع المسالم والذي يمتلك مروءة التايد والانتماء لتلكم الرموز بشكل عفوي لايعرفون ابعاده وتباعاته.

7. انقطاع التواصل بين مركز الدولة وتعمية الجمهور من قبل اطراف متعصبة واصولية . سبب انقطاع جيلي بين اجيال تفاعلت وقدمت للدولة المركزية خدمات وابداعات وتضحيات كهوية جبلية امتزجت مع الهويات الرئيسية الاخرى. هذا الانقطاع بين ماقبله من جيل كان تحشيدا بالضد من الكل امام الجزء المتقوقع لاسباب لاتخدم الا اغراض خارج الاطار الوطني الجامع لكل الهويات.

8. سكان الجبال في شمال العراق , رغم اغلبيتها الطيبة والمتسامحة والمحبة للتعايش مع الاخرين والتي تمتلك تاريخا مسالما.لكن اجندة بعض سياسيها اعتمدت على الاطر السياسية ذات المنافع القبلية المختلفة عن محيط سكان جبال تركيا وسوريا وايران.مما سمح لبيئات دكتاتورية جمعت بين ثقافة الاستحواذ وبين دكتاتوريات بمنهج لايبتعد عما سبقها من دكتاتوريات حكمت المكان اينما كان.

9. غالبا مايكون المجتمع مجتمعا احتفاليا بهيجا بتقاليد الوانه الزاهية وطريقة الفرح والغناء بطبقات نبرات الصوت المتعالي لطبيعة الارض الجبلية التي تتعالى مع تعالي طبقات الصوت المغنى. والطبيعة الخضراء جبالا وسهولا وطبيعة الطقس والغذاء كلها تساعد في الطمأ نينة والاستقرار والشعور بالرضى رغم مامرت به من المآسي.

10. جبنات العناد المكتسبة من الموروث والبيئة –البيئة التي تعاند الطبيعة التي هي الجبلية . تصنع ثقافة العناد المكاني الذي يؤسس لثقافة مختلفة نوعما عن بقية الثقافات السلوكية مقارنة بثقافة الجبال واهمها:

آ. تكوين مواقف مسبقة انية منفعلة ترفض الحوار مع الاخر.

ب.العناد المكتسب يؤدي الى عواطف عنفية لفظا وممارسة.

ج. الشعور بالذات المهمشة والمستهدفة بسبب الانتماء العرقي .

ع. كل ذلك يؤدي الى الاحساس بالانا للحفاظ على الذات المهددة وهميا من الاخر.

ثانيا : الشخصية البدوية :

الكثير تناول البداوة وماتمتلكه من مقومات لمنظومة القيم الراسخة في تقاليدها . الا ان طبيعة الجغرافية في البادية والصحراء هي الاخرى صنعت سلوكيات مختلفة عن غيرها من الجغرافيات . التنقل الموسمي , وشحة الامطار وبعد بعض البوادي عن الانهار . جعل الشخصية البدوية التي تعتاش على غزو ممتلكات الاخرين نوع من الشجاعة والرجولة لاثبات قوة الهيمنة والسيطرة . وترك الانطباع على ان رئيس القبيلة هو ملك البادية برجاله وصرامته وعزم ابناءه وابناء عمومتعه . فتكونت لديهم العصبية القبلية كجزء من منظومة قيمها الواجب اتباعها.

قيام بعض من رجالات البادية بالعمل داخل المدينة بعيدا عن جو الصحراء والترحال. وكثيرون وجدوا فرصا للعمل وتكونت هجرات كبيرة الى داخل المدنة الحضرية. فاصبح النسيج المجتمعي خليطا داخل المدينة –العاصمة . والبعض الاخر اصبح وبمرور الزمن ودخول المنظومات العسكرية وتسلم زمام المبادرات في المعسكرات للتخطيط لانقلابات عسكرية . كانت نتائجها حكم البادية بكل ماتملك من صفات الى مركز التحضر المديني. تلبست المدينة لباس البادية عنوة وتحت قوة السلاح. من هنا فان تغير النسيج المجتمعي , يصبح مبعثرا بين اللا انسجام في التعاطي بين ثقافة واخرى. السلوك الانوي السادي

الحازم الذي يحمل الثقافة القبلية المتعالية . هو احد اهم الاسباب الجوهرية في نمو عادة البيئة البدوية مع تناغم ونمو بقايا جينات مزاجية وجينات العنف والشراسة الموروثة في احيان كثيرة.

اهم الصفات العامة :

1 . تمتلك صفات البيئة القاسية التي لها تاثير على قساوة السلوك . وهو جين صنعته الطبيعة.

2. ثقافة الغالب جزء من شجاعتها التي اصلتها بيئتها من اجل البقاء.

3.جنوسة الدماغ اي الهوية الذكورية تاصلت منذ النشاءة .واصبح الفصل في امكنة العيش وحواجب الجنوسة بين المراءة والرجل , جزء اساس لهيمنة الذكورية على عطاء الانوثة.

4.امتلاك ثقافات الاستحواذ والتملك بسبب تقلب الطبيعة وجفافها , والتنقل احيانا لاسباب عديدة.

5. عشائرية كالجبلية لكنها رئاسية حازمة في تاكيد وجودها كاعراف تعتبر مخالفاتها خرقا للقيم التي قد تختلط بين التشريع والاعراف.

6. كثير من الصفات السادية في تعاملاتها مع محيط مختلف وغريب عليها عندما تقتضي العيش في امكنة تحاول استملاك سطوتها, والتلذذ باذى الاخر.

7. احد اسوء ممارساتها عندما تهيمن سياسيا على مرافق السلطة . فتعلو مصالح المكانية على مصالح عامة الناس.

8.تخلخل النسيج المجتمعي العام بسبب الفوارق بين ثقافات المدينة وثقافة البداوة . فيصعب الانسجام والتفاهم , لشيوع الشعور بالغربة المكانية لكل طرف .

9. الزهو والمخيلة في امتلاك التراث الاصيل الخالي من العيوب. وهذا مايجعل صفة الغرور والتباهي والافضليات عن غيرها في المجتمع.

10. الفروسية وامجاد تاريخها ,وصبر الجمال كان ومازال ثقافة تعالت عن ثقافات المعرفة والتعليم.

ثالثا : الشخصية المتريفة :

ثلاث اماكن تحددها الشخصية المتريفة التي تعتمد على الزراعة وعلى الصيد , اسماكا وطيور والمجاورة للاهوار , وعلى الشخصيات المتاخمة للانهر وضفافها والتي تناولناها في فصولنا السابقة.

عادة ما تعيش هذه الشخصيات في سهول واراضي منبسطة . في متناول السلطات الحاكمة عكس الاختباء بين تضاريس الجبال وبعدها عن المركز. هذه الشخصيات التي نشأ ت على اراضيها حضارات واساطير مازالت تعتاش على وعي جمعي له ارث حزين بين سلطات الطبيعة المتقلبة وبين التهميش الذي ساد مناطقهم. فتاسس لديهم ماكان يمارس من حزن سومري الى حزن معصرن يربط بين حزن سومر وحزن الطف. ولهدوء الطبيعة الزراعية بمائها وطبيعتها وماتحمل من معاناة فرضتها ادلوجات التناقض بين الحاكم وبين سكان المكان . اصبح لديهم الحزن الجنائزي جزءا من اللحن المغنى في افراح هذه المناطق . تحمل حزنا فيه ظلم الماضي وظلم الحاضر. فاسس ذلك لثقافة المظلومية التي تتميز بها الشخصية المتريفة العراقية. اضف الى سكان الاهوار وما يتمتعون فيه من طبيعة تناغمت مع مايجاور اهلها من ريف زراعي رغم تباين ثقافاتهما, ولو بقليل.

ان سلطة الدين والعشيرة كمرجعيات تكمل بعضها البعض في هذه المناطق. ولاء السكان هو ولاءات المرجعيات الدينية والعشائرية. لغياب الدولة عن اي رعاية للمناطق و كردة افعال للتهميش القسري الذي مارسته السلطات الحاكمة. اضف لذلك الانتفاضات التي عادة ماتكون فراتية المنشأ – كما ورد سابقا – وسهولة وصول سلطة المركز وسطوتها العنفية . اضافة لثقافة المظلوم المتزامنة مع ثقافة التقية المتبعة حيثما اريد منها ان تكون تقية من الظلم والمهلكة .

من كل ذلك كانت ومازالت الشخصيات هنا تمثل سكان بتنظيمات متعددة متناثرة يملئها الخوف وتشعر انها مستهدفة على الدوام. فالتقية استبدلت بالمداهنة والمجاملات االتي تقلل من انسانية الانسان وباسليب التوسل وبوس الايادي عند الحاجة لاي مساعدة او عون لهذه الشخصية. مهمشة همشت ذاتها قبل شخصيتها. وستظل كذلك بلا حقوق ولاتوجد مرجعيات اي كانت تلبي حاجات وفك حصار ثقافة التلذذ بالاذى. حتى وهي تمارس مسؤولياتها في السلطات العليا كساسة تمثل طوائفها الا انها مازالت خنوعة انانية غير مؤتمنة على ارث الماضي ومكاسب الحاضر المنهوبة.

اهم الصفات العامة:

1.عفوية فطرية عاطفية باكية ومستنجدة.

2. مستضعفة خانعة وخائفة .مهمشة وغاضبة

3.ثائرة معارضة بالضد من الدولة.

4. تتمتع باكثر من ثنائية في تعاملاتها بين الاضطراب وقلق الذات المبرر واللامبرر.

5. معارضة ومحاججة .متناقضة بين المقدس والمدنس .

6.وطنية الولاء عشائرية الانتماء دينية الهوى .

7.تستلهم ثقافتها من :

آ. من الواقعة المكانية لمأساة الطف .وقربها منها كتاريخ وحدث يؤرقها اينما تكون.

ب. تعايشها في امكنة الحضارة السومرية . وتاريخها على طريقة العيش السكانية – الاهوار –مثالا

ج.بدائية الموارد وتبيئة المكان والغذاء , انتج التنميط والسكون في طرق الحياة المحدودة.

ع.الفرح الجنائزي واطوار الشعر المناطقي الملحون والمغنى , سمة واضحة للسكان.

رابعا: الشخصية المدينية:

عندما يهاجر اهل الجبال والبوادي والارياف الى مركز المدينة –العاصمة – بكل ماتحمل من ارث حضاري وتاريخ عريق . تتجانس فيه كل الاعراق الاخرى وتتعايش ضمن اطر القوانين واسلطة الدولة ودستورها . ليكون الضمانة لتعايش اليهودي والاشوري والمسلم والمندائي والايزيدي والكردي والتركماني والفيلي ومن له اصول هندية او تركية او افغانية او داغستانية وبمناصب في الدولة العراقية. لم تفتش بغداد عن انتساب هؤلاء الاقوام واسم عشيرتهم ومن اي فخذ ينتمون؟؟.

الا عندما كان الحاكم خليطا هجينا بين البداوة وهي تمارس السياسة الدولية دفعة واحدة .وبين حكم المدينة العريقة بغداد , تفلش النسيج المجتمعي الذي كان منسجما متعايشا اقتصاديا واجتماعيا . طبقته المتوسطة تمثل عشرون بالمائة من مجموع السكان ووزير مالية الدولة يهودي احرص من اي من الملل الاخرى. وكان المندائيون منارة الالق الذهبي في شارع النهر وادق مهن الزخرفة في صياغة المصوغات الذهبية. وخيرات العسل ومحاصيل الجبال ونزاهة وحراسة الكردي لاغنى مخازن المواد في العاصمة هو عنوان لايفرق بين هوية دون اخرى.

عندما تكون الهجرات الغير منظمة بابا من ابواب التخريب . يضيع الماضي والحاضر والمستقبل . ضمن اللاتخطيط في كل مناحي الحياه. فتصبح الهجرة المعاكسة هي الفراغ الحتمي للوعي المديني وثقافته وارثه ولغته واناقة ذوقه الموسيقي والمسرحي والفني. ولاتعلو في العاصمة الا من انت والى من تنتمي ؟ هذه الثقافة التي حملتها البداوة وسلطة الحاكم الجاهل الذي ينتمي لضيق الافق الثقافي المكاني.

ليس لدينا تصنيف حقيقي للمدينة اي المركز او العاصمة لان الهجرات قلبت بشكل ملموس جوهر الانسجام المديني – الحضري في السلوكيا ت والتعاملات بين طبقات المجتمع.

اهم صفات الشخصية المدينية:

1.انتهازية متقلبة المصالح والمنافع الانانية . كلما اقتربت عن مصادر المال والجاه.

2.متباهية بالمظاهر وما يشاهده الاخرين.

3.منظومة قيمها بمفاهيم تختلف عن بقية الامكنة.

4.المحسوبيات واقنعة المداهنات هي السائدة في مجتمعاتنا المدينية.

5.مصالح الافراد تعلو عن مصالح المجتمع.وتدافع الاستحواذ منافسة يومية تمثل جزءا من العمل.

خامسا :شخصية المدن الدينية

هي شخصيات خليطة بين الاضرحة التي بها رموز تاريخية ودينية تمتلك روحية المكان وتؤطر منه ملامح الذاكرة التاريخية . وبين اروقة طلبة الدراسات المتخصصة في الفقه والشريعة . وغالبا ما تكون المقابر ضمن المدن الدينية.مما يعكس ترادفية المعنى في اقتران رمزية الضريح ومحاولات المخيلة الشعبية في جعل المقابر قريبة او ضمن المدن الدينية.تاسيسا لشفاعة الصالحين او لقدسية المكان وترابه.

ومن اهم صفات هذه الشخصيات:

1.كثير من هذه الشخصيات تكون مداهنة على حساب المبادئ التي يمثلها المكان بازدواجيته كاضرحة وقبور اموات تملأ ساحات واسعة.

2.خلطت بين المنتهي من الموتى التي تستقر في قبورها يوميا مارة بوسط المدينة واضرحتها . وبين رمزية الاضرحة ان لم نقل قدسيتها . فاصبح سلوكها مركب – اكثر من مزدوج – فهي تنتمي الى خداع ذاتها في انها جزء من هذا الخليط التقي الزاهد والشاخص في الضريح لكل الزائرين. وبين اسراب الاكفان في الدنيا الفانية و لتستقر في مثواها. وهي مستعدة لان تشرعن لاي عمل يحقق مصالحها الانانية على حساب الاخرين, اتخذت من الاكفان عبرة لها ولم تتعض بزهد وعفة الضريح.

3.اعتبرت المراسيم والطقوس منافع للكسب , واستغفلت العقل الجمعي لتحقيق مكاسبها.لم تستطع تثوير الوعي من محورية ورسالات من في داخل الاضرحة, بل ساهمت في تزين ظواهر الاضرحة دون تعميق مبادئ ورسالات من هو داخل الضريح كرمز للاصلح .

4. هنالك اختلافات في السلوك والوعي بين شخصيات خنعت وتلذذت في اذى ذاتها وتعتبره جزء من طقوس العبادة والتقرب. وهنالك بمدن اخرى لها رمزية دينية في الصالح من في الضريح, لكنها رافضة لاي اذى يصيبها. يمكن تحليل ذلك السلوك والتصرف بما يلي:

آ. اضطهاد السلطات وقساوة التعامل وتهميش سكان هذا الضريح بعينه جعل التقية , والتلذذ بالاذى

احد وسائل الحماية المفقودة من قبل الدولة.اضافة للارث التاريخي في الفرات وما جرى عليه وفيه.

ب.قرب سكان الضريح الاخر من السلطات جعلها جزءا من السلطة وماتمتلكه من انتماءات .فلها سلطة الانتماء ومكانة الضريح وابتعادها عن اكفان الموتى . كل ذلك شكل لها شخصية مختلفة عن غيرها. اضافة الى وجودها على ضفاف دجلة نهر السلطات السياسية .

سادسا : الشخصية العشوائية

مجاميع سكانية خليطة لاتنتمي لامكنتها , بل اسست لنفسها تجمعات في تخوم ومحيط المدن السكانية. سرعان ما تتآلف فيما بينها وتشكل حزاما من مفاهيم الرفض في التغير والتجديد , وتعتبر انها الاكثر تهميشا واهمالا من قبل الدولة . هذه المجاميع الاقل تعليما والاكثر فقرا , منتشرة في معظم البلدان بكثافات سكانية كبيرة. باغلبية لاعمل لها الا من خلال البعض المتسول .

ومن اهم صفاتها مايلي:

1.عدائية ليس لديها اشياء تفقدها . بعد ان فقدت الحماية من الدولة والمجتمع.

2.قلقة غير مستقرة خائفة من اجبارها على التخلي عن امكنتها الغير شرعية.

3. تعمل اي شئ من اجل بقائها , متعاضدة ومتعاونة فيما بينها , سيما ان كان ذلك في رفض تنفيذ القانون.

4. متوسلة وعنيدة من اجل البقاء في امكنتها رغم ردائة العيش لان بدائلها هي الاسوء.

5. شرائح تدل على الخراب المجتمعي الذي جعل التمايز الطبقي مشاعا وعاديا وفقدان الحماية الاجتماعية من الدولة.

6. مفهوم المواطنة يعني لها لقمة العيش والسكن , واجباتها تؤديها بلا حقوق تاخذها من الدولة والمجتمع.

سابعا : الشخصية المُسيسّة

لم نتناول بقية الشرائح او الطبقات الاخرى في المجتمع لان الطبقات السياسية والشخصية السياسية هي الشخصية المهنية التي تستطيع ان تحرك جميع الفئات في المجتمع من خلا ل اجهزة الدولة واروقتها كتنظيم اجتماعي وثقافي واقتصادي يحرك جميع الطبقات من خلال التخطيط الاستراتيجي في مسارات الدولة والمجتمع.
والمسيسة هي سياسية الواجهة لكنها تجهل اهمية السياسي في ادارة العلاقات الاجتماعية وتحفيز بقية الطبقات العاملة معه لخدمة المجتمع بكل اطيافه. بل هي شخصية تملك ادلوجات عاطفية منفعلة وانانية.
الا ان هذه الشخصيات التي تحكمُ, قد اخفقت في معرفة علوم المجتمع وحاجاته الضامنة لامنه القومي وفق منظور قاصر عن رؤية واستشراف المستقبل لعدم كفائة هذه الشرائح وفقرها المعرفي في بناء دولة الانسان كبقية الدول المتحضرة ضمن المنظور الساسيولوجي الفعال.

من اهم صفات هذه الشخصيات :

1.لاتمتلك مفاهيم ومعاني المسؤولية الاخلاقية .
2.فقرها في علم الادارة الاجتماعية لفشلها في تقليص الفوارق بين الناس.
3. ادلوجاتها هي الطاغية على المصلحة العامة.
4.فقدان الكارزما القيادية في جميع الانشطة التي تستقطب الجمهور.
5. خطاباتها انفعالية منحازة لانتمائاتها غير مكترثة لاهمية التآخي المجتمعي.
6. غير امينة و تفتقد للضمير الانساني .
7. انانيتها السفلى حجبت عنها التعرف على معاناة من تحكم.
8.معارضة لذاتها ومنعزلة عن جمهورها العام وقريبة لانتمائاتها الحزبية والفئويةوالمذهبية.
9.غير صادقة في خطاباتها مع الجمهور لانها تجهل كيفية تطبيق وعودها للناس.
10.الشخص المناسب في المكان المناسب شعار لايفهمه او يطبقة ساستنا.
11.سمة الكذب وفقدان الخجل او مفهوم العيب الاجتماعي غاب عن اروقتهم الرسمية والخاصة.
12.يشكلون كوارث مجتمعية واقتصادية منذ تاسيس الدولة او السلطات العائلية الحاكمة في منطقتنا.
13.خبراء واكفاء في تعميق الفوارق بين افراد المجتمع.
14. ليس للمال العام والوقت قيمة لديهم قدر تعلق الامر فيما يكسبون.
15. احد اسوء الشرائح المجتمعية الذي عرفها التراث الوطني.
16. معظم نكساتنا وكوارثنا من سوء ادارتها للازمات التي مرت وتمر بالبلاد.
17. هدفهم استبعاد الكفاءات العلمية والتخصصية بسبب المحاصصات القاتلة لمؤسسات الدولة.
18.تعمية المجتمع وشيوع الامية والجهل وفقدان برامج التنمية البشرية .
19. تدعي الايمان بانتمائاتها راكبة, انتمائاتها وصولا لمصالحها الذاتية.
20. تستهلكها السلطة وتاكلها الوجاهة والمال , ولا تعلم متى يتم تقيئها.

الخلاصة

كلما يتنامى الوعي المجتمعي ., الذي هو اساس البنى التحتية لبناء الدولة , دولة الانسان ودولة المجتمع. وعندما يكون الوعي الثقافي المكاني والوعي العام ناضجا . بالتاكيد تكون خيارات المجتمع اكثر نضجا مما هو عليه عندما يتدنى الوعي العام. وكلما يتعمق الالم كلما تتسرع وتائر الاستنهاض .

اختيار الحاكم الجيد الذي يمتلك مقومات الشخصية القيادية بكارزما فعاله تلهم الجماهير وتنمي انتمائها الوطني , كأولوية على الانتماءات والولاءات الاخرى . ذلك يتم ضمن برامج تخطيطية تؤهل المجتمع وتصنع له وعيا جديدا متحضرا متعصرنا يلبي حاجاته ومتطلباته من التغير نحو التجديد.

وكلما تتنامى المجتمعات المدنية اللامتحزبة , نستطيع ان نبني رأي عام يمثل سلطة اعلامية نزيهة مهنية تنتمي لابنائها وحاجاتهم الملحة . بذلك سنضيف قوة مدنية فاعلة ومؤثرة , يكون رقيبا لنشاطات المؤسسات.

وعندما يكون التعليم واسلوب التدريس لا تلقيني ويعتمد المنهجية النقدية في التفكير , يتعمق الابداع.

وعندما تشرع القوانين كمرجعيات مجتمعية ضامنة للحقوق والواجبات , يصبح للدولة مركزية قانونية حواضنها المجتمع والقانون , فتتجانس مكونات الدولة والوطن , لارتباطهم بمصالح تخدم الجميع .

ان تاسيس دراسات تخصصية واسعة وحديثة في علم الاجتماع له اهمية في مواكبة مايستحدث من علوم تؤثر جديا على سلوك وانسجام المجتمع وتجانسه . ولابد من تاسيس اقسام جديدة كعلم الاجتماع الجيني وغيره من الاقسام المهمة الاخرى . لما لعلم الانسان والمجتمع اهمية في تنظيم النسيج المجتمعي بمنهجية علمية. لياخذ كل فرد بالمجتمع دوره الخلاق في مجمل انشطة الدولة والمجتمع , وبلا تميز او تهميش .

المصادر

(1): سيدا – عبد الباسط -1995- من الوعي الاسطوري الى بدايات التفكير الفلسفي النظري . بلاد الرافدين. دار الحصاد – سورية .

(2) : بونت –بيار –ايزار ميشال -2006 –معجم الاثنولوجيا والنثروبولوجيا ترجمة مصباح الحمد . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

(3): http://tasamoh.om/index.php/nums/view/26/517

(4): http://www.startimes.com/?t=30545827

(5): http://www.cksu.com/vb/showthread.php?t=138056

(6) : https://www.facebook.com/adel.bouarar/posts/1589776927905211

(7) : د.رشود بن محمد الخريف :قسم الاجتماع والخدمة الاجتماعية . جامعة الملك سعود 1423 هجري

(8): علم الانسان http://ar.wikipedia.org/wiki/

(9) :

http://mominoun.com/articles/%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86_%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%86%D8%AB%D8%B1%D9%88%D8%A8%D9%88%D9%84%D9%88%D8%AC%D9%8A%D8%A7-2324

(10) النور للدراسات :

د. فضيلة عرفات . http://www.alnoor.se/article.asp?id=50599

(11) د. مهدي سعيد حيدر : كتاب هندسة التفاوض

http://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb234941-215709&search=books

(12) :http://rommanicity.canalblog.com/archives/2008/06/05/9460539.html

(13) د. وليد نويهض :دراسة منشورة في : صحيفة الوسط البحرينية - العدد 1547 .

.

(14) سليم مطر:
http://www.mesopot.com/default/index.php?option=com_content&view=article&id=242%3A2010-05-14-15-51-28&catid=39&limitstart=10

(15): حسين درويش العادلي : الدولة الصلدة والدولة المرنة – الصباح العراقية.

(16) : ديورانت-ول - 1971- قصة الحضارة . الجزء الثاني .ترجمة زكي نجيب, دار الفكر.

(17) : السواح ب – 139فراس - 1997- الاسطورة والمعنى , دار علاء الدين .

(18) : العقل في المجتمع العراقي – شاكر شاهين . التنوير للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت

(19) : الحموي – شهاب الدين ياقوت الجزء الرابع .معجم البلدان , دار صادر بيروت .

(20): المؤلف : لماذا الكذب ؟ .

http://almothaqaf.com/index.php/aqlam2009/64653.html

: (21)

http://www.thaindian.com/newsportal/health/greedy-gene-that-makes-people-glutton-identified_100129530.html

(22) المؤلف :

http://almothaqaf.com/index.php/qadaya2009/55489.html

(23)

http://www.timesonline.co.uk/tol/news/uk/article1152068.ece

: (24)

http://www.geneticliteracyproject.org/2014/11/04/does-the-human-warrior-gene-make-violent-criminals-and-what-should-society-do/

: (25)

http://en.wikipedia.org/wiki/5-HTTLPR

: (26)

http://scienceblogs.com/purepedantry/2008/04/09/the-ruthlessness-gene/

ملاحظة:

عندما لم نذكر المصادر هي من محاضرات او مقالات يمكن الرجوع لبعضها في موقع المؤلف

www.dr-alazawi.com

وفي التسجيلات الصوتية لمواضيع ذات صلة على اليوتيوب للمؤلف: dr.hayder.

وللمزيد يمكن مراسلة المؤلف على ايميل:

dr.hayder@gmail.com

متعددة هي دراسات علوم الاجتماع في معظم اروقة المؤسسات التعليمية , المتخصصة . وكان المرجع لكل هذه الدراسات في مجتمعاتنا , هو ابن خلدون , عالم الاجتماع الاول. ثم توافدت البعثات . بين المتخصصون من مناطق الشرق الاوسط . قابلها مستشرقون , تناولوا بنية الفرد , الانسان وبيئته . وتداول الجميع مصطلح الشخصية , الريفية والبدوية والمدينية . وراح البعض متوسعا في صفات الشخصية الرافدينية ومقارنتها بصفات االشخصية النيليلة . وظلت هذه التعاريف والشخصيات منذ عقود طويلة من الزمن متداولة. بين من يبحث ويدرس في علوم المجتمع المتعددة . كتابنا هو منهجية في تناول الجغرافيا وطبيعتها كأمكنة للنشأة كتربية , ومالها من تاثيرات على صناعة جينات مكتسبة من الامكنة الثقافية , اضافة للموروث المكتسب وراثيا . الصفات والسلوك كل حسب مكانه تضمنها كتابنا بجرأة معرفية ومنهجية من الواقع المعاش . وتشخيص ماكان غير مدون في كتاب .